دراسات في التاريخ والآثار

(٦)

مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين
في العراق

مطبعة الامة ــ بغداد

دراسات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

العراق / بغداد / ص٠ب (٢٧٠٨٩) شارع (١٤) رمضان

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص٠ب : (٢٧٠٨٩) بغداد ـ شارع ١٤ رمضان

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ـ جمعية المؤرخين والاثاريين

ت : (٥٣٨١٣٠٤)

الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار

الاشتراك السنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٥٠) دينارا سنويا

أعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالآتي :

أ ـ صكوك لامر الجمعية

ب ـ نقدا لامر الجمعية

ـ في هذا العدد ـ

المقـــدمة

يصدر العدد (٦) من مجلة دراسات في التاريخ والاثار في غمرة انتصارات شعبنا المستمرة • فبعد النصر العسكري والسياسي في ساحات القتال والمحافل الدبلوماسية الذي توج بقبول النصر العسكري والسياسي في ساحات القتال والمحافل الدبلوماسية الذي توج بقبول العدو لقرار ٥٩٨ لوقوف اطلاق النار بين العراق وايران يعيش القطر انتصارا آخر للارادة العراقية الجديدة • فيتم اعمار البصرة (مدينة المدن) بزمن قياسي ويشمخ شط العرب جاريا في حراسة الابطال الاكرمين الذين دافعوا عنه ••• وتبذل الجهود المخلصة وتسيل حبات العرق لتعانق دم الشهداء على أرض الفاو (مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم) ويسجل الانسان العراقي اعجازا جديدا له دلالاته فهو من جهة يؤكد ارادة السلام والخير ومن جهة يطمأن الخليج العربي ان ماءه لن يدنس وان الفاو رمز اطمئنانه الدائم ومن جهة أخرى يؤكد ارادة الانسان العراقي على اختصار الزمن وانجاز ما يجعل وجه المدينة العراقية مشرقا صبوحا • اذن هنا يتحرك الانسان ليكتب التاريخ بعد ان صنعه ويدلل على انه كان وفيا لقائده التاريخي مستجيبا لطموحه في بعث بناء حضارة العصر في هذا الوطن واستمرار الدور الفاعل للعراق العظيم فتاريخ عراقنا هو تاريخ المثابرة الانسانية دائما لبنـاء الحضارة وتسجيل أروع صور الحوار بين الانسان والارض والزمن •

رئيس التحرير

الاستاذ الدكتور نزار الحديثي

١٩٨٩

حضارة بلاد وادي الرافدين : طرق انتشارها : وابرز تأثيراتها في بلاد الشام ومصر

فاضل عبدالواحد علي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

من المعروف ان البحث في انتقال اية تأثيرات حضارية من بلد الى آخر في العصور القديمة يستلزم في الغالب وجود اتصالات مباشرة عن طريق التجارة او العلاقات الثقافية او الحملات العسكرية . ومن المعروف ايضاً ان بلاد وادي الرافدين ، المشهورة بخصوبة ارضها ووفرة مياهها ، تفتقر من جهة أخرى الى كثير من المواد الاولية وخاصة المعادن والاخشاب الجيدة والاحجار الصلدة . ولذلك كان الحصول على مثل هذه المواد امراً لايستغنى عنه في عملية البناء الحضاري ، وهذا ما ادى بدوره الى امتداد الطرق البرية من وادي الرافدين باتجاهات مختلفة وصولا الى بلدان دانية وقاصية(١) . فباتجاه الغرب كان هناك طريقان رئيسيان يؤديان الى بلاد الشام والبحر المتوسط . وكان الطريق الاول يبدأ من مدينة سبار (ابو حبه) الواقعة على نهر الفرات في منطقة اليوسفية ، والتي لاتبعد كثيراً عن مدينة الفلوجة ، ويسير بمحاذاة نهر الفرات ماراً بمدينة هيت (ittu في النصوص المسمارية) وعانة (anati) ثم مدينة ماري بالقرب من «ابو كمال» . ويستمر هذا الطريق من هناك وسط الصحراء فيمر بتدمر ومنها الى حمص حيث يتفرع الى المدن الساحلية الفينيقية على البحر المتوسط . ومن المعروف ان هذا الطريق يخترق الصحراء لمسافة تقرب من ٥٠٠كم ولذلك فان استخدامه لم يكن امراً سهلا للقوافل التجارية والحملات العسكرية على حد سواء لان ذلك كان يتطلب حمل كميات كبيرة من المياه والطعام والعلف .

اما الطريق الثاني ، وهو اطول من الاول لكنه اكثر امنا ، فيمر في مصادر مائية كثيرة • فهو يبدأ من العاصمة الاشورية نينوى على نهر دجلة باتجاه الغرب قاطعاً منطقة الجزيرة الشمالية بين نهري دجلة والفرات • ويمر هذا الطريق في الموضع الاثري القديم شوبات انليل(Shubat Enlil) ، ربما شاغر بازار حالياً ، وفي كوزانا (Guzana) ، اي تل حلف على نهر الخابور ثم في مدينة حران الواقعة على نهر البليخ ومنها الى كركميش بعد عبور الفرات • وينحدر هذا الطريق بعد ذلك باتجاه الجنوب الغربي ليصل الى مدينة حلب ومنها يتفرع الى فرعين رئيسين • احدهما ينحدر الى المناطق الوسطى من سوريا والآخر الى المناطق الساحلية منها • ويتفرع من هذا الطريق ، وفي نقاط متعددة ، فروع باتجاه الشمال الغربي وصولا الى كلبيكيا وبلاد الاناضول ، وكان بالامكان الوصول الى ارمينيا والاجزاء الشرقية من اناضوليا باتباع طريق يبدأ من العاصمة نينوى بمحاذاة نهر دجلة وصولا الى ديار بكر ومنها ينفذ خلال مضايق جبل طوروس الى ارمينيا•

وكان بالامكان الوصول الى بلاد وادي النيل من الاراضي السورية ـ الفلسطينية عبر سيناء وصولا الى دلتا النيل وهو الطريق الذي اتبعه الاشوريون في حملاتهم العسكرية ايام اسرحدون وابنه اشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد • وهناك من يعتقد بان التاثيرات المبكرة التي وصلت من وادي الرافدين الى وادي النيل ، ربما وصلت عن هذا الطريق او ربما عن طريق بري آخر يبدأ من سومر مخترقا جزيرة العرب ثم يعبر البحر الاحمر الى وادي حمامات ومدينة القفط عند ثنية النيل(٢) •

اما اتصالات وادي الرافدين بالبلدان الواقعة الى الشرق منه فكانت

صعبة بسبب المنطقة الجبلية الوعرة التي تمتد فيها سلسلة جبال زاجروس كما ان سكان هذه المنطقة كانوا من القبائل الرعوية المتخلفة التي كانت تتحين الفرص دائماً للانقضاض على المراكز الحضارية في المنطقة السهلية • ومع ذلك فان الاتصالات لاغراض تجارية او عسكرية عبر هذه السلسلة الجبلية كانت ممكنة من خلال منافذ أي ممرات معروفة هي :

١ ـ ممر رايات بالغرب من راوندوز ٢ ـ ممر عند حلبجة الى الجنوب من السليمانية ٣ ـ ممر خانقين • وجدير بالذكر ان الممرين الأولين كانا يؤديان الى اذربيجان وسواحل بحيرة ارميا ، اما ممر خانقين فانه يصل الى كرمنشاه وهمدان ومدن الهضبة الايرانية ٤ ـ وهناك طريق رابع الى اقصى الجنوب ، يسير بمحاذاة سفوح جبال زاجروس ابتداءاً من الدير بالقرب من بدره وصولا الى العاصمة العيلامية «الشوش» بالقرب من ديزفول ، وهو في الحقيقة امتداد للسهل الرسوبي في وادي الرافدين •

اما باتجاه الجنوب فكان للعراق اتصالات قديمة مع بلدان الخليج العربي عن طريق الخليج نفسه الذي يشار اليه في النصوص المسمارية بـ «البحر الاسفل» او «بحر شروق الشمس» مقارنة بالبحر المتوسط الذي يعرف في النصوص المسمارية بـ «البحر الاعلى» او «بحر غروب الشمس» • واقدم هذه الاشارات قد ورد ذكرها في نص للملك لوكال زاكيزي الذي حكم في الوركاء في حدود (٢٤٠٠ ـ ٢٣٧١ ق•م) • وكان للعراق عن طريق الخليج العربي اتصالات تجارية في الغالب مع بلدان تذكرها النصوص المسمارية باسماء دلمون ، مكان وملوخا والتي هي على التوالي البحرين وعمان وربما حوض نهر السند •

يمكننا القول دون تردد ان اختراع الكتابة في سومر في حدود (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق٠م) كان من ابرز المنجزات الحضارية في بلاد وادي الرافدين ، وان انتشارها الى بلدان واقاليم عديدة خارج القطر كان واحداً من اهم الاسهامات التي قدمها العراقيون القدماء لشعوب تلك البلدان ، لانهم تعلموا عن طريق الكتابة كيف يدونون الكلمة ويسجلون بها التاريخ٠ واضافة الى ذلك فان الخط المسماري اوجد رباطاً وثيقا كانت له نتائجه المهمة في انتقال كثير من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتاجات الادبية والثقافية[٢] ٠ وقد كشفت التنقيبات الاثرية ان الخط المسماري انتشر في منطقة واسعة امتدت من ايران شرقا الى البحر المتوسط غربا ومن بلدان الخليج العربي جنوبا الى الاناضول شمالا ٠ فبعد قرنين تقريبا من ظهور الكتابة في سومر ظهر في سوسه (شوش) عاصمة عيلام ما يعرف بين المختصين بـ «الخط العيلامي القديم» الذي يعاصر في تاريخه دور حمدة نصر (٢٨٠٠ ق٠م) في العراق ٠ وهناك نماذج من هذه الكتابة وجدت مدونة على مئات من الرقم وهي على مايبدو نصوص اقتصادية ٠ ويرجع الباحثون ان الخط العيلامي هذا انما ظهر بتاثير مباشر من وادي الرافدين الذي سبق وان شهد ظهور «الخط المسماري» قبل ذلك بقرنين تقريباً ٠ ومما يرجح هذا الرأي أن بلاد عيلام كانت دائماً تحت تاثير الزخم الحضاري للعراق ويتجلى ذلك بصورة اوضح عندما ترك العيلاميون في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد خطهم العيلامي القديم واستعملوا عوضاً عنه الخط المسماري المعروف في وادي الرافدين ٠

اما باتجاه الغرب فقد كان للظاهر الحضارية من بلاد وادي الرافدين

حة مورمبكـر في مناطق الفرات الاوسط وشمالي سوريا • ومن المدن الشهيرة التي تأثرت بشكل واضح بالمقومات الحضارية العراقية القديمـة هي مدينة ماري التي تقع على الفرات والتي تمثلها أطلال تل الحريري على بعد ستة اميال الى الشمال من «ابو كمال» في سوريا • ومما تجـــدر الاشارة اليه ان مدينـــة ماري كانت من الاقاليم الواقعـــة ضمن منطقة النفـــوذ السياسي والحضاري لبلاد وادي الرافدين ، واقدم الاشارات التي وردت اليها في النصوص المسمارية تعـــود الى زمن الامير السـومري اياناتم (Bannatum) في حدود (٢٥٠٠ ق٠م) من ســـلالة لكش الاولى حيث ذكرها ضمن أسماء المدن التي شملتها فتوحاته العسكرية • غير ان فترة قرن من الزمن التي تلت حكم هــذا الأمـــير اتسمت باضطراب الاوضـــاع السياسية في بلاد سومر فاستطاعت سلالة حاكمة في ماري من مـد نفوذها عـلى بلاد سومر لمدة ١٣٦ عاماً حسب ماتذكره قائمة الملوك السومريـة • وعلى اية حال فان هذه المدينة اصبحت جزء من الامبراطورية الاكدية عندما ضمها سرجون الاكدي الى الاقاليم التي سجلتها فتوحاته في مناطــق الفرات وشمالي سوريا • وظلت ماري تحت نفوذ السومريين خلال سلالة اور الثالثة (٢١١٣ ـ ٢٠٠٦ ق٠م) • وحققت مملكة ماري استقلالها السياسـي فـي العصر البابلي القديم حيث انها احتلت مركزاً مرموقاً بين السلالات المتعاصرة والمتنافسة على السلطة في ذلك العصر وخاصة في زمن ملكها الشهير زمريلم (١٧٧٩ ـ ١٧٦١ ق٠م) الذي كان معاصـراً للملك حمورابـي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق٠م) في بابل •

وقد كشفت التنقيبات في مدينة ماري عن ارشيف القصر الملكي الذي

ضم اكثر من ٢٠ الف رقيم مدونة بالخط المسماري واللغة الاكدية .
ولوثائق ماري اهمية كبيرة من الناحية التاريخية فهي تسلط الاضواء على العلاقات السياسية بين ماري والممالك السورية الاخرى مثل كركيش وحلب وقطنه من جهة وعلى علاقاتها مع اشور وبابل من جهة أخرى . فمن بين الوثائق المكتشفة رسائل تعود الى الملك زمريلم كان قد تبادلها مع سفرائه وموظفيه في المدن التابعة له . وهناك رسائل اخرى تعود الى زمن يسبق مجيء زمريلم الى الحكم ، منها تلك التي بعثها اشخي - ادد ، ملك قطنه ، الى كل من يسمح ادد الذي سبق زمريلم في الحكم على ماري والى اشمي - دكان الذي تولى حكم المنطقة الواقعة على نهر دجلة الى الجنوب من مدينة اشور والتي كان مركزها في «ايكالاتم» . ويوجد بين نصوص ماري رسائل الى الملك يسمح ادد تتضمن تقارير عن تحركات وتجمعات القبائل البدوية التي كانت تستوطن المناطق الوسطى من الفرات وشمالي سوريا ومنطقة نهر الخابور مثل قبائل الخانيين والسوتيين وبني اليمين (Benjamina)

ومن القضايا التاريخية المهمة التي اثبتتها وثائق مدينة ماري هي ان شمس ادد ملك اشور كان معاصراً للملك حمورابي في بابل ، وقد ساعد ذلك على تحديد زمن حكم حمورابي بعد ان كان ذلك موضوع جدل طويل بين الباحثين .

وفي موقع آخر من بلاد الشام وهو مدينة ابلا (تل مرديخ) الواقعة على بعد ٦٠ ميلا الى الشمال من حلب ، كشفت التنقيبات عام ١٩٧٤ عن ١٥ الف رقيم مدونة بالخط المسماري يرجع تاريخها الى نهاية عصر فجر السلالات الثالث والعصر الاكدي (في العراق) ، اي انها تعود الى الفترة الواقعة بين ٢٤٠٠ و٢٢٥٠ ق.م . وتمثل هذه المجموعة الكبيرة من

النصوص المسمارية السجلات الرسمية لمملكة ابلا ، وهي تتكون من نصوص ادارية واقتصادية مثل الجرايات الخاصة بالعاملين في القصر والرسل والقرابين المقدمة الى الآلهة • وهناك نصوص تتعلق بالتعدين والصناعات والنسيج والاحجار الثمينة واخرى تتعلق بالتجارة وتعكس في ذات الوقت حجم واهمية التجارة الخارجية لمملكة ابلا في الالف الثالث قبل الميلاد • ويوجد بين وثائق ابلا ايضاً نصوص مدرسية تحتوي على قوائم باسماء الحيوانات والطيور والاسماك واسماء اماكن جغرافية وحرف واسماء اعلام، وهي بذلك تشبه القوائم المسمارية المبكرة التي تم اكتشافها في فارة وابو صلابيخ في سومر • كما عثر في ابلا على نصوص معجمية تحتوي على مفردات سومرية في العمود الايسر من الرقيم وما يقابلها بلغة ابلا في العمود الايمن منه • وجدير بالذكر ان مملكة ابلا عاصرت قيام الامبراطورية الاكدية في العراق وان نهايتها جاءت على يد الملك الاكدي الرابع نرام - سين الذي حكم في الفترة بين ٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق•م • اما لغة هذه النصوص فهي «الابلية» كما يسميها بعض الباحثين وهي من اللغات الجزرية العربية مثل الكنعانية بفروعها الادغاريتية والفينيقية(٥) •

قبل اكتشاف نصوص ابلا بحوالي نصف قرن تقريباً ، اي في عام ١٩٢٨ على وجه التحديد ، كشفت التنقيبات في مدينة اوغاريت (رأس شمرة) الواقعة على الساحل في شمالي سوريا عن اول مجموعة من رقم الطين المدونة بالخط المسماري • ومما يجدر ملاحظة بخصوص وثائق اوغاريت ان بعضها مدون بالخط المسماري واللغة الاكدية على غرار ماكان جارياً في بلاد وادي الرافدين في حين ان بعضها الآخر مدون بالحيثية

والخورية · غير ان الاغلبية من وثائق اوغاريت ، وهي تتكون من عدة مئات من رقم الطين كانت مدونة بخط مسماري جديد ولغـة هي الاخرى لم تكن معروفة من قبل · وقد اثبتت البحوث اللاحقة ان هذا الخط كـــان هجائياً ـ مسماري الشكل دونت به الاوغاريتية ، وهي كما ذكرنا لهجة من اللغة الكنعانية ، وانه يتكون من ابجدية قوامها ٣٠ علامـــة (او حرفاً) · وفي سنة ١٩٤٩ عثر في اوغاريت على رقيم يحتوي على الابجدية الاوغاريتية هذه مرتبة بحسب التسلسل الذي كانت متداولة فيه انذاك · وباستثناء رقم الطين والعلامات ذات الشكل المسماري المعروفة في بلاد وادي الرافدين، فان الابجدية الاوغاريتية نمط هجائي ليس لـــه علاقة بالخط المسماري المعروف في العراق القديم والذي بقي الى آخر العصور التاريخية مزيجاً من علامات رمزية ومقطعية ، بالرغم من ان الاتنين ، كما قلنا ، كتبا على الطين وبقلم من القصب ومن جهة اليسار الى اليمين · ويتكون الجزء الرئيسي من وثائق اوغاريت من قصائد ملحمية واسطورية ومن ابرزها تلك التي تدور حول الاله بعل والالهة اناث · ويعود تاريـــخ نصوص اوغاريت الى الفتـــرة الواقعة بين ١٥٠٠ و١٤٠٠ ق·م(٦)

وكان الخط المسماري قد وصل في عصر مبكر نسبياً من اشور الـــى بلاد الاناضول حيث عثر في مدينة كانيش (كول تبه) في الاراضي التركية على مايزيد على ثلاثة آلاف رقيم مدونة بالخط المسماري ، وقـــد تبين مـــن محتوياتها ان هذه المدينة كانت تمثل مركزاً تجاريا اشوريا في مستهل الالف الثاني قبل الميلاد (في حدود ١٩٥٠) · اذ استطاع الاشوريون في هـــذه الفترة ، اي العصر الاشوري القديم ، ان يقيموا عدة مراكز تجارية في مدن

مهمة من اسيا الصغرى . وكانت مدينة كانيش التي تبعد ١٥ ميلا الى الجنوب من انقره من ابرزها حيث مارس التجار الاشوريون فيها معاملات واسعة من الاستيراد والتصدير مع البيوتات التجارية في بلاد اشور نفسها. اذ كانت كانيش تصدر الى آشور خامات المعادن على وجه الخصوص والتي كانت تستخرج من مناجم جبال اناضوليا ، في حين كانت اشور تصدر البضائع المعدنية المصنعة والمنسوجات . ويظهر من الوثائق المسمارية المكتشفة في هذا المركز التجاري ان الفعاليات التجارية بين كانيس وبلاد اشور استمرت لعدة اجيال . وبالاضافة الى اهميتها من الوجهة الاقتصادية فان لوثائق كانيش اهمية كبيرة من الناحية اللغوية لانها تسلط الاضواء على اللهجة الاشورية في عصورها القديمة ، خاصة وان ماوصلنا من كتابات من هذه الفترة من التاريخ الاشوري المبكر قليل جداً من بلاد اشور نفسها(٧) .

وقد شاع استعمال الخط المسماري بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في كافة بلدان الشرق الادنى القديم في حدود ١٤٠٠ ق.م عندما اصبح وسيلة التدوين الرئيسية للوثائق الدبلوماسية المتبادلة بين ملوك وامراء وحكام العراق وسوريا وفلسطين ومصر والحيتيين والميثانيين . وكان الاورارتو في ارمينيا الذين استخدموا الخط المسماري في كتابة لغتهم في النصف الثاني من الالف الاول قبل الميلاد آخر الاقوام التي استعارت الخط المسماري من بلاد وادي الرافدين .

بعد هذا العرض لانتشار الخط المسماري في بلدان الشرق الادنى بتأثير من بلاد وادي الرافدين ، ننتقل الآن الى الحديث عن انتشار اللغة

البابلية الى مناطق هي الاخرى واسعة باعتبارها اللغة الرئيسية التي دونت بها الوثائق المسمارية • فمن المعروف ان الخط المسماري استخدم في وادي الرافدين اساساً لتدوين اللغة السومرية ثم الاكدية (بفروعها البابلية والاشورية) • ومعروف ايضاً ان اللغة السومرية ، وهي لغة غير جزرية ، بدأت بالانقراض تدريجيا بعد سقوط سلالة اور الثالثة التي تعتبر آخر سلالة سومرية في التاريخ وبذلك اخذت البابلية تحل محلها على الصعيد الرسمي في مكاتبات ممالك العصر البابلي القديم وعلى صعيد التداول اليومي في المجتمع • وبقيت البابلية اللغة السائدة في وادي الرافدين بالرغم من ان البلاد تعرضت خلال حقبات زمنية مختلفة من التاريخ القديم الى غزو واحتلال الاجنبي • ومع ذلك ، وفي كل مرة ، كان الغزاة المحتلون يقعون تحت تأثير الزخم الحضاري للبلاد في مجال اللغة والمعتقدات والعادات والتقاليد • فالكوتيون الذين اسقطوا السلالة الاكدية وحكموا البلاد زهاء قرن من الزمن (٢٢١٠ – ٢١٢٠ ق٠م) استعملوا الخط المسماري واللغة الاكدية ولم يصلنا شيء مدون بلغتهم • والكيشيون ايضاً الذين بقوا في الحكم في وادي الرافدين حقبة طويلة تزيد على اربعة قرون (١٥٩٥ – ١١٧٠ ق٠م) استعملوا الخط المسماري واللغة البابلية • يضاف الى ذلك ان تأثرهم بمقومات الحضارة العراقية القديمة بلغ جدا بحيث ان العصر الكيشي تميز بنشاط ملحوظ في حركة التاليف والنقل لعدد كبير من المؤلفات البابلية وخاصة تلك التي تقع ضمن اطار الفكر والمعتقدات والفلسفة • وتظهر سيادة اللغة البابلية بصورة جلية في الوثائق المسمارية التي كشفت عنها التنقيبات في نوزي والتي تعود الى القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد • فبالرغم من ان نوزي (اربخا) كانت واحدة من المدن

التابعه آنذاك للسيطرة الخورية الا انه اللغة البابلية بقيت اللغة الرسمية لتدوين مختلف شؤون الحياة اليومية ٠

وفي هذا السياق لابد من الاشارة ايضاً الى ان الاموريين ، وهم من القبائل الجزرية التي كانت تتكلم لغه جزرية عربية والتي تسلمت مقاليد الحكم في البلاد وبعد سقوط سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد (٢٠٠٦ ق٠م) ٠ قد وقعت هي الاخرى تحت تاثير اللغـــة البابليه السائدة في بلاد وادي الرافدين ٠ فالاموريون كما معروف مـن القبائـل الكنعانية الشرقية وكان متوقعا ان يستعملوا الامورية بعـد نجاحهم فـــي الاستيلاء على مقاليد الحكم في وادي الرافدين ، غير ان ذلك لم يحدث اذ انهم استعملوا البابلية بدلا منها وبذلك بقيت هي اللغة الرسمية السائدة في البـلاد ٠

ووصلت اللغة البابلية ذروة الشهرة والانتشار خلال القرن الرابـع عشر قبل الميلاد عندما اصبحت لغة المراسلات الدبلوماشية بين اقطار الشرق الادنى القديم ٠ والدليل على ذلك الرسائل المكتشفة في العاصمة المصريـة تل العمارنه التي تثبت ، ضمن اشياء كثيرة ، عمـق العلاقات بين ملـوك وادي الرافدين وفراعنة مصر وخاصة في زمن امينوفس الثالـث وابنـــه اخناتون ، كما انها تسلط الاضواء على الاحوال السياسية في بـلاد الشام وانحسار النفوذ المصري في هذه المنطقة زمن اخناتون الذي اشغلته اصلاحاته الدينية الجديدة عن متابعة سير الاحـــداث والتطورات السياسية فيها ٠ ويرجح بعض الباحثين ان مدرسة خاصة انشئت في تـــل العمارنه لتعليم الكتبة المصريين مبادىء الكتابة المسمارية واللغة البابلية عندما اصبحا الادارة

الرئيسية التي كانت تكتب بها المراسلات والوثائق الدولية المتبادلة بين ملوك وحكام دول الشرق الادنى القديم •

واذا ما انتقلنا الى الادب في سياق التأثير امكننا القول ان الادب العراقي القديم ، شأنه شأن الخط واللغة البابلية ، انتشر هو الآخر الى مناطق بعيدة من بلدان الشرق الادنى القديم ، وانه لقي استحسانا واعجابا كبيرين من رجال الادب في تلك البلدان • ولقد اظهرت الدراسات الاثرية والمسمارية خلال نصف القرن الماضي ان كثيراً من التأليف والافكار الادبية كانت قد وصلت من العراق الى سوريا وفلسطين ومصر واسيا الصغرى وبلاد اليونان •

لقد كان من بين النصوص المسمارية المكتشفة في تل العمارنه ، عاصمة امينوفس الرابع (اخناتون) نسخة من القصة البابلية المعروفة بقصة ادبا • والمعروف عن ادبا انه كان رجلا حكيما تقيا ، لكنه في سورة من الغضب كسر جناح الريح الجنوبية فكان ذلك سبباً في غضب اله السماء عليه • فلما مثل ادبا امام اله السماء آنو ليستجوبه اشفق عليه الاله في نهاية الامر وعقد العزم على تكريمه بمنحه «ماء الحياة وخبز الحياة» • لكن ادبا رفض ان يأخذهما وبذلك فوت على نفسه فرصة ثمينة للحصول على حياة ابدية • وعثر في تل العمارنه أيضا على كسرتين من لوحين يحملان أجزاء من الاسطورة البابلية المسماة « نركال وايرشكيجال » • وملخص هذه الاسطورة ان الآلهة اقامت وليمة كبرى وانهم ارسلوا رسولا الى اختهم ايرشكيجال ، الهة العالم الاسفل ، يطلبون منها ان تبعث من يأخذ حصتها من تلك المائدة لعدم استطاعتهم النزول اليها في عالم الاموات

ولعدم استطاعتها هي ايضاً الصعود اليهم في عالم الاحياء • وحضر رسولها الوليمة فرحبوا به ونهضوا اجلالا وتكريما له باستثناء اله واحد هو نركال الذي لم يفعل ذلك • فاسر الرسول ذلك في نفسه وعندما عاد الى العالم الاسفل قص على مكلته تفاصيل ماحصل أثناء الوليمة• فطلبت ايرشكيجال من مجمع الآلهة ان يبعثوا لها نركال لكي تحتجزه عندها في عالم الاموات عقابا له• ويبدو من سياق النص المخروم في هذا الموضع من الرقيم ان الاله نركال نزل الى العالم الاسفل لكنه فاجأ الالهة ايرشكيجال بان هجم عليها وهم بقطع رأسها وانها راحت تبكي وتستعطفه وتعرض عليه ان يتزوجها ليكون ملكا على عالم الاموات • وعندئذ رق قلب نركال وتبدد غضبه ، فقبل ايرشكيجال وجفف دموعها وصار زوجاً لها وملكا على العالم الاسفل(٨) •

وعثر ايضا في سلطان تبه ، وهو أحد التلول الواقعة في حران في اعالي نهر الباليخ على رقيمين من القصة البابلية الساخرة التي كان بطلها رجل فقير من نفر اسمه جميل — ننورتا • ان العثور على قصة جميل — ننورتا ضمن مكتبة اشور بانيبال وفي سلطان تبه ربما يفسر بانه دليل على الشهرة الواسعة التي نالتها القصة بسبب طرافتها خاصة عندما نعرف ان حوادثها تدور حول شخص في مدينة نفر التي تقع على مسافة بعيدة من حران • ولذلك فانه من غير المستبعد ان تكون اقدم النسخ منها كتبت في الاصل في احد مراكز التدوين العديدة في مدينة نفر ومنها انتشرت الى المدن الاخرى • وتدور قصة جميل — ننورتا حول رجل فقير يسكن مدينة نفر اراد ان يتقرب الى حاكم المدينة عساه يجد حظوة عنده ويتخلص من فقره وبؤسه • وذات يوم خطرت بباله فكرة غريبة وهي ان يبيع ثوبه الذي لايملك سواه ويشتري بثمنه عنزة يقدمها هدية الى حاكم المدينة• واقتاد

جميل ـ ننورتا عنزته الى بيت الحاكم وطلب من البواب ان يستاذن لـه من سيده ليقابله . ولما مثل الرجل الفقير بين يديه وبخه الحاكـم توبيخاً عنيفاً وامر بطرده على الفور . لقد شعر جميل ـ ننورتا بوطـأة الاهانـة فعقد العزم على الانتقام لنفسه من الحاكم . ولم يكتم ذلك سراً بل انـه همس في اذن البواب وهو يقتاده الى خارج البيت بانه سوف يكيل الصاع ثلاثة اضعاف . ولما نقل البواب ذلك الى سيده ، ضحك الحاكـم ملـيء شدقيه استخفافاً به وبوعيده . غير ان ما جريات القصـة اثبتت ان ذلـك الفقير المعدم كان على قدر كبير من المكر والدهاء وانه في الاخـيـر استطاع فعلا ان يقتص من ذلك الحاكم في سلسلة من المكائد دبرها له وهو متنكر مرة في زي صياد ثري مترف من اصدقاء الملك ، ومرة في زى طبيب جـاء لمعالجة الحاكم المريض . ومما يجدر الاشارة اليـه ان بعضاً مـن القصص مما هو معروف في الف ليلة وليلة يشبه من حيث الموضـوع والاطار العام قصة جميل ـ ننورتا التى جئنا على ايجازها(٩) .

وكانت ملحمة جلجامش من التاليف الادبية التي ذاع صيتها في ارجاء واسعة من العالم القديم . فبالاضافة الى الرقم التـــي عثر عليها في مكتبة اشور بانيبال وفي مدن اخرى داخل القطر والتـى تحتوي عــلى تفاصيل الملحمة ، فقد عثر على نصوص منها في موقع سلطان تبه الذي جئنا على ذكره قبل قليل وعلى كسرة رقيم منها في مجدو بفلسطين ، كما عثر في العاصمة الحيثية حتوشش (بوغاز كوي) على بعض اجزاء من الملحمة تعود الى اللوح الخامس منها وعلى نصوص تحمل ترجمات حيثية وخورية لاجزاء منها . ان هذا الانتشار الواسع لملحمة جلجامش ، يبين بوضـوح الشهرة الواسعة التي حظيت بها هذه الملحمة باعتبارها واحدة من الاعمال الادبية

الخالدة واشهر ما انجز الفكر الانساني في العصور القديمة • ومعروف ان الملحمة استحدث شهرتها من كونها تعالج موضوعا انسانيا محظا وهو الموت وتشبث الانسان الدائم بالخلود •

وتعتبر قصص الطوفان السومرية منها والبابلية من التآليف الشهيرة التي تركت اثراً واضحاً في معتقدات الاقوام القديمة الاخـــرى وخاصـــة العراقيين كما يتضح ذلك من سفر التكوين • ويظهر اثر الادب السومري واضحا ايضا في سفر نشيد الانشاد لسليمان وهو ماعرضنا له تفصيلا من خلال دراستنا المقارنة لهذا السفر مع قصائد الغزل الخاصة بالاله الراعي (دموزي) وحبيبته الالهة انانا (عشتار) •

وبالمثل فان المعتقدات السومرية الخاصة يموت هذا الاله والحزن الجماعي عليه كانت قد وجدت طريقها هي الاخـــرى الى سوريا وفلسطين حيث شارك كل من بعلٓ و ادونيس الاله الراعي تموز الموت أيضا • ومما يجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الحزن الجماعي على موت الالـه الراعي ، والذي كما هو معروف كان من الطقوس الشائعة في بـلاد وادي الرافدين ، لم يندرس كلياً في المجتمع بالرغم من تعاقب العصـور ، وانما بقيت رواسب واثار منها في معتقدات بعض الطوائف كالصابئة الحرانيين•

ويظهر من الدراسة المقارنة لما يذكره ابن النديم عن معتقدات وطقوس الصابئة الحرانيين بخصوص الاله القتيل تاوز (تموز) مع الاساطير الكنعانية المكتشفة في اوغاريت والمتعلقة بالالهه اناث وزوجها بعل الـذي قتاله الاله موت ، ان مدينة حران كانت مركـز التقاء للافكار والمعتقدات السومرية ـ البابلية والكنعانية • فوجود هذه الرواسب يرجع الى قرب

مدينة حران من أرض الكنعانيين فهي تقع على نهر البليخ في الجزء الشمالي الغربي منها وعلى الطريق التجاري الرئيسي القديم الممتد من شمال شرقي وادي الرافدين الى بلاد الشام والاناضول • ولذلك فوجود معتقدات كنعانية بين سكان حران امر لاغرابة فيه • ومن جهة اخرى فان انتشار المعتقدات السومرية ـ البابلية الخاصة بالاله تموز في منطقة حران يعتبر هو الآخر امراً طبيعياً ذلك لان هذه المنطقة كانت في معظم العصور التاريخية القديمة تابعة سياسيا وحضاريا لبلاد وادي الرافدين • وكانت حران مركزا بارزا لعبادة سين اله القمر ، وهو الاله الذي اشتهرت بعبادتـه ، منذ عصـور قديمة جداً ، المدينة السومرية العريقة اور • وجدير بالذكـر ان نبونئيد وهو آخر ملوك السلالة الكلدية في بابل (٥٥٦ ـ ٥٣٩ ق•م) كان قد قـام باعمال عمرانية في هذه المدينة وخاصة في معبد الاله سين علماً بان جدتـه لابيه وكذلك اباه وامه كانوا من كهنة هذا المعبد في حران • وتخلص مـن كل هذا الى القول بان مدينة حران كانت نقطة التقاء وامتزاج للمعتقدات البابلية والكنعانية • فالبكاء على الالـــه القتيل تاوز في معتقدات الصابئة الحرانيين هو تأثير بابلي ومن رواسب الحزن الجماعي على تموز المعروف في وادي الرافدين ، بينما يكون قتله وطحن عظامـه وتذريتها في الريـــح عبارة عن تأثير كنعاني جاء من اسطورة مقتل بعل(١٠) •

ومن المعروف ايضاً ان منطقة البليخ على الفرات ، حيث تقـــع تلول حران وسلطان شبه وتل بارسبب (تل ، أحمر الى الجنوب من كركميش) ، كانت لها اهمية كبيرة من الناحيتين العسكرية والتجارية لانها تشكل منطقة اتصال بين وادي الرافدين وشمال سوريا وبلاد الاناضول • فقد كان تـل

بارسب عاصمة ل «بيت اديني» (Bit Adini) ، وهـي احـدى المقاطعات الارامية الرئيسية في منطقة البليخ والفرات الاعلى • وقـد اثارت هذه المقاطعة متاعب كثيرة للاشوريين زمن الملـك اشور ناصربال الثالث (٨٨٣ - ٨٥٩ ق٠م) غير ان الاشوريين تمكنوا من فـرض سيطرتهم عليها وجعلها جـزء مـن امبراطوريتهم لاهميتهـا بالنسبة لنفوذهم في سـوريا والاناضول • وقد اقام فيها الملك شلمانصر الثالث سنة ٨٥٦ ق٠م قلعـة عسكرية سماها «كار - شلمانصر» بمعنى «ميناء شلمانصر» •

مراجـع وملاحظــات

– لابد ان نثبت بدافع من الامانة العلمية اننا حاولنا قبل خمس سنوات (العراق في التاريخ ص٢٦٩ وما بعدها) تقديم عـرض ســريع ومقتضب لانتشار بعض من المظاهر الحضارية من بلاد واديٰ الرافدين وخاصة فـي مجال الخط المسماري واللغة البابلية والادب الى مناطق مختلفة من الشرق الادنى القديم • وقد رأينا انه قد حان الوقت الآن لوضـــع مجمل هـــذا الموضوع بشكل جديد ومفصل ابتداء بالطرق التي تم من خلالها انتقال تلك التأثيرات مع تشخيص المراكز التي تأثرت بالنتاج الحضاري من بلاد وادي الرافدين • وبالنظر لسعة الموضوع وتشعبه فاننا سوف نقتصر كلامنا في هذا البحث على انتقال التأثيرات الحضارية من وادي الرافدين الى بـــلاد الشام ومصر •

١ – حول موجز مركز عن الطرق التجارية التي كانت تربط العـــراق بالغرب والشرق والتي اسهمت في انتقال كثير من المفاهيم الحضاريـة الى مناطق بعيدة من الشرق الادنى القديم – انظر
Roux, G. , Ancient Iraq (1964), PP. 278 ff.

٢ – حول تفاصيل العلاقات العراقية – المصرية في العصـــور القديمة ، انظر الآن رسالة الماجستير للسيد محمد صبحي : العلاقات العراقية المصرية في العصور القديمة ، معهد الدراسات القوميـة والاشتراكية (١٩٨٨) •

٣ – انظر بحثنا الموسوم : «الخط المسماري واللغة الاكدية : اثنان مـن ابرز العناصر المشتركة بين الحضارات القديمة في الوطن العربـي» مجلة بين النهرين العدد ٣٦ (١٩٨١) ص٣١١ – ٣٢٠ •

٤ ـ حول هذه القبائل في ضوء وثائق ماري ، انظر :

Kupper, J. Les nomades en Mesopotamien au tewps des rois de Mari (Pasis 1957). Laessoe, J. People of Ancieut Assyria, London, 1763, PP. 60 ff .

٥ ـ عن ابلا ونصوصها المسمارية والملابسات التي صاحبت اكتشافها ، يراجع :

Pettinato, G. "The Royal Archives of Tell - Mardikh — Ebla", Biblical Archaeology, (May, 1976) PP. 44 — 52 .

Biggs. R. "The Ebla Tablets", Biblical Archaeology (Spring, 1980) PP, 76 — 86 .

Michalouske, P., "Third Millennium Contacts Obsercations on the Relationships between Mari and Ebla". Journal of Amarican Oriental Society (105. 2,1985) PP. 293 — 302 .

Bounni, A., "The Cuneiform Writings and Ebla", Ages, Vol . I Part 2 (1986), PP.33 — 39.

٦ ـ

Cleator, P. Lost Languages (New york, 1961), PP. 134 ff .

٧ ـ

Saggs, H. The Greatness that was Babylon, (New york 1962) PP. 278 ff .

٨ ـ Saggs, Ibid. , PP. 337 .

٩ ـ انظر بحثنا الموسوم : «من ادب الهـزل والفكاهــة عند السومريين والبابليين» ، سومر ٢٦ (١٩٧١) ص ٨٧ – ١٠٠ .

١٠ . هذا رأي جديد طرحه الكاتب في الطبعة الجديدة من كتابه الموسوم «عشتار ومأساة تموز (١٩٨٦) ١٨٢ ـ ١٨٥ وهو يلغي الرأي القديم الذي جاء في الطبعة الاولى عام ١٩٧٣» .

من الكهف الى القرية في الوطن العربـي

استاذ الآثـار القديمة
الدكتور تقـي الدبــاغ
كلية الآداب ـ جامعـة
بغـداد

انتهى العصر الحجري القديم منذ ١٦٠٠٠ سنة مضت بعـــد ذوبان النطاق الجليدي الاخير وتغير ظروف المناخ وحل بالتدريج عصر جديد هـو العصر الحجري المتوسط الذي فصل بين عصر الصيد والجمع وعصر الزراعة المبكرة • وتميز العصر الجديد بخصائص تختلف عن خصائص العصـور السابقة ومع ذلك لانجد اثراً لهذا التغير الا في المناطق التـــي تغير مناخها اي المناطق التي ارتفعت فيها درجات الحرارة وكثرت الامطار مثل شمال غرب اوربا والمناطق التي ازداد جفافها مثل اقطار الشرق الاوسـط وشـمال افريقية • اما المناطق الوسطى مثل ايطاليا اليونان ووسـط اوربا فمـن الصعب التميز بين حضارة هذا العصر والحضارات السابقـة لان عمليـــة الانتقال كانت بطيئة جدا • لقد استمر الانسان معتمدا على الصيد والجمع والالتقاط في هذا العصر ولكن حصل بعض التغيير في مناطق معينة من العالم تحت تأثير الاحوال المناخية الجديـدة حيث اختفت بعض حيوانات عصـر الجليد وحلت محلها الحيوانات البرية التي تعيش في الوقـــت الحاضـــر كالغزلان والايائل والوعول والخنازير البرية والتبوس البرية والخنازيـر البرية والاغنام البرية والمواشي البرية والخيول البرية والارانب وغيرها • وظهرت مجالات جديدة للاستيطان عـــلى ضفاف الانهـار والبحيرات وعند ينابيع الماء وفي السهول بعد ان كانت مقتصرة عـــلى الكهوف والغابات •

اما الآلات الحجرية فقد حصل تقدم كبير في صناعتها لتلائم الظروف الانتقالية الجديدة فقد صنعت من الشظايا الصغيرة الحجم جداً وفق اشكال هندسية منظمة وكانت تثبت بمفردها او بمجاميع منها بواسطة القير في مقابض خشبية او عظمية تصنع منها آلة كرأس سهم او رأس رمح مسنن او سكينة او منجل • ويدل انتشارها في اقطار العالم القديم على صلات حضارية وهجرات بشرية • وشهد هذا العصر بذل المحاولات الاولى في زراعة النباتات الطبيعية وتدجين الحيوانات غير الاليفة • ويظهر ان الصيادين كانوا منذ زمن بعيد يسكنون الخيام بجوار الانهار في مواسم صيد الحيوانات لاقتناصها او اخذ صغارها لتربيتها في المنازل من اجل التمتع بها ثم من اجل لحمها • وقد لاحظ هؤلاء الصيادون نمو النباتات من بذور ونوى الثمار التي يجمعونها للاكل في جاور اماكن سكنهم غير انهم لم يتعلموا الزراعة وتدجين الحيوانات الا عندما احدثوا التحسينات على طرق صناعة الآلات الحجرية لقطع الاشجار في الغابات وتحويل الاراضي الى مزارع ولبناء الخطائر لحماية الحيوانات الاليفة من خطر الحيوانات المفترسة ولحفظها من الهرب ولصنع الآلات الخاصة بالزراعة كالعصا الحافرة والمحراث والمنجل والمذراة والمدقات والهاونات والمطاحن والمجارش•

ولقد كشفت التنقيبات عن حضارات هذا العصر في شمال غرب اوربا وكان اصحابها يصيدون الغزال الاحمر والارانب وكلب الماء والاسماك والطيور والخنازير والثيران والخيول البرية • اما الرنة فقد عادت الى خطوط العرض العليا • اذ لم يعثر على عظامها بين المخلفات • وتتميز آلات هؤلاء الصيادين بصغر الحجم وهي شظايا من حجر الصوان تاخذ شكل السكاكين ذات الحد الواحد او شكل المقاشط •• وصنعوا من العظام

وقرون الحيوانات رؤوساً للرماح او السهام • وظهرت في مواقع اخـــرى اسلحة حجرية صغيرة ذات اشكال هندسية منها المثلث والمربـع والهلال ولعل أهمها هو المحفر والمنجل •

وبدأ الناس في هذا العصر يخرجون من الكهوف الى مواقع مكشوفـة ليسكنوا في الخيام او الاكواخ فأنتشروا في الغابات وعلى سواحل البحار او حول الواحات وعلى شواطيء الانهار يصيدون الاسماك والطيور والحيوانات اللبونة • وتبدو مجتمعات هذا العصر قليلة مخلفاتها الاثرية ومع ذلك فأن فضلها على الحضارة كبير فقد بدأ الانسان لاول مرة محاولـــة استئناس الحيوان وربما زراعة النباتات ايضاً ومن بين الحيوانات التي الفت الانسان الكلاب فقد وجدت عظام نوع مستأنس منها في مواقـــع البرتغال وفرنسا ومنطقة بحر البلطيق وشبه جزيرة القرم وكهف شقبة بوادي النطوف فـي فلسطين • ولا شك في ان الكلب ساعد الانسان عـــلى صيد بعض ماكان يطارده من الغزلان والخنازير البرية والارانب وغيرها • والى جانب الكلب استأنس سكان هذه المواقع أو حاولوا استئناس كل الحيوانات المعروفة الان وربما اخذت قبل نهاية هذا العصر في زراعة الحبوب وكان عملها هـذا بداية المرحلة الجديدة في تطور اقتصاديات البشر • ان المتأخرين من اهل العصر الحجري المتوسط هم الذين مهدوا لحدوث الانقـلاب الزراعـــي • ويظهر ان الزراعة والرعي تطورت اثناء الجفاف النسبي الذي انتشر بعد الفترة المطيرة الاخيرة • ومن المهم ان نؤكد بانه لايوجـــد عندنا حتى الان دليل على طبيعة الحبوب الغذائية التي جمعها او حصدهـا اهـل العصـــر الحجري المتوسط عامة واهل النطوف في فلسطين خاصـــة ولانعرف ما اذا

كانت تلك الحبوب قد زرعها الانسان ام انها نمـــت نمواً طبيعياً كما ان مناجل الحصاد والمدقات والهاونات التي تركها النطوفيون في مستوطناتهم تحمل نقوشا لرؤوس حيوانات على مقابضها مما يدل على ان الصيد كان لايزال المصدر الرئيسي للطعام • وتتأكد هذه الحقيقة اذا علمنا ان انقاض الطبقات السفلى في مواقع عصر النطوف كانت خالية من عظام حيوانات داجنة •

ان الانقلاب الزراعي لم يحدث فجأة بل ظهرت بوادره نتيجة ازمـة المناخ التي تلت ذوبان ثلوج عصر الجليد قبل ١٦٠٠٠ سنة • ومر الانقلاب في مراحل تطورية وئيدة تتضح اثار تطوره التدريجية في اقطار الوطـــن العربي اكثر من غيرها وخصوصاً في العراق وفلسطين وسورية ومصـر • فبانسحاب الجليد القطبي تغير اتجاه رياح امطـار المحيط الاطلسي نحـو الشمال وبدأ الجفاف يعم انحاء الوطن العربي فنمت اصناف برية مـــن الحنطة والشعير وانتشرت الاصول البرية للاغنام والماعز والماشية والخنازير وتغيرت علاقة الانسان بالبيئة الطبيعية اذ نزح تدريجياً من المناطق المرتفعة الى مواقع مكشوفة في السهول بالقرب من مصادر المياه حيث استقر بجوار حقـول زرع فيهـا الحبـوب ورعى قطعـان الحيـوانات اللبـونة لان استمرار تناقص النباتات البرية وحيوانات الصيد عقب الجفاف لم يعـــد يسمح بالاعتماد على مجرد القنص والالتقاط فهجر الكهف والملاجىء الجبلية والغابات بالرغم من ان انسان هذا العصر والعصور اللاحقة ظـــل احيانـاً يستخدم الكهوف كما يفعل بعض الاكراد في قطرنا في الوقت الحاضـــر •

لقد كشفت التنقيبات الاثرية عن اثار هذه المرحلة الانتقالية في عـدد من المواقع في العراق وأثرنا ذكرها قبل غيرها لانها اقدم في الزمن واسبق

في التطور • فقد وجدت المخلفات في عدة اماكـــن بعضها كهوف وملاجيء جبلية وبعضها على هيئة قرى ومستوطنات • وكان اول موقع اكتشفت فيه هذه الاثار هـــو كهف زرزي[٢] بمحافظة السليمانية في عـــام ١٩٢٨ • اذ وجدت وفرة من الآلات الحجريـــة الصوانية الدقيقة الصنع الهندسية الشكل التي استخدمت في الصيد وحصد النباتات البرية وسميت صناعات هذا العصر في العراق بالصناعة الزرزية نسبة الى اسـم هـــذا الكهف • وعثر على آلات حجرية مماثلة في كهف بالي كورا[٣] بمحافظـة السليمانية ايضاً حيث وجدت آلات حجرية دقيقة ذات اشكال هندسية مـــع عظـــام حيوانات يعود قليل منها لانواع داجنة ووجدت مجارش وهاونات ومدقات تدل على محاولات اولية في حقل الزراعة والتدجين • ويعود زمـن هـــذه الآلات حسب اختبار كربون ١٤ المشع الى ١٢٤٠٠ زائـــد او ناقص ٢٨٠ سنة مضت[٤] • واستخرجت اثار هذا العصر الحجري المتوسط في الطبعة ب ـ في كهف شانيدر(٥) وتبين من اختبار ١٤ المشع ان اثار هذه الطبقة تعود الى ١٢٨٠٠ سنة مضت • واتضح من دراسة الآثار ان هناك اتجاهاً متزايداً نحو الاعتماد على المنتوجات النباتية ومع ذلك فان اهل الكهف لم يتعلموا بعد فنون الزراعة وتدجين الحيوانات • ووجدت اثار هذا العصـر بشكل اوضح في مستوطنة كريم شهر[٦] وهو موقع مكشوف يقع شـرق بلدة جمجمال بنحو تسعة كيلومترات ، اذ تبين من العثور على بعض الآلات الزراعيـــة كالمناجل والمطاحن والمجارش والهاونات والمدقات قيام زراعـــة تجريبية محدودة ولكن من المحتمل ان تكون هذه الآلات قد استخدمت فـــي حصد وطحن حبوب النباتات التي تنمو في الطبيعة • وظهر ايضاً ان ٥٠٪ من عظام الحيوانات المستخرجة من هذه المستوطنة تعود لانواع البغة دجنها

الانسان لاغراض اقتصادية مما يدل على محاولات اوليـــة باتجاه ترويض واستئناس الحيوانات ومع ذلك يظهر ان الحرفة الرئيسية لاهل كريم شهر كانت الصيد والالتقاط وفي مستوطنة ملفعات(٧) على ضفاف نهر الخازر شمال الطريق الممتد بين اربيل والموصل وجـد المنقبون اثاراً تشبه الآلات التي استخرجت من موقع كريم شهر ولكن مستوطنة ملغعات شيدت فيهـا بيـوت محفورة في الارض وكانـــت ذات جـدران مبنيـة بالحجارة وذات ارضيات مبلطة بالحجارة والحصى • اما مستوطنة زاوي جمـي[٨] التـي تقع على بعد لايزيد عن اربعة كيلومترات الى الغرب من كهف شانيدر فقد اعتبرت اقدم مستوطن قروي في شمال العراق واول قرية من نوعها فـي العالم(٩)• والتحريات الاثرية في هذا الكهف كشفت عن اقدم بقايا المستوطن التي تتالف من جدران طينية غير منتظمة شيدت عـلى الحصى الكبيرة كما كشفت عن معالم اكواخ مستديرة الشكل عثر بداخلها على عـدد من المواد المنزلية من بينها أدوات لها علاقة بالزراعة كالمدقات والهاونات والرحى الحجرية والمناجل • ولكن يظهر ان الصيد كـان المهنة الرئيسة للسكان بدليل بقايا العظام الكثيرة للغزال الاحمر • ووجدت عظـام الاغنام غـير الداجنة في الطبقة السفلى ولكن عظام الاغنام التي وجدت في الطبقات العليا كانت من نوع اليف مدجن • اما البقر فقد ظل حيوانا بريا غير اليف في هذه المرحلة وظل الماعز كذلك • وتدل الادوات المنزلية المذكورة عـلى ان استعمالها كان لتهيئة الغذاء من الحبوب ولكن عدم العثور عـــلى حبوب متفحمة يجعل من المتعذر الجزم بان أهل القرية شرعوا بزراعة الحبوب وهذا يرجح استعمال تلك الآلات في تحضير الطعام من الحبوب البريـة • ومهما يكـن من أمر فان تدجين الغنم ووجود الآلات والادوات الزراعية

يرجحان القول بان هذه القرية ظهرت فيها البوادر الاولى للانقلاب الزراعي وان الصيد والزراعة البدائية المحدودة كانت في مراحلها الاولى مختلطة • واظهرت اختبارات كربون ١٤ المشع على المواد العضوية ان الطبقة السفلى تعود الى ١١٢١٧ زائد أو ناقص ٣٠٠ سنة مضت وان تاريخ الطبقة ب ١ في كهف شانيدر المعاصرة لقرية زاوي جمي يعود الى ١٠٩٢٥ زائد أو ناقص ٣٠٠ سنة وبذلك يمكن تقدير زمن هذه القرية في شمال العراق في حدود الالف العاشر وبداية الالف التاسع قبل الميلاد • ويضاهي هذا التاريخ الزمن المقدر بحوالي ٩٢٥٠ سنة مضت لمعبد اريحة في العصر النطوفي الذي يمثل العصر الحجري المتوسط في فلسطين(١٠) •

وتسمى المرحلة التي انتقل فيها الانسان القديم في فلسطين من الكهف الى القرية بالعصر النطوفي نسبة الى وادي النطوف بشمال غرب القدس حيث جرى التنقيب في اول مستوطن نطوفي في كهف شقبة(١١) سنة ١٩٢٨• وفي السنوات التي تلت الحفريات في كهف شقبة ظهرت اثار نطوفية أخرى في مغارة الوادي بجبل الكرمل ولقد حفظ الوادي الذي ينتسبون اليه أغلب اثارهم • وتدل الدراسات انهم تركزوا في نطاق ضيق من الارض يقع خريبا من ساحل البحر المتوسط ولكن كانت لحضارتهم امتدادات ابعد من ذلك شمالا من سورية والاردن وجنوباً في منطقة حلوان بمصر • وسكن اغلبهم الكهوف وقليل منهم في المواقع المكشوفة ودفنوا موتاهم في مكان اقامتهم وتركوا مع البعض منهم آلات وأدوات للزينة • وتبين آلاتهم التي خلفوها في المراحل الاولى من تاريخهم انهم كانوا يعتمدون بالدرجة الاولى على الصيد وكان جمع الحبوب البرية وربما غير البرية يأتي في المرتبة الثانية • ويدل ما اكتشف من شصوص صيد الاسماك والمناجل والمدقات

الحجرية على انهم مارسوا هاتين الحرفتين • ولم ينس النطوفيون تقاليد وفنون اسلافهم في العصر الحجري القديم الاعلى فصنعوا السكاكين والازاميل والمقاشط ورؤوس السهام الحجرية واستخدموا العظام وقرون الحيوانات في صناعة كثير من الآلات ومن اشياء الزينة واتقنوا رسم الحيوانات وكان الشكل الغالب على الآلات هو الشكل الهلالي • ويبدوا ان هذه الاشكال الهلالية من الصوان كانت تركب بسهولة في ثقوب او شقوق تحفر في مقابض عظمية او خشبية وتثبت بواسطة القير لصنع اداة للحصاد او آلة للقتل • ومن الضروري ان نؤكد بانه لايوجد عندنا حتى الان دليل على طبيعة الحبوب الغذائية التي حصدها اهل النطوف بفلسطين ولانعرف ما اذا كانت من نباتات زرعها الانسان ام انها كانت تنمو طبيعياً • كما ان مناجل الحصد والمدقات التي تركوها في مستوطناتهم تحمل نقوشا لرؤوس حيوانات على مقابضها مما يشير الى ان الصيد كان لايزال المصدر الرئيسي للطعام وتتأكد هذه الحقيقة اذا علمنا ان انقاض الطبقات السفلى في مواقع النطوف كانت تخلو من عظام حيوانات اليفة باستثناء الكلب • عاش النطوفيون مثلما عاش معاصروهم في شمال العراق في الكهوف والمستوطنات المكشوفة وكانت انجازاتهم تشبه انجازات سكان العراق البدائية في مجال تدجين النبات والحيوان • لقد انتشروا في مناطق عديدة بفلسطين الامر الذي يسر العثور على اثارهم في مواقع عديدة على منحدرات تل القدس الشرقية والغربية وفي مغارة الوادي(١٣) وعين الملاحة(١٤) على شاطىء بحيرة الحولة وعند اريحة وتدل سعة مدافنهم التي حفروها في الصخور على استقرارهم النسبي في السكن • ففي صخور الوادي هناك ثمان وسبعون قبراً • هذا بالاضافة الى عدد من القبور المستديرة في عين الملاحة • وكانت

هذه القبور عامة بمعنى انها تضم اكثر من جثة واحدة . وكانـوا يهتمون بالدفن وبالاموات ويتركون لهم الاصداف والحلي والاحجار مما يدل عـلى اعتقادهم بنوع ما في الحياة بعد الموت . ووجدت في احد القبور بعين الملاحة مجموعة من الاصداف مرتبة بشكل تاج بداخل حفرة طليت بالملاط ووضعت فوقها صخور مرتبة في شكل دائرة(١٥) . ووجدت اثار نطوفية في الطبقات السفلى في تل الجزر(١٦) . ومن المواقع النطوفية الاخرى المهمة في العصـر الحجري المتوسط موقع قرب اريحة يرتفع نحو سبعين قدماً عن حافة واحة ماء ترد اليها المياه الجوفية من أمطار فصل الشتاء . وبالقرب من هذه الواحة وجد مستوطن صيد يقع تحت مستوى سطح البحـر بمقدار ١٠٠٠ قدم ويمكن الافتراض بان الصيادين قد ترددوا على هذه الواحة منذ العصور الحجرية القديمة وراء الحيوانات مثل الغزلان والخنازير البرية والارانب(١٧) والاغنام والمواشي والتيوس البرية(١٨) . وقد وجـــدت اثار مزار والات نطوفية وتبين ان المزار انتهى بالحرق وتعود بقايا الفحم الناجمة من الحرق الى ٩٢٥٠ سنة مضت(١٩) . وتطورت هـــذه المحطة الى مستوطن موسمي فنظم فيه اكواخ تشبة اكواخ البدو وكانت الآلات لاتزال تصنع على الطريقة النطوفية اى انها دقيقة الحجم وهندسية الشكل . وتطور هذا المستوطـن المرسمي بالتدريج الى قرية حقيقية ظهـرت فيها بدايات العصـــر الحجري الحديث الزراعي في سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد .

وهناك دلائل على حدوث ظروف جافة تدريجياً اثناء عصـــر انطوف فغابات البحر المتوسط تراجعت شمالا في فلسطين في نهاية هذا العصر(٢٠) ولذلك هجرت عدة مستوطنات مثل عين الملاحة ووادي فلاح والكبارة والواد وربما تبع عدد من النطوفيين حيوانات الصيد شمالا في هجرة الى سورية .

اذ تعرف الان بواقع نطوفية في منطقة البقاع مثل جبل السعدية وفي مريبط(٢١) على الضفة الشرقية من نهر الفرات الى الشرق من مدينة حلب بنحو ٨٠ كيلو متراً • والتنقيبات الحديثة كشفت عن بنايا مستوطن نطوفي لصيد الحيوانات والاسماك في مريبط الاولى في اربع طبقات متعاقبة مما يدل على ان الاستيطان لم يكن موسمياً • وفي الطبقات الثلاث العليا وجدت ارضيات من الطين ومواقد ورماد • اما الطبقة الاولى فقد وجدت فيها بقايا اكواخ طينية مستديرة الشكل كانت في ارضياتها حفر صغيرة اعدت لاعمدة اسناد السقف • وكانت الآلات الحجرية جميعها من الصوان ولم يعثر للزجاج البركاني على اثر • ومعظم الآلات هندسية الشكل بهيئة الهلال والمعين والمثلث منها مثاقب ومناجل ومقاشط ورؤوس سهام ومعاول وفؤوس ومخارز وخرز اسطوانية • اما بقايا عظام الحيوانات فكانت من الغزال والحمار الوحشي والارخص والطيور والاسماك والمحاريات • اما بقايا النباتات فتدل على الشعير البري • لقد انتهى هذا المستوطن بالحرق في ٨٦٤٠ زائد او ناقص ١٤٠ سنة قبل الميلاد • اما مريبط الثانية فقد اقيمت على بقايا مريبط الاولى وعلى التربة الكبر ايضاً ووجدت فيها ثمان طبقات • وكانت المباني اكواخا مستديرة او بيضوية الشكل شيدت بالطوف واتخذ من الحصى وكسور الرحى اسساً للبناء ورصفت الارضيات بالحجارة والحصى والطين • ووجدت مرصوفة بالحصى تبدأ من الخارج وتنتهي الى الاكواخ لتسهيل المرور اثناء المطر • ومعظم الآلات كانت من حجر الصوان والقليل منها من الزجاج البركاني ولكن لاتوجد بينها الات هندسية • والالات هي مقاشط ومحافر ومناجل ورؤوس سهام ومعاول ومعازق ومطاحن وهاونات واواني حجرية ومخارز

وامشاط من العظام ووجدت عظام الوعل الاحمر والخنزير البري والارانب والذئاب مع حبوب متفحمة للحنطة من نوع وللشعير البري والعدس والحمص والكشانة • ويعود تاريخ اول كوخ مستدير الشكل في مريبط الثانية الى ٨١٤٢ زائد او ناقص ١١٨ سنة قبل الميلاد • وفي مريبط الثالثة ظهرت المباني المستطيلة الى جنب البيوت المستديرة التي استمرت حتى العصر السابق ولكن البناء كان من الحجارة الهندمة المرصوفة بشكل اقصى مع الطين • ويرجح ان الدخول اليها كان من السقف • ووجدت عظام بشرية تحت ارضيات الدور • والالات الحجرية كانت صغيرة الحجم وهندسية الشكل • يعود تاريخ هذه المستوطنة حسب اختبار كربون ١٤ المشع الى ٧٥٤٢ زائد او ناقص ١٢٢ سنة قبل الميلاد مما يوحي بان مريبط الثانية والثالثة كانتا تعاصران اريحة في المراحل الاولى من عصور ماقبل انضمار • ويظهر ان مريبط الثالثة هجرت قبل ان تستوطن مرة اخرى في المرحلة الرابعة وذلك قبل ظهور اﻟﻔﻀمار ايضاً • وفي تل ابو هريرة(٢٢) الذي يقع على بعد ٤٠ كيلو متراً الى الجنوب من مريبط وجدت مستوطنة نطوفية صغيرة الحجم على الارض البكر تميزت بالات حجرية دقيقة هلالية الشكل ووجدت فيها عظام حيوانات غير اليفة وحبوب نباتات تعود لانواع برية • وفي يبرود(٢٣) وجدت مستوطنة نطوفية في سكينتا في الملجأ الثالث •

وفي شرق الاردن وجد في تل البيضة(٢٤) بالقرب من البتراء موقع نطوفي في العراء تغطيه الرمال تدل طبقاته الثلاث المتعاقبة السفلية على نوع من الاستيطان الموسمي المؤقت اذ لم يعثر فيها سوى على اثار قليلة جدا •

وفي الطبقة السادسة وجدت اطلال بيوت شيدة بالحجارة تحت الارض ويحيطها سور ويظهر انها تدمرت بالحريق في سنة ٦٦٥٠ قبل الميلاد وأعيد نحو الجفاف ويحتمل ان يكون الانسان قد نزل الى الوادي في وقت ما في بدأوها في العصر الحجري الحديث ٠

وفي مصر كان المناخ في هذا العصر لايزال رطباً وان كان يميل ببطيء السبيلية وهي حضارة تطورت من الحضارة الليفراوازية اي انها لم تتاثر وفي واحة الخارجة ظهرت حضارة أخرى في شمال مصر عثر على الاثار في بمؤثرات خارجية بل ظهرت داخل حدود مصر[٢٥] فظهرت السبيلية في كوم امبو ابي صوير والعباسية ٠ وكان كل ذلك تمهيدا للعصر الحجري الحديث ٠ والظاهر ان مستوطنات العصر الحجري المتوسط في منطقة الدلتا قد تأثرت بما انتقل اليها من فلسطين ٠ والموقع النطوفي في حلوان[٢٦] قرب القاهرة مهم في هذا المجال ٠ ولاتفسر قلة اثار هذا العصر التسبية الا بدفن اغلبها تحت طين نهر النيل الذي وصل في اواخر هذا العصر ٠ وتقسم كل حضارة من هذه الحضارات الثلاث المارة الذكر الى ثلاث مراحل تتبع الاولى والثانية العصر الحجري القديم الاعلى وتتبع الثالثة العصر الحجري المتوسط علماً بان جميع الالات صغيرة ودقيقة الحجم وذات اشكال هندسية وصنع اغلبها من الصخور البركانية ولكن نسبة الالات الصوانية ارتفعت في السبيل الاوسط ٠ كما وجدت اثار لطحن الغلال مما يدل على ان الانسان ابتدأ يستخدم الحبوب البرية في غذائه وربما هداه ذلك فيما بعد الى زرعها ٠ ويرجح ان الالات الدقيقة لهذا العصر لم تكن تستخدم بمفردها بل كانت تثبت في قطع من الخشب بواسطة القير او ترتبط الى قطع من العظام ٠

وفي المغرب العربي عاش اصحاب حضارة العصر الحجري المتوسط على طول السفوح الجنوبية لجبال الاطلس في مواجهة الصحراء في الجزائر وتونس حيث اقاموا الحضارة القفصية التي اشتملت في مراحل تكوينها الاولى على فصال كبيرة . ولوحظ منذ البداية ان هـذه الحضارة تحتوي ايضاً على الات صغيرة تقرب من الالات الميكروليثية الدقيقة الحجم . وفي المرحلة النهائية حينما انتشرت شمالا وشرقاً على طول ساحل البحر المتوسط في اوربا . ومما هو جدير بالذكر ان هناك اتفاقاً بين الباحثين حول انتشار حضارة العصر الحجري القديم الاعلى وظهور حضارة العصر الحجري المتوسط في المغرب العربي بشكل متتابع وهذا يساعد على تفسير كثير من الحقائق .

ان الحضارة القفصية هي حضارة النضال الحقيقية في المغرب العربي . اذ ظهرت في باديء الامر كحضارة في العصر الحجري القديم الاعلى بنضالها ومقاشطها غير انها تطورت في العصر الحجري المتوسط الى آلات دقيقة ذات اشكال هندسية منظمة بعضها على شكل قوس والبعض الاخر على شكل مثلث . وقد وجدت في بعض المواقع اواني مصنوعة من قشر بيض النعام ومزينة برسوم هندسية وكذلك عرف اهل هذا العصر صنع العقود من الخرز المختلفة الالوان . وفي الدور القفصي اختفت جميع المعالم المميزة للعصر الحجري القديم الاعلى وظهرت اثار العصر الحجري المتوسط التي يعود تاريخها الى نحو ٥٠٥٠ زائد او ناقص ٢٠٠ سنة قبل الميلاد وسميت الصناعة القفصية بهذا الاسم نسبة الى مدينة قفصة في تونس . وكان اول اكتشاف لها في سنة ١٩٠٩ وانتشرت في الاقسام الداخلية

للمغرب العربي • اما الصناعة الوهرانية فقد اخذت اسمها من مدينة وهران بالجزائر وانتشرت في المستوطنات الساحلية من اقصى المغرب حتى شرق تونس •

وفي منطقة الخليج العربي عثر على القليل جداً من اثار هذا العصر ومع التنقيبات الاثرية التي سوف تجري في المستقبل نضيف معلومات جديدة الى القليل الذي نعرفه في الوقت الحاضر • ففي قطر(٢٧) عثر في بئر حسين على آلات وادوات حجرية من نوع الصوان مبعثرة على السطح وهي تدل على صناعة بدائية قطرية كانت منتشرة اثناء العصر الحجري المتوسط وفي عمان(٢٨) اكتشف المنقبون مواقع تعود الى العصر الحجري المتوسط منها بير خسفة الذي وجدت فيه آلات دقيقة كثيرة •

الهوامش والمصادر

١ ـ هاري ساكز • عظمة بابل • ترجمة عامر سليمان ١٩٧٩ •ص٢٦ •

(٢)
Garrod,D., The Palacolithic of Southern Kurdistan: Merd, American School of Prehistoric Research Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Bulletin, No . 6, 1930,P. 8-43 .

(٣)
Braidwood, R. and Howe, B. , Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan. 1960, P. 28-29 .

(٤)
Mollaart,J. , The Neolithic Near East, 1975, P. 283.

(٥)
Solecki, R., Shanidar Cave, A Palaeolithic Site in Northern Iraq and its Relationship to the Stone Age Sequence of Iraq, Sumer, Vol. XI, 1955.

(٦)
Braidwood. R. and Howe, B., Op. cit., P. 28-29.

(٧)
Braidwood. R. and Howe, B., Op. cit., P. 27-28.

(٨)
Sotecki. R., Zawi Chemi Shanidar, A Post Pleistocene Village Site in Northern Iraq. Report of the VIth International Congress on Quaternary, Warsaw, 1964.

(٩)
Garrod, D., Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe. CAH, I, 1965, Chapter 3.

(١٠)
Mellaart, J., op. cit., P. 283.

(١١)
Garrod, D., Excavations in a Palaeolithic Cave in Western Judaea, Palestine Exploration Fund Quarterly Statement, 1928, P. 182 - 185.

(١٢)
Garrod, D. and Bate, D., The Stone Age of Mount Carmel I, 1937, P. 114.

(١٣)
Garrod. D., The Nultufian Culture: The life and Economy of a Mesolithic People in the Near East, Proceedings of the Pritish Academy, 43. 1957, P. 211 ff.

(١٤)

Garrod, D. , Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe in Palaeolithic Times, CAH, Vol . I, Part I, 1970, P. 121 .

(١٥)

Kenyon, K. , Archaeology of the Holy Land, 1960, P. 38 .

(١٦)

Macallester, R. , The Excavations of Gezer, 1912, P. 74 ff. , 100, 235 .

(١٧)

Childe, G. , What Happened in History, 1950, P. 43 .

(١٨)

Garrod, D. , The Natufian Culture : The life and Economy of a Mesolithic People in tho Near East, Proceedings of the British Academy 43, 1957, P. 211 ff

(١٩)

Mellaart, J. , op. cit. , P. 283 .

(٢٠)

Mellaart, J. , op. cit. , P. 38 .

(٢١)

Cauvin,J. , Nouvelles Fouilles a Tell Mureybet, AAAS, Vol. XXII, Tome 2, 1972, P. 115 .

(٢٢)

Mellaart, J. , op. cit. , P. 146 .

(٢٣)

(٢٤)

Mellaart, J. , op. cit. , P. 146 .

(٢٥)

Huzayyin, S. , The Place of Egypt in Prehistory , 1941 .

(٢٦)

Albright, W. , The Archaeology of Palestine, 1954 , P.59-61 .

٢٧- سامي سعيد الاحمد • تاريخ الخليج العربي من اقدم الازمنة حتى التحرير العربي ١٩٨٥ ص٦٠ - ٦٥ •

٢٨- نفس المصدر ص٦٠ - ٦٥ •

طرق التجارة المائية ووسائلها في العراق القديم

الدكتور وليد الجادر
الاستاذ في كلية الاداب/جامعة بغداد

لاهمية التجارة في وادي الرافدين ولحاجة البلاد الى استيراد مختلف انواع المواد الضرورية القليلة التواجد فيه • وكذلك لضرورة تصدير الفائض من الانتاج ، الزراعي بشكل خاص ، فقد عرف السكان علاقات تجارية واسعة على المستوى الرسمي وغيره وذلك مع سكان مناطق الحضارات الواقعة في اطراف البحر المتوسط غربا وحتى اطراف الهند وافغانستان شرقا ، واقاليم الجزيرة العربية في الجنوب واقسام واسعة من اسيا الصغرى •

لقد كانت وسائل النقل المائية المعول عليها في أحوال عديدة في انجاز مثل هذه العمليات ، وظهرت بذلك اضافة الى الاساطيل التجارية الرسمية التابعة للدولة وسائط اخرى تابعة للافراد والمجموعات من الاغنياء الذين كانوا يؤجرونها بموجب اتفاقيات خاصة نصت بعض المواد القانونية على تنظيمها بين الافراد ، وكذلك نظمت اجور المشتغلين في هذا الحقل من عمال وفنيين بشكل لوحظ فيه حجم وسيلة النقل ومقدار الحمولة •

لقد استلزم ادارة الاكلاك وخاصة الكبيرة منها وكذلك المراكب التجارية او العسكرية وتسييرها رئيس ملاحين عرف في اللغة السومرية تحت تسمية وهو في الاكدية وعرف الملاح من ذوي المسؤوليات الدنيا في السومرية والذي يدير دفة القارب بالكلمة • وعرف الشخص المكرس

عمله لسحب القارب او المركب عند نزوله النهر في احوال اضطرارية أو عند صعوده بالسومرية والتي يقابلها في الاكدية المتأتية من اصل الفعل الذي يعني جر أو سحب[١] .

ومن الجدير بالملاحظة هنا ، ان لفظة ملاح وعلاقتها بالقوارب والسفن وطرق التجارة البحرية بشكل عام انها واضحة من خلال علاقتها بالطيور وبالذات بطيور خاصة كانت تستخدم من قبل راكبي البحر والمياه . وكان الاصلاح الذي يرد في قصة الطوفان العراقية القديمة والخاص باستخدام الطيور من الرموز التي كانت معروفة من قبل الشعوب والتجار بشكل خاص .

ويرد من احداث بناء فلك اوتونابشتم وحمولته من ازواج الحيوانات والبشر ونماذج النبات والتقنيات الخاصة بتشييده بما يشير الى دراية واسعة ببناء السفن وباحجام متنوعة . كذلك يتوضح خلال ذلك تقنيات وتجارب من كان يجوب المياه الواسعة والبحار ومن ذلك استخدام الطيور للاستدلال عن اتجاه وقرب اليابسة وتقدير المسافات للوصول اليها[٢] .

لقد كانت شهرة استخدام العراقيون القدماء لوسائل النقل المائية في التجارة عن طريق الخليج العربي وصولا الى مناطق الهند الغربية معروفاً خلال الالف الثالثة قبل الميلاد[٣] .

وعرف استخدام الطيور لنفس الغاية من قبل مستخدمي البحار من التجار السوريون والفينقيون بشكل خاص ومنذ ماقبل الالف الثانية قبل الميلاد ومن الطريف ان نجد في الرسوم الملونة المزينة لقبور الفراعنة في مصر نماذج من السفن السورية ومعها الطيور المتخصصة للرحلات هذه :

(انظر الشكل ٢)(٤) • كذلك الحال من نموذج اخر مؤرخ من القرن السابع قبل الميلاد من قبـرص •

ويذكر بليني في كتابه كيف كان السنغاليون يحملون معهـم الطيور وكيف كانوا يتركونها تحلق عند حاجتهم ركوب البحـر ومعرفـة اتجاه اليابسة والمسافات والوقت للوصول اليها •

وظل هذا التقليد معروفا خلال العصور ونتلقف من الوثائق المدونة عن اخبار رواد البحار في الشرق والشرق الاقصى خاصة كيف كـان هؤلاء يطلقون الطيور من سفنهم في عرض البحار نحو الاتجاهات الاربعة والمجموعة التي لاتعود يعني انها وصلت الى بر اليابسة وترجع الى المراكب والمجموعات التي لاتصل اليها كانت تلك هي اولى وسائل الاستدلال المعروفة لراكبـي البحار كما يذكر علي لسلن بوذا(٥) •

المعروف ان الدولة او الافراد من المالكين كانوا يوكلون ادارة هـذه الوسائط بأيدي نوتية متخصصين عرفوا في اللغة الاكدية تحـت التسمية وكان للواحـد من هؤلاء صلاحيات تصـل احيانا الى عقد الاتفاقيات الخاصة بالتاجير ••• ومسؤوليته في العادة تكون بشكل مباشر مع الملك ولقد سمي هذا النوتـي الرئيسي في العادة تحـت تسمية اخرى اكثر تخصصا وتلك هي :

ويبدو الدور لمثل هذه القوارب واضحا خلال العقود المدونة بالمسمارية التي وجدت مدونة في نصوص اقدم القوانين في وادي الرافدين حيث نجد تخصيص ثلاثة مواد من مواد قانون اشنونا(٦) الواحد والستون الى ذلـك وهي المواد : ٤ ، ٥ ، ٦ ونصت المادة الرابعة من القانون على ان :

« تكون اجرة القارب الذي يحمل ٣٠٠ كيلو غراما من الحمولة حوالي وزن كيلو غرامين من الحبوب . وتكون اجرة النوتي كيلو غرامين من الحبوب لليوم الواحد » .

ونصت المادة الخامسة من نفس القانون على :

« حالة اهمال النوتي وتسببه في غرق قارب وعليه في هذه الحالة تعويض كل الخسارة » .

ونصت المادة السادسة على مايلي :ـ

« اذا استخدم شخص قاربا لا يعود اليه فعليه دفع (حوالي ٨٠ غراما) من الفضة » .

وفي قانون حمورابي الذي يعطي تفاصيل اكثر وضوحا واوسع شمولية واكثر تنظيما من قانون اشنونا الاسبق زمنا والذي يعطي انطباعا بكونه مجرد قانون محلي منظم لعلاقات افراد ضمن مجموعة جغرافية محددة وعلى ضوء مرحلة زمانية محددة ، نجد ضمن بنود قانون حمورابي هذا ما يتعلق بايجار قوارب وما يحتمل حدوثه من اضرار ضمنها القانون بشكل عادل .

وتنص المادة ٢٣٦ من قانون حمورابي على ان القارب الذي يودعه المالك بالايجار الى ملاح يكون ملزما بتعويضه في حالة غرقه .

اننا نلاحظ اوجه الشبه الواضحة بين فحوى هذه المادة وفحوى المادة الخامسة من قانون اشنونا .

اما المادة ٢٣٧ من قانون حمورابي فانها تتضمن الفحوى التالي :ـ

« ان على السيد الذي يستأجر ملاحا وسفينة ويحملها بالحبوب والصوف والزيت والتمر أو أي شيء آخر ، ان يعوض ، في حالة اهمال

الملاح واغراقه للسفينة فقدان ما عليها من حمولة ، السفينة والحمولة » .
اما المادة ٢٣٨ من نفس القانون فانها تتضمن ما يلزم الملاح الذي يغرق سفينة السيد المالك ويفلح في انقاذها (ثانية) يدفع نصف ثمنها بالفضة (جراء التلف الذي يصيبها) .

وتعزز رسائل العهد البابلي القديم مايوضح لنا تنظيم العلاقة الخاصة بالعاملين في هذه القوارب وعلاقاتهم مع المالكين كذلك تتوضح النظم والتقاليد المتبعة . والخاصة بايجار القوارب المعدة للرحلات الطويلة لنقل البضائع والعادة ان هذه القوارب وخاصة الكبيرة منها كانت تؤجر مع ربانيها أو نوتيتها(٧) .

ان هذه الرسائل توضح بدورها بعض المواد الواردة في قوانين حمورابي ومنها بشكل خاص ما يفرض على نوتية القارب من غرامات سببها في العادة اهمالهم واساءة استخدامهم لهذه القوارب التي تعود عادة الى مالكين من الاغنياء ومن رجالات المعابد الذين يتمتعون بنفوذ واسع يتمكنون معه تنفيذ هذه المواد وليس ببعيد ايضا انهم يساهموا بشكل او بآخر في صياغة بنودها .

ان المادة ٢٣٩ من نفس قانون حمورابي توضح المقدار الذي يعطيه مالك السفينة ويذكر انه كان حوالي ستة «كور» = ١٨٠٠ كيلوغراما من الحبوب في السنة الواحدة .

ومن بقايا رقم الطين التي تضم القوانين الاشورية نجد بعض المواد الموضحة لعمق اهتمام الاشوريين بالملاحة النهرية وتنظيمها بدقة ويعزز هذا الاهتمام اشراف الملك المباشر احيانا على سير تنظيمها .

والمعروف ان تنظيم امور الملاحة عند الاشوريين كان باشراف افـراد متخصصين يكون تنظيم علاقاتهم اقرب الى نظـــام الشركات ويرأس كـــل جماعة من العاملين في هـــذا المجال رئيس يسمونه رابيو ،

، وكان على أعضاء كل شركة ان يقسموا اليمين بعدم ايداع أي قارب قبل ان يثبت المستلم التزامه بالشروط المفروضة والمتعارف عليها[8] •

ونص المادتين الموضحين لارتباطهما بالملاحة مصنفة ضـمن الرقيم او المجموعـة   من مجموعة القوانين الاشورية والتي تترجم كالاتي [9]:ــ

« اذا نزل قارب وسط (مجرى النهر) من تلقائه ، واستدرجه شخص ، فاسمح لي (بالتصرف) و (اذا صدم قاربا آخر) وهو فـي حالة تغيير اتجاهه فالمسؤول الذي سبب الحدث او الشخص الذي استدرج القارب ان يعوض الغريق مع تعويض حمولته ونوتي القارب لايستدعي اذا لم يكن محلفاً من قبل الملك » •

والمادة الاخرى من نفس المجموعة : وهــي المادة الثانية تنص عـــلى مايلـي :ــ

« اذا صدم قارب ، خلال سيره باتجاه مجرى النهر أو خـلال عبوره على الطرف الاخر منه ، قاربا محملا او فارغا وتسبب في غرقـه ، فعلـى النوتي تعويض القارب (الغريق) وكل حمولته ، ويصـبح القارب الاول كله ملك النوتي (صاحب القارب الغريق) ؟ ••• »

يبدو واضحا من مضمون هذه المادة ان القارب الذي يصعد النهـــر يكون بطبيعة الحال أكثر بطئـاً في سيره ويكـون صعوده اما بوساطة المجاذيف أو بوساطة السحب بالحبال ، بينما القارب النازل باتجاه النهر

يكون اكثر سرعة ويكون من الصعب احيانا السيطرة على اتجاهه وخاصة اذا كان غير مزود بمجاذيف أو ان يكون كبير الحجم يصعب استدارة وتوجيه اتجاهه بسهولة وجراء هذه الحال يتوضح الخطأ من عدم حذر القارب الآخر •

اننا بالمناسبة نجد توضيحا آخر في المادة ٢٤٠(١٠) من قانون حمورابي تتشابه في مضمونها حالة المادة الثانية من المجموعة من القوانين الآشورية وتنص المادة ٢٤٠ هذه على ان القارب الذي يمخر بعكس اتجاه النهر :

واصطدم بقارب يسير باتجاه مجرى النهر :

وتسبب في غرق القارب الاخير ، فيجب تعويض صاحبه عن القارب وحمولته من قبل صاحب القارب الاول (وسيأتي ترجمة ثانية لمضمون هذه المادة في مناسبة ثانية) •

ومن تفاصيل نص مكرس لتنظيم حمولات القوارب المعدة لحمل المؤن بين مدينتي اوما وأدوكا المجاورة لها ومن فقرة الملك امار - سن اوبور - سن (٢٠٤٧ - ٢٠٣٩ ق٠م) يبدو واضحا اسلوب تنظيم الرحلات التجارية بالقوارب ذات الحمولات المتنوعة • ويأتي ذكر النوتي الذي يصاحب عملية النقل هذه واجره المتعارف عليه وكذلك اجرة القارب ومدة الايجار • والجدير بالذكر هنا ان عائدية هذه القوارب تكون باسماء بعض الالهة ولكنها في الواقع العملي تعود الى مسؤولي معبد ذلك الاله • وتذكر قوارب المعبودة باو والمعنيين برعايتها • ومن حمولات هذه القوارب تلك

التي تساوى بأوزاننا الحالية حوالي التسعة اطنان(١١) الى جانب انواع اخرى من القوارب ذات حمولة ثلاثون وعشرون وخمسة عشر وعشرة (كور) ويصل مايعادل ذلك بأوزاننا الحالية حوالي ٤ر٥ طن وثلاثة أطنان و٢ر٢٥ طنا و١ر٥ طنا أيضا هذا اضافة الى معرفتنا بقوارب من ذات الحمولة التي تصل الى خمسين واربعين كورا ، ويذكر كذلك تسمية اكثر من نوتي أو ملاح واحد حين ذكر القوارب من الحمولات الكبيرة بينما لا يذكر اسم النوتي حين ذكر القوارب ذات الحمولة الخفيفة(١٢) .

اما اجرة القارب الواحد والتي تتضمن في العادة اجرة النوتي أو الملاح فأنها تختلف باختلاف سعة أو حمولة القارب ولكنها تذكر بدقة بما في ذلك ذكر لفترة الرحلة المحددة باليوم الواحد .

وتذكر نصوص اخرى من مدينة اوما حمولات كبيرة لقوارب متخصصة من التي تصل الى مائة وحتى مائة وعشرون كورا أى ما يقارب من خمسة عشر وثمانية عشر طنا وتذكر النصوص هذه انها كانت معدة لنقل الاخشاب والقصب والقير ايضا(١٣) .

ومن خلال تفاصيل نص من عصر فجر السلالات نجد ذكرا لنقل مجموعة من الافراد يذكر النص انهم اثنان وستون شخصا اضافة الى خمسة واربعون آخرين من المحددين بانهم : و

وانهم جميعا من الصيادين والنجارين وحرفيين آخرين(١٤) . والمعروف ان هنا الملاح ويرد كقائد للمركب أو القارب أيضا ومثل هذه الصفة ترد أيضا في تفاصيل ملحمة كلكامش وكذلك في النصوص المدونة

على مجموعة تماثيل الحاكم السومري كوديا (٢١٤٠ ـ ٢١٢٠ ق٠م) اضافة الى ذكر ذلك في قوانين حمورابي (المادة ٢٣٧) ٠ وفي المادة (٢٣٤) من القانون نفسه ويترجمها شايل بالمجلفط والملاح ٠

« اذا جلفط ملاح مركب من حمولة ٦٠ كور ٠٠٠»(١٥) ويعني ذلك اولا ان عملية الجلفطة وهي تشديد المركب او السفينة بالخيوط ومن ثم تقييرها(١٦) ٠

وهناك تمييزخاص توضحه النصوص لقوارب السحب ، ويذكرصنعها من مادة الخشب أو البردي من مدينة لارسا(١٧) ٠ وعملية سحب القوارب بعكس مجرى نهرى دجلة والفرات معروفة منذ زمن السومريين وهذه الطريقة استلزمتها بطبيعة الحال نفس طبيعة مجرى النهرين والفروع والقنوات المتصلة بهما ٠ ولاهمية العملية هذه وشيوعها فقد ذكر عن طبيعة تنظيمها كذلك ٠ فكان هنالك شخصا بمنصب مراقب او رئيس مجموعة من الاشخاص من مهمتها سحب القوارب أو المركب ، وكان يعين هؤلاء لمدة معينة فقط ويذكر مثلا المدعو « اوكيني » في نص يرجع الى عصر سلالة اور الثالثة من مدينة أوما وقد عيّن مسؤولا عن عملية سحب قارب مصنوع من قصب البردي لمدة واحد وعشرين يوما فقط(١٨) ٠ ولم يذكر هذا النص اتجاه القارب وتعيين المكان الذي سحب منه ولكن النصوص الاخرى من نفس الفترة (حدود الالف الثاني ق٠م) ومن مدينة اور توضح لنا انه كان يلزم للذهاب من مدينة كرصو وهي احدى ضواحي مدينة لكش ، الى مدينة نفر ، التي تبعد عنها بطريق النهر الى الشمال حوالي ١٣٠ كم كان يلزم خمسة عشر رجلا لسحب قارب ذو

حمولة متوسطة من «٦٠ كور» أى حوالي عشرة اطنان مدة ١٥ يوما •

ون المشوق ذكره أيضا المدة التي تستغرقها الرحلات بالمراكب بين مدينة اوما ونفر ، وتختلف المدة بطبيعة الحال حسب الظروف وتذكر لذلك الرحلة هذه بمدة اثنان وعشرون يوما واخرى بستة وعشسرون يوما وفي مناسبات اخرى يذكر انجاز الرحلة بستة وعشرون يوما واربعة عشر يوما • وعند ذكر الايام في حالة مضاعفاتها ان يكون السفر ذهابا وايابا — والمعروف ان مدينة اوما هذه المعروفة اليوم بتل جوخا والتي كانت تقع على احد فروع الفرات ولها علاقة نهرية مباشرة مع نفر التي كانت تقع على نفس الفرع هذا وعلى مسافة حوالي ثمانين كيلو مترا(١٩) •

والمعروف ان السفن النهرية التي تسير مع مجرى التيار كانت تعرف باللغة السومرية :

وبالاكدية :

والسفن ذات المجاذيف التي كانت تسير عكس مجرى التيار تسمى بالسومرية :

وهي بالاكدية :   (٢٠) •

ولاهمية تنظيم حركة الملاحة هذه فقد نصت مواد عديدة من قانون حمورابي تفاصيل خاصة عنها وما يهتم مباشرة بالحركة المعاكسة لسير السفن فنجدها في نص المادة (٢٤٠) والتي تحدد المسؤولية في حالة اصطدام سفينتين من نوعين مختلفين ، فان اصطدمت سفينة تمخر باخرى تسحب وسببت تحطيمها وانجرافها واتلاف ماعليها من البضائع فعلى صاحب

السفينة المحطمة ان يشتكي امام الاله وعلى صاحب السفينة الاولى ان يعوضه عن كل ما فقده(٢١) .

كذلك تميز وسيلة النقل السومرية الشائعة وهي العبارة التي كانت تعرف باللغة السومرية ب
والتي هي في الاكدية :   وترصد منها ثلاثة انواع(٢٢) .
(الشكل ٣ و٤)

وقد تعمل مقصورة من القصب والسعف فوق الكلك لايواء الاطفال والنساء عند الضرورة فقط(٢٣) . وكان من الصعب صعود النهر بوساطة هذه الاكلاك حتى باستخدام المقاذف التي تستخدم عادة حين نزول النهر . كان هناك نوتياً خاصا للكلك يهتم بقيادته وادارة شؤون الركاب والبضائع ، وفي نص رسالة من العصر الاشوري المتأخر ومن فترة الملك سرجون الثاني نجد انها تهتم بموضوع نقل مجموعة العجول من منطقة كوزنا المعروفة ايضا باسم تل حلف على نهر الخابور شمال شرقي سوريا ويرد في النص كذلك ما يخص نوتي الكلك هذا واسمه
ويذكر مع مسؤولين آخرين كمساعدين معه في ادارة الكلك(٢٤) .

ومن المعروف ايضا انه كانت من ابرز دوافع غزوات سرجون الأكدي (٢٣٧٠ - ٢٣١٦ ق.م) لمناطق سوريا الشمالية واجزاء من تركيا بقصد السيطرة على الجبال الزاخرة باخشابها المعروفة والكبيرة الانواع لاستخدامها في صناعة القوارب في وادي الرافدين(٢٥) وبطبيعة الحال كانت هنالك دوافع أخرى غير السياسية والتوسع الاقليمي ويهم السيطرة على

مصادر معدن الفضة في مناطق جبال طوروس[٢٦] • والاشوريون لم يخفوا خلال صراحتهم المعهودة ، نياتهم المشابهة للاكديين ، فلقد استعان الملك الاشوري شمشي ادد الاول (١٨١٣ ـ ١٧٨١ ق٠م) بنهر الفرات لنقل اخشاب السدر على قوارب ضخمة من مناطق سوريا التي نجح في السيطرة عليها الى وادي الرافدين[٢٧] •

وفي الواقع فاننا نعرف مناسبات عديدة تعرضت فيها مناطق سوريا لغزوات اشورية كان القصد منها السيطرة على المواد الاولية اللازمة للصناعات الاشورية المتطورة بتطور امبراطوريتهم وتوسع رقعتها وكذلك لتامين اسواق استهلاكية لبضائعهم المصنوعة فيما بعد ، ثم لتامين طريق امين ومضمون باتجاه موانيء البحر المتوسط ومنافسة السيطرة المصرية القديمة على هذه المنطقة التي ظلت حتى السنيين الاخيرة من حياة الحضارتين المصرية والاشورية موضوع نزاع مختلف الاوجه بين القوتين •

وهكذا نلاحظ ان استخدام الاشوريين لمثل هذه الوسائط المائية لم يكن مقتصرا على حمل الجنود ، وفي سبيل خدمة الجيوش الاشورية فقط بل اننا نلاحظ ان خطوط التجارة المزدهرة على نطاق واسع بين الاشوريين وغيرهم من الاقوام كانت تلزمهم في الغالب اللجوء الى مثل هذه الانواع من الوسائط فهناك ذكر للقوارب الخاصة المستخدمة في نقل الصخور من الجبال وفي نقل الحبوب مثلا • ونص رسالة من عهد الملك اشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق٠م) على الاغلب يذكر فيها احد معتمدي الملك هذا عن وصول شحنة (من المسبوردلت) مرسلة من قبل احد المسؤولين الميلاميين على ظهر مركب ، ويخبر هذا الملك بوصولها الى مدينة سروانيتا (التي

لانعرف موقعها بالضبط) ، ويذكر ايضا استلام الشحنة بعد تدقيقهم لمردات الحمولة • ويذكر عن سلامة الشحنة وعدم وجود أى نقص في موادها(٢٨) •

ونص أشورى آخر يذكر تفصيل نقل تماثيل كبيرة من الصخر ورؤوس بعض الثيران المجنحة فوق قوارب كبيرة(٢٩) • والجدير ذكره ان بعض المنحوتات الاشورية تعرض مثل هذه القوارب وتبدو منها ذات نهاية مدببة من طرف واحد وذات جوانب عالية بصورة لوحظت فيه ثقل الثيران المجنحة التي تستلزم ان يغور القارب بنسبية كبيرة تحت سطح الماء • ان مثل هذه النماذج من المنحوتات البارزة تعرض كذلك طريقة انزال القارب الى الماء بعد تحميله بمثل هذه الحمولة الثقيلة التي قد تزيد على العشرين طنا(٣٠) (انظر الشكل (٥) ايضاً الاشكال : ٦ و٧ و٨) •

ويرد في نص رسالة من الفترة السرجونية ما يلي :ـ

« لقد حملت المراكب بالحجر (تماثيل) (٣١) »

وفي رسالة اخرى من العهد البابلي الحديث :ـ

« ليت مليكي يرسل قاربا ويأمر بتحميله بالتمر والثوم(٣٢) » •

وتذكر رسالة الفترة البابلية الحديثة القارب الخاص والمستخدم في احتفال رأس السنة والذي جعلت فيه تزيينات خاصة وعملت على سطحه خيم مزينة بقطع الذهب والاحجار الثمينة ! (يوجد كسر في النص)(٣٣) •

وتفهم من تفاصيل حملة الملك الاشوري سنحاريب (٧٠٤ـ٦٨١ق٠م) المنتصرة على العيلاميين في القسم الجنوبي الشرقي من وادي الرافدين

انه يذكر عن نقل عساكره فوق القوارب وانه انزلهم النهر ، بينما هو (سنحاريب) سلك الطريق المحاذي للنهر والقريب منهم(٣٤) ٠

وفي تفاصيل نص اخر نجده يتفاخر لمراقبة الجمهور لسفنه الحربية ويذكر بأن (أعدائه) قد جندوا ضد جيشه قوة لا حصر لها(٣٥) ٠

ومن نفس الحوليات الخاصة بهذا الملك نجد ان هذه المراكب الكبيرة المستخدمة في الاسفار النهرية الطويلة تكون محملة كذلك بانواع من الحمولة الثقيلة ، ويوضح نص من النصوص حجم وقدرة حمولة بعض القوارب المصنوعة على عهده :

« وحملت جنوده ، كجزية ، حرس الحامية من الكلدانيين وجميع (تماثيل) الالهة الخاصة ب   واسرى من الشعب وعربات (حربية) وبغال وحمير وكل هذه حملت على السفن وجلبت الى (مناطق الاشوريين) »(٣٦) ٠

واخيرا تذكر مايكمل موضوعنا الخاص بطرق التجارة المائية وعلاقتها المباشرة بالموانيء ٠ وانطلاقا من التسمية الاكدية   التي تشير الى معنى الميناء والمركز التجاري في المدينة نفهم انه كان في هذا الميناء الكثير من العمال ومعهم المراقبين ورؤساء مجموعات ٠٠٠ ولقد سمي الذي يدير امور الميناء تحت الاصطلاح   ٠ واما ما يشبه هذا المنصب في الميناء البحري فيسمى

والمعروف عن هذه الموانيء البحرية التي كانت لها علاقات تجارية خاصة مع بلدان وادي الرافدين وخلال كل عصوره تقريبا وتلك المدونة

على شواطيء الخليج العربي مثل ميناء البحرين (دلمون) وموانيء البحر المتوسط مثل بيروت وصيدا وصور وعكا . وعرف بشكل خاص عن شهرة ميناء صور وتجارته مع موانيء البحر المتوسط الاخرى في اراضي مصر وصقلية ومالطا وتونس وقرطاجة التي اسسها تجار صور في عام ٨١٤ ق.م .

ومثل هذه الرحلات الطويلة كانت تستلزم بطبيعة الحال اتفاقيات تجارية واتفاقيات خاصة بتامين سير ووصول البضائع بين هذه الموانيء علماً بانتشار ما يعرف بالقرصنة البحرية والنهرية في هذه الفترات القديمة. وهكذا نفهم من مضمون الاتفاقية الجارية بين الملك الاشوري اسر حدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) وبين بعل ملك صور والتي تتضمن ما يلي :-

« أن المركب الذي يعود الى بعل او احد رجاله في صور والذى يرتطم في فلسطين او على حدود دولة اشور فكل الذى فى هذا المركب هو من ملكية اسر حدون ملك الاشوريين ، وكل الرجال الذين هم في داخل المركب يجب ان لا يرهق اى منهم بل تسنجل اسمائهم»(٣٧) .

يبدو واضحا من هذا النص الصريح علاقة الاشوريين التجارية بصور المشهورة بسعة علاقاتها التجارية مع بلدان البحر المتوسط الشرقية وشمال مصر وقبرص(٣٨) . وموانيء اليونان وقد بكاها حزقيال في التوراة : الاصحاح ٢٧ وذلك عندما احتلها الاشوريين وبعدهم البابليون ، والواقع ان حزقيال كان يبكي فترة احتلال العبرانيين لصور فترة قصيرة جدا بينما نعرف انها كانت تقليداً ومنذ القرن الثامن والعشرين ق.م فينيقية النشأة

والاصل والحضارة ، والمعروف ان صور جزيرة لا تبعد كثيرا عن الساحل وقد انشأ الاسكندر جسرا من الحجر عبارة عـــن ممـر يربط الجزيـرة بالساحل ٠

وكانت مدينة اشور ، التي كانت تقع على نهر دجلة ولا زالت خرائبها واقعة على نفس النهر ، تعتبر ميناءا معروفا وخاصة خلال بدايات الالـــف الثاني ق٠م(٣٩) ٠

الهـوامش والمصـــادر

(١)
Aynard.J.M. Dict. archeologique des techniques . Paris 1964. P. 753

ومن الجدير ملاحظته ان لفظة ملاح هذه وقرأتها مقطعيا = متأتية من الصيغة الاولى وهي في مرحلة تأديتها الاولى: التي من المحتمل ان تكون لها علاقة بالعلامة الصوريـة التـي تعنـي الطير وصورتها : + +

Allette De La Fuye . " deux inscriptions inedites d' Oumma relatives ai La navigation." In : Revue d'Assyriolo?ie et d'Areheologie Orientale Vol XXC. (1028) P. 13.

الشكل ١ : أ و ب ٠

كذلك : انظر : ما يخص الفرضيات الاخرى : طه باقر ٠ من تراثنا اللغوى القديم مايسمى في العربية بالدخيل ٠ بغداد ١٩٨٠ ص١٤٥٠

والفرضيات الاخرى المقبولة ايضا والتي يذكرها :

Thureau - Dangin. ZA. XVII P. 191 ; RA. XXIX P. 13 .

(٢)

Le Breton, L; Les itineraires . . . . . In : Renconter assy . de 1955

Oppenheim, A. L. Les marchands de mer d' Ur. In : JAOS. 1954 .

P. 6 . . . . .

وتصور المبدعون من الفنانين المسلمين سفينة نوح ومعها صور الطيور المكملة لنفس الفكرة ·

د · سعاد ماهر · البحرية في مصر الاسلامية مـــن · فريال داود المختار « سفينة نوح في التصوير الاسلامي » مجلة كليـــة الاداب العدد «٢٣» ١٩٧٨ ص١٣٧ ····

(٣)

Kramer, S. N. "Commerce and Trade" In : Iraq, XXXIX "1977" .

رضا جواد الهاشمي «المقومات الاقتصادية لمجتمع الخليج العربـــي القديم» في مجلة النفط والتنمية عدد خاص · السنة السادسة ٧ـ٨ ١٩٨٨ ص٨٥ والهوامش : ص٨٩ ـ ٩٠ ·

(٤)

Michal Artzy. " On Boats and sea Peoples " In : BSOAS - Bulletin of the oriental and African Studies , univ. of London . vol . II (1988) .

(٥) في الفصل الخاص بوصف الهند

L. VI. 24.

مـن :

David M. "Ie recit du deluge et L'epopee de Gngamesh" In : Gilgamesh et sa Iegende . Btudes recuillies par P.Garelli a I'occasion de Ia VIIe rencontre ass. Internationale, Paris 1960 P. 157.

rhys. D. T. W. In . JRAS. 1899 P. 432 .

David, M. Ibid. P. 157 - 158 .

والشكل ٢ب و ج .

(٦)

Goetze, A . The Laws of Eshnunna, in : AASOR . xxxI (1956).

المعروف ان هذا القانون يرجع تدوينه الى العهد البابلي القديم وعثر على نصوص في تل حرمل وهو المركز الحضارى الـــذى كان تابعاً لمملكة اشنونا . انظر ايضا :

Bottero, J. Annuaire de L'ecale pratique des Hautes etudes. paris. 1965 P. 89.

(٧)

CT. IV 32 b : 2, YOS . XII . 546 : 9 UET . V . 52: 14 .

حول المزيد من نصوص رسائل العهد البابلي القديم والخاصة بايجار القوارب ... والملاحين انظر :

Lutz, H, F. Early Babylonian letters from larsa . NH . 1917 , PL : 13 Letter : 12 . . .

(١٠)

(٨) اكثر من التفاصيل الموضحه في بنود مواد القوانين الاشورية نجدها في مؤلفـات :

Meissner, Babylonien und Assyrien . . I P. 342 .
Guillaume cardascia : Les Lois assyriens P. 329-330.

(٩) ترجمة المواد فيها تصرف بسيط القصد منه ان يكون اكثر وضوحا للقارىء الغير مختص بطبيعة الكتابة المسمارية .

ولقد ترجم النص لاول مرة واكمل الناقص منه الباحث :

M. David : zwei Bestimmungen Uber die Binnenschiffahrt im mittelossyrischer zeit, JEOL . 6 "1939" P. 135 - 137 .

-١٠

Driver , * Miles. The Babylonian Laws. II, 427 . . .

(١١)

Allotte de la fuye . Ibid . P 2- 18 .

(١٢)

Allotte de la fuye . Ibid. P. 12 .

(١٣)

Allotte de la fuye . Ibid . P. 2- 18 .

(١٤)

Ibid . P . 9 .

(١٥)

Ibid . P. 12 - 13 .

رضا جواد الهاشمي « الملاحة النهرية في بلاد وادي الرافدين »
مجلة سومر · ج ١ ـ ٢ المجلد ٣٧ (١٩٨١) ص ٣٦ ـ ٥٥ ·

(١٦) المتخصص الذي يجلفط هـو الـذى يسوى السفن او المراكـب ويصلحها ·

Dossin, G. Textes Cuneiformes . Tome. XVII .

(١٧)

Lettves de La premiere Dynastie Babylonienne.
paris . 1933. 69 : 12 : = AO = 6755 .

(انظر ترجمة احد نصوص مدينة لارسا بخصوص هذا الموضوع في باب صناعة القوارب) ·

(١٨)

Jones, T. B. Snyder, J : W. Sumerian Economic
Texts from the III' Dynasty. 268 P. 156 .

(١٩) من تفاصيل رحلة تجارية من قافلة تضم خمسة وثلاثون مركبا :ـ
Allotte de la fuye . Ibid. P. 16 .

(٢٠) د· فوزي رشيد · « وسائط النقل المائية والبرية في العـراق القديم ، مجلة النفط والتنمية · عـدد خاص · السنة السادسة · ٧ ـ ٨ (١٩٨١) ص١٠٢» ·

(٢١) د· عامر سليمان · القانون في العـراق القديم · مطبعـة جامعـة الموصل ١٩٧٧ ص٢٦٩ ·

(٢٢) د. فوزي رشيد : المصدر نفسه ص١٠٥ .

(٢٣)
G. Lejean . Tour du monde . I 2e redit . 1867 P. 46.

كذلك انظر وصف الرحالة الاثارى الفرنسي : J. Oppert

للكلك واساوب صناعته في العراق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر :

Exped. Scienfique En Mes. I. P. 80-81.

كذلك انظر عن المقاذف الخاصة بقيادة الاكلاك واشكالها في المنحوتات الاشورية :

Place . Ninive et L'Assyrie . pl . 43. Layard, H. Menuments of Nineveh. II. PL. 13.

ومن المشوق ذكره هنا على سبيل المقارنة « ان طريق التجارة النهري المألوف في العراق كان بواسطة نهر الفرات ومن مراكز التجارة الواقعة على هذا الطريق كان المركز المعروف في مدينة الحلة وفيها كانت مستودعات كبيرة تودع البضائع التي تجلب عن طريق البحر والماء.

ومن حوادث القرن السادس عشر ما يذكر عن : Rauolff خلال وجوده في هذه المدينة عام ١٥٦٤ ان وصلت « خمس وعشرون سفينة موقرة بالتوابل والعقاقير النفيسة المجلوبة من الهند عن طريق هرمز الى البصرة ... حيث تفرغ حمولتها من هنا في سفن صغيرة لجلبها الى بغداد . وكان التجار يحتفظون بالحمام الزاجل في البصرة لترسل وقت الحاجة الى بغداد حاملة الرسائل . وعن

= ....

طريق نهر دجلة كانت السفن من حمولة العشرين والخمسين طنا معروفة حتى القرن التاسع عشر ومما يذكره بكنكهام الرحالة الانكليزي الذي زار العراق في اوائل القرن التاسع عشر بان مثل هذه السفن في هذه الفترة كانت مزودة بالسواري والاشرعه لاستخدامها اذا اسعفتهم الريح ، وفي الفصول الملائمة عندما تسود الريح الشمالية تستغرق الرحلة من بغداد الى البصرة سبعة او ثمانية ايام ولكن في الاجواء الهادئة تقطع القوارب نفس المسافة في عشرة او خمسة عشر يوما • ويلجأ الى جر السفينة الصاعدة الى بغداد على طول الشاطيء في اغلب الاوقات وتستغرق من الوقت لأكمال الرحلة من البصرة الى بغداد ثلاثين – اربعين يوما • انظر عن جانب من هذه الرحلة مترجما من قبل محمد علي حلاوي في مجلة سومر : المجلد الحادي عشر (١٩٥٤) ص٢٦٧ – ٢٧٦ •

(٢٤)
ABL . 167 , 14 .

(٢٥)
Aynard, J . M . Dictionnaire Archeologique des techniques. I Paris 1964.
P. 753 .

وتعرف شهرة اهل ملوخا في نتاج الخشب وتصنيعه وذكر المنطقة مع ذكر سكان مكان (عمان) ودلون (البحرين) ويذكر عن سرجون

...... =

الاكدي نفسه بانه أمر صنع سفن في ملوخا ومكان ودلون وجلبها الى مراسي اكـد :

AFO . 20 (1963) after :
Iraq . XXXIX (1977)
P. 5

ومن المتوقع ان تكون السفن العراقية قد وصلت الى اطراف البحـر الاحمر وشبه جزيرة سيناء عن طريق البحر وذلـك يبدو واضـحا من خلال بعض النصوص من نهايات القرن العشرين قبل الميلاد .

(٢٦)
Barton. Royal Inseriptions of Sumer And Accad.
P. 108 - 109 .

(٢٧)
Ibid. and Dictionnaire. Arch. Vol. I. paris. 1963.
P. 161 .
ARM . I . No . 7 : 4 - 31 .

(٢٨)

ومن خلال مضامين نصوص مدونة على مخاريط فخارية يذكر اورنمو تنظيمه لحمولات وسائل النقل المائية عند المرافىء او الموانىء وتبدو هنا اشارة الى السفن العائدة من مصر وان حمولتها على الساحل كانت لاتستلم قبل الانتهاء من تقدير البضائع وتسوية الطلبات والارباح بطريقة منظمة في اور ، وبعد ذلـــك يُسمح للسفن بالاتجاه الى مرفا المدينة للتفريـغ» .

..... =

= ....

جاكوبسن . ثوريكليده شبكة الرى في اور (بلاد سومر) .
ترجمة عطا الشيخلي . في مجلة النفط والتنمية . عدد خاص ومزدوج .
٧ ـ ٨ (١٩٨١) ص٧٧ ـ ٧٨ .

(٢٩)

(٣٠)

ABL . 420 : 7

Layard . H. Monuments of Nineveln . II. Pls, 12, 15. 16 .

(٣١)

ABL . 420 : 7

(٣٢)

CT . 22 , 18 : 23 .

(٣٣)

VAB . 4 . 128 . III 71 and . IV. " Nbk

(٣٤)

OIP . II. 74 : 67 P. 69 CAD. E. P. 95 .

يعرف عن الملك الاشوري سنحاريب انه كان يفضل ركوب القارب
بدل العربات : انظر :

Borger . Esarh . 57 IV 83 , CAD. E. P. 93 .

(٣٥)

OIP . II . 75 : 84 .

(٣٦)

ومن القوارب المعدة لنقل تماثيل الالهة والمراكب او السفن الاحتفالية
انظر :

= ....

.... —

Salonen . wasserfahrzeuge : 58 . . . . .
schneider. Gatterschiffe . in Ur III Reich, stor . 13/5 , Oppenheim . JNES . 8, 180 n. 21. CAD. E. P. 94 .

اما قوارب الصيد : Hh. IV 274 = e- lip ba - i - ri

فقد عرفت هذه القوارب الخاصـــة في نصوص عديدة منها سومريه وبابلية قديمة ايضا انظر :

L. w. King : The Letters and Inscriptions of Hammurabi 80 : 8 .

يذكر في كتابه ص١٢١ ... الى الحدود الاقليمية للمياه بين المدن ومجالات الصيد فيها بواسطة القوارب الخاصـــة بالصـــيد :

CAD. E . P . 95

انظر ايضا :

Salonen : wasserahrzeuge passim,
" : Nautica Babyloniaca .

(٣٧)

Aynard,J.M. DAT . II. P. 754 ;
Borger, Die Inschrifter Asarhaddons konigs von Assyrien, Archiv fur Orient - forschung (AFo) Beiheft. 9 P 107. CAD. E. P. 91 .

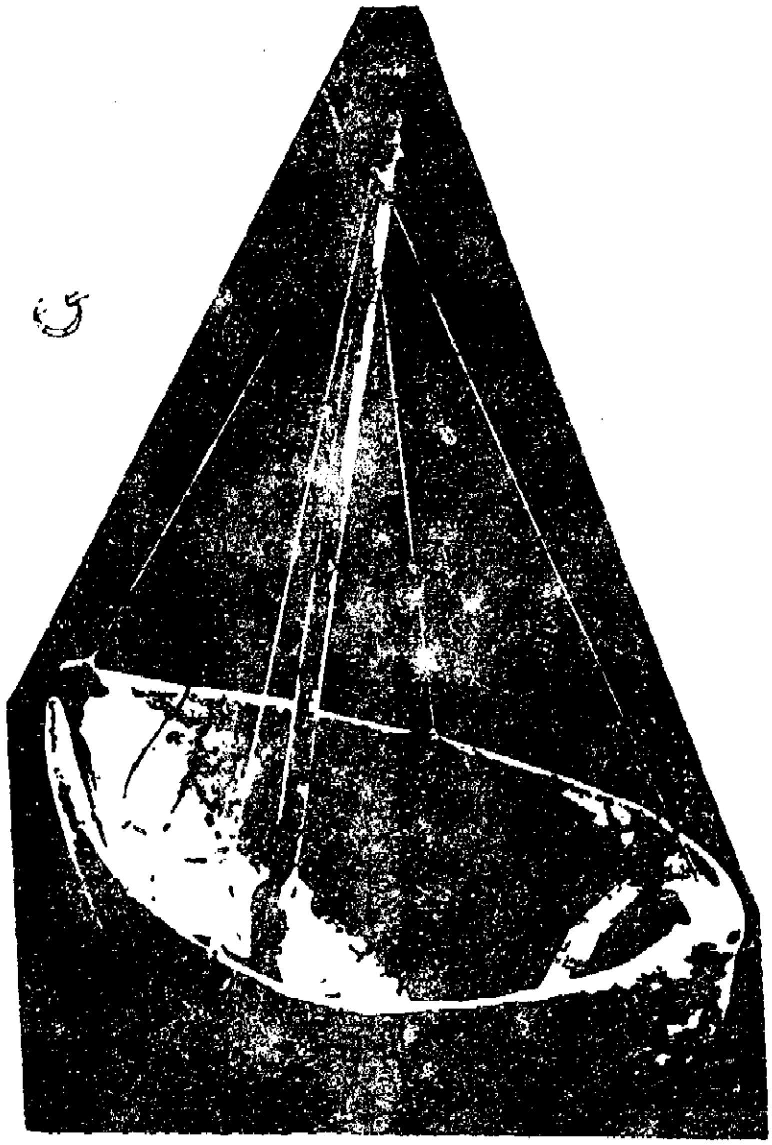
(٣٨) ومن اجل الحصول على معدن القصدير اللازم في صناعـــة البرنز وصل الاشوريون الى قبـرص لجلبه منها وكانـــت قبرص اشـبه بمستعمرة اشورية تمكنوا من خلالها الاتصال ببعض جزر بحر ايجة

= ....

ايضا • وقبل سنوات امكن لعلماء الاثار دراسة بقايا سفينة شراعية طولها حوالي عشرين مترا كانت قد غرقت في حدود منتصف الالف الثاني قبل الميلاد مقابل الساحل الشرقي للبحر المتوسط • ووجد ضمن حمولتها سبائك القصدير وحلي ذهبية ولاليء وكهرمان واسلحة ونحاس •••

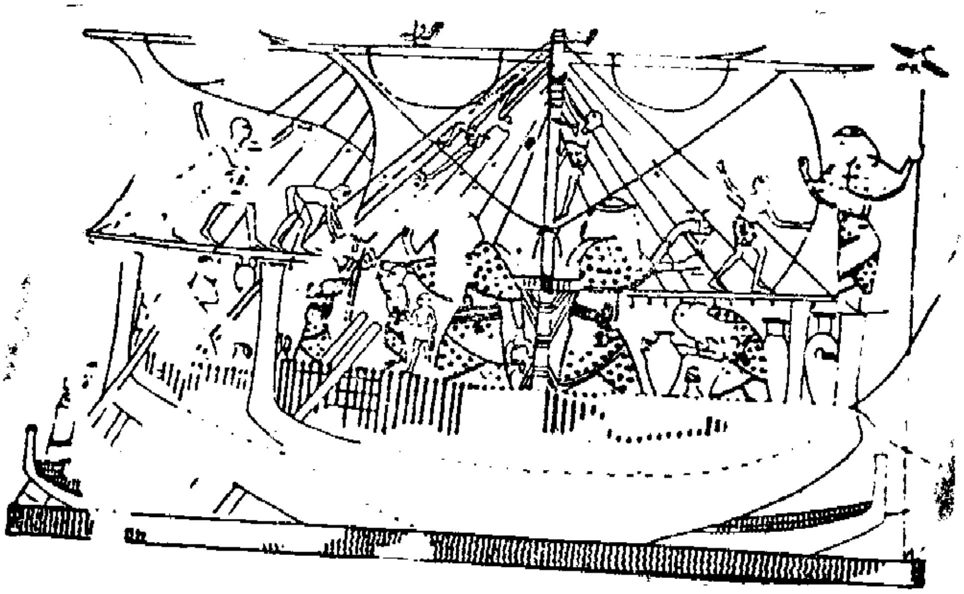
(٣٩) د•م• ت لارسن • «اشور القديمة والتجارة الدولية» في الندوة العلمية العالمية الاولى لبابل واشور وحمرين • «مجلة سومر» • ج ١ ــ ٢ ، مجلد ٣٥ (١٩٧٩) ص٣٤٤ •





ا ـ نموذج مصغر للقارب الشراعي من اريدو .

ب ـ من العلامات الدالة على أنواع وسائل النقل المائية في الكتابة السومرية من المرحلة الصورية الاولى .



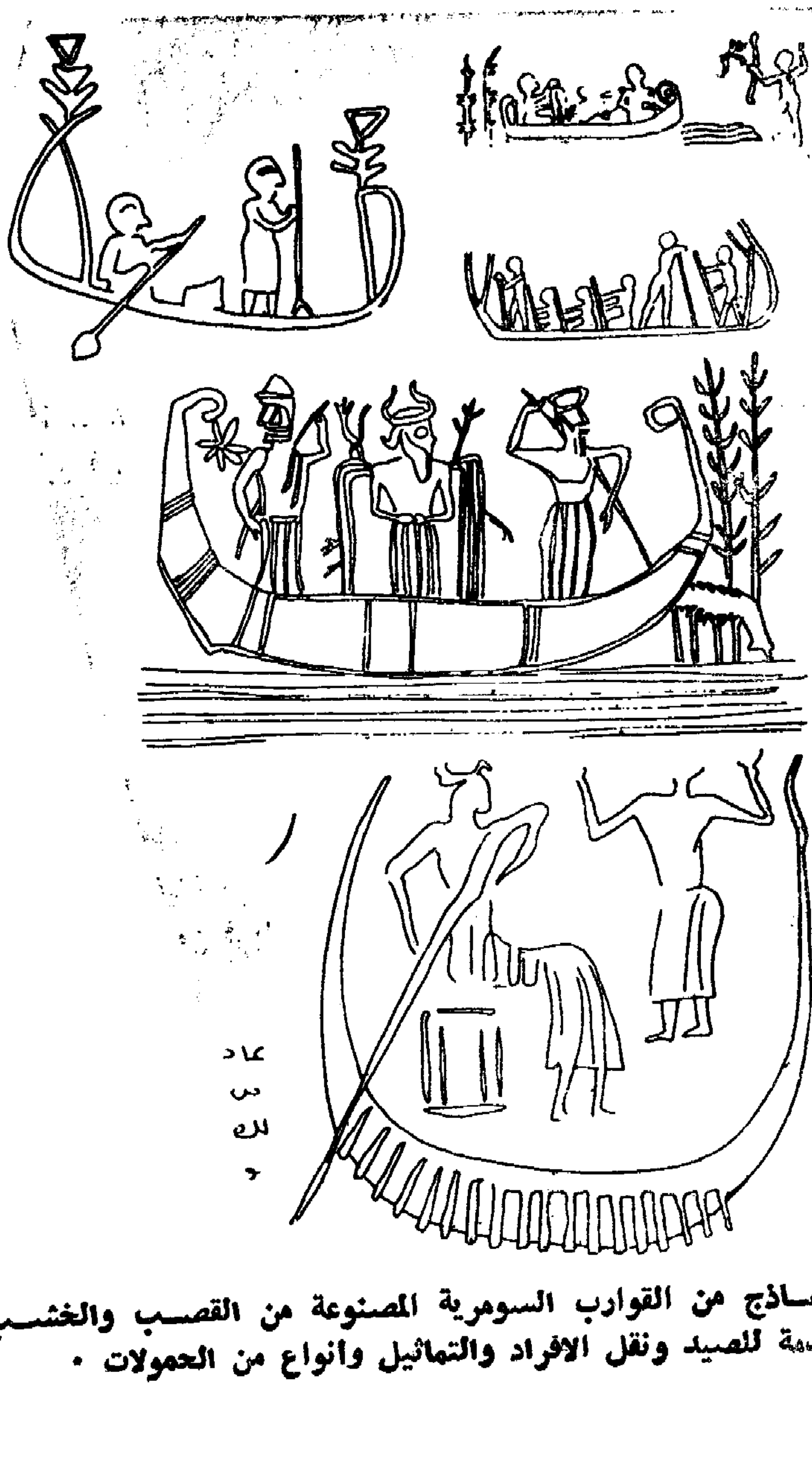
ا ـ السفينة السومرية ـ الفينيقية التي عثر عليهـا مرسومة على جدار قبر في مدينة طيبة ويبدو الطير اللازم في رحلاتها •



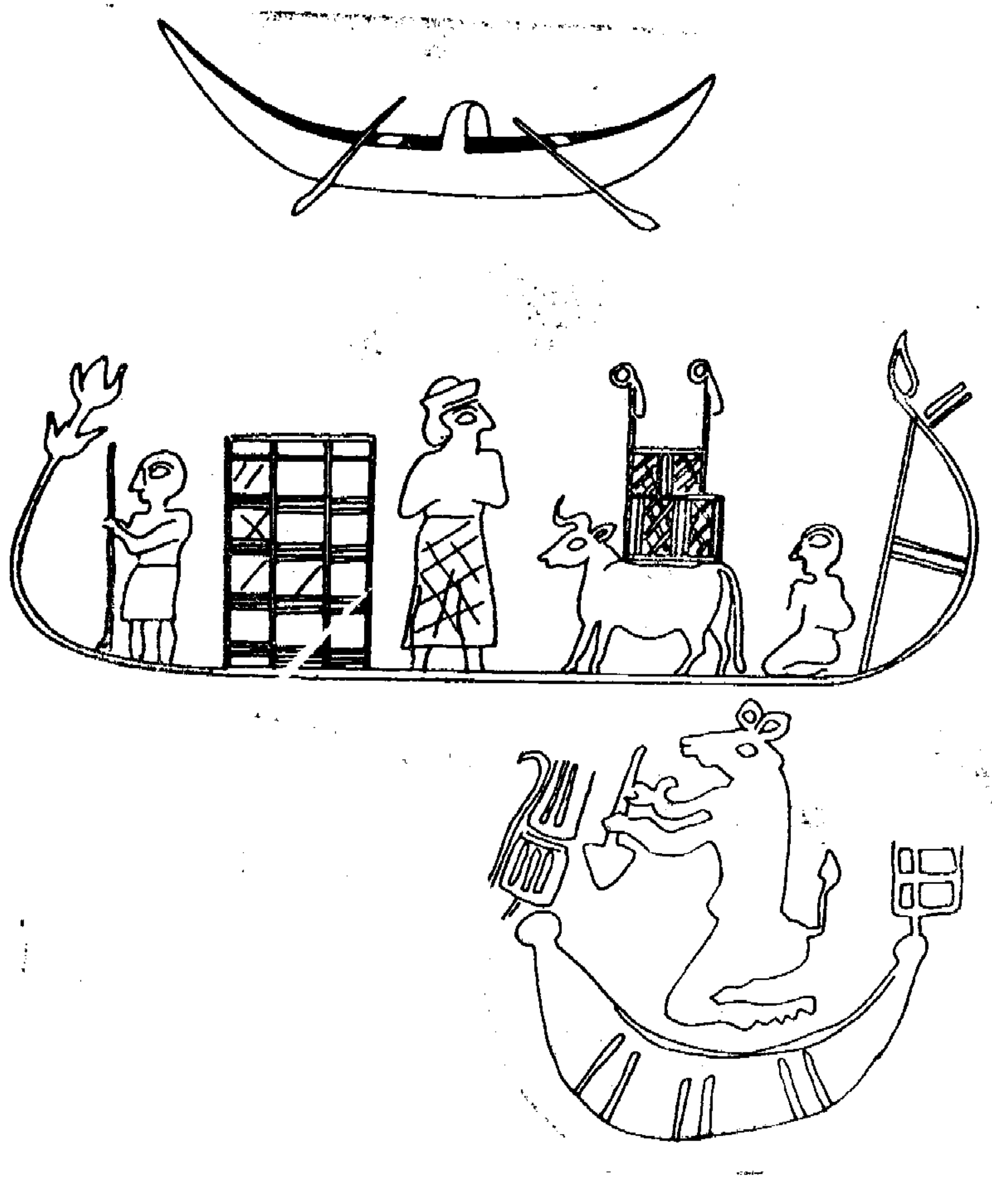
ب ـ سفينة نوح حسب تصور الفنانين المسلمين •
من فريال المختار • مجلة كلية الآداب ٢٣ (١٩٧٨)

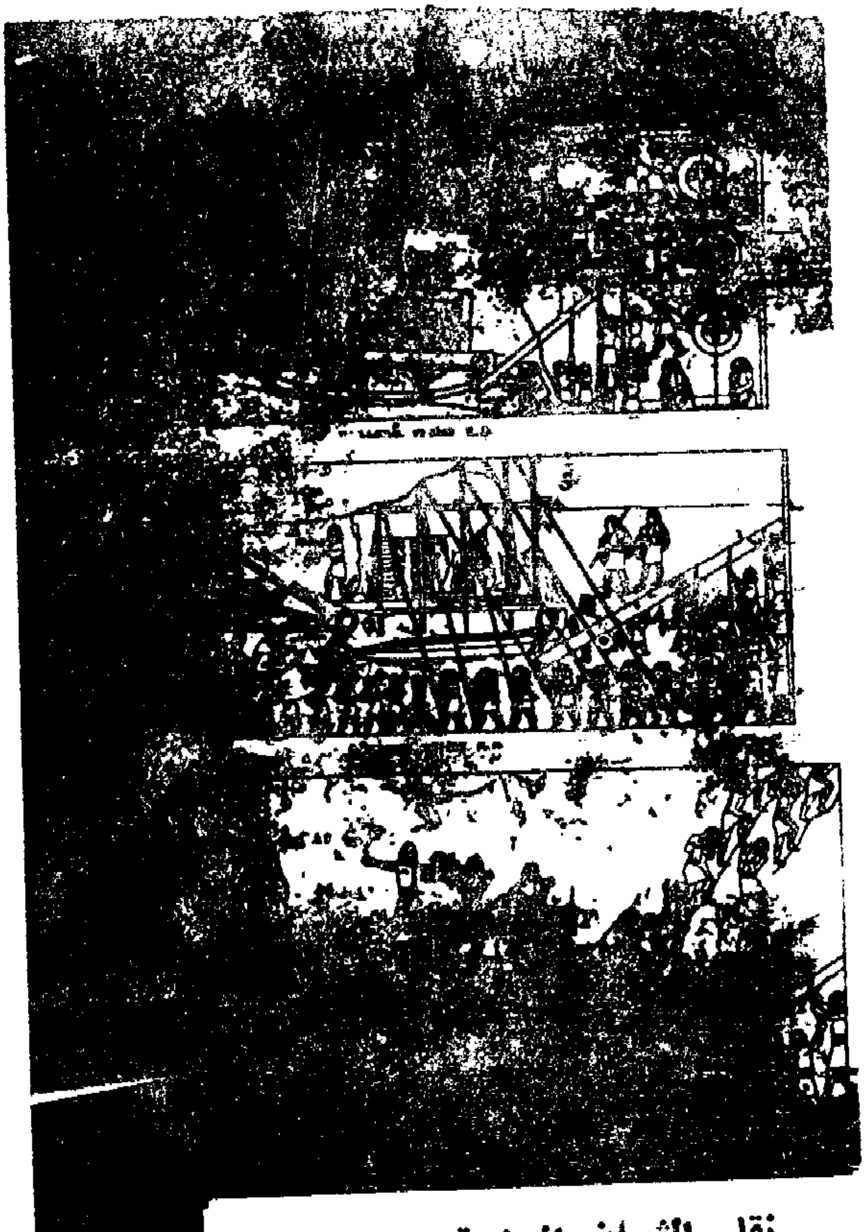


ح ـ سفينة الامبراطور فردريك الثاني من القرن الثالث عشر من جنوب ايطاليا •



نمـاذج من القوارب السومرية المصنوعة من القصـب والخشـب والمستخدمة للصيد ونقل الافراد والتماثيل وأنواع من الحمولات .

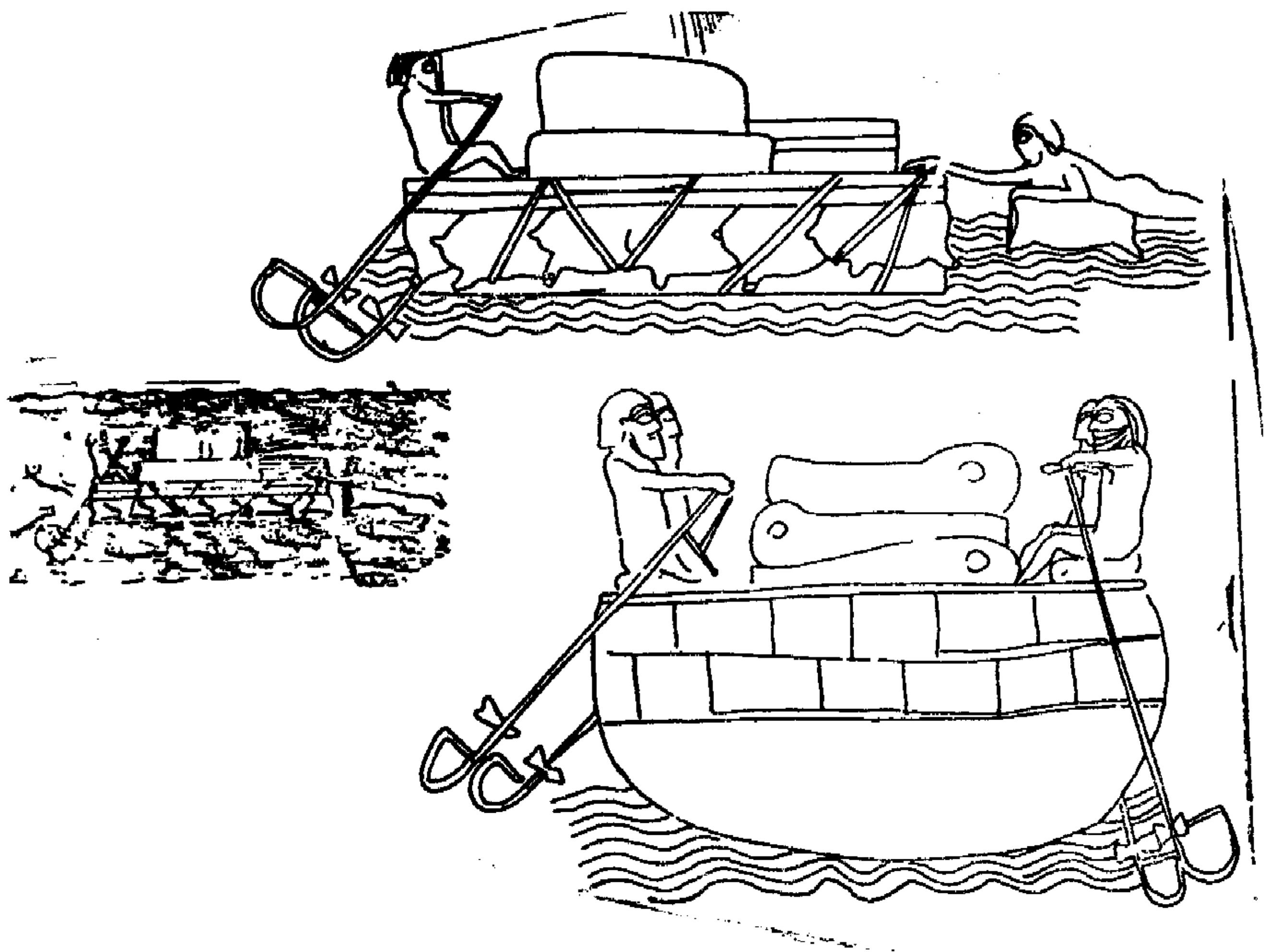




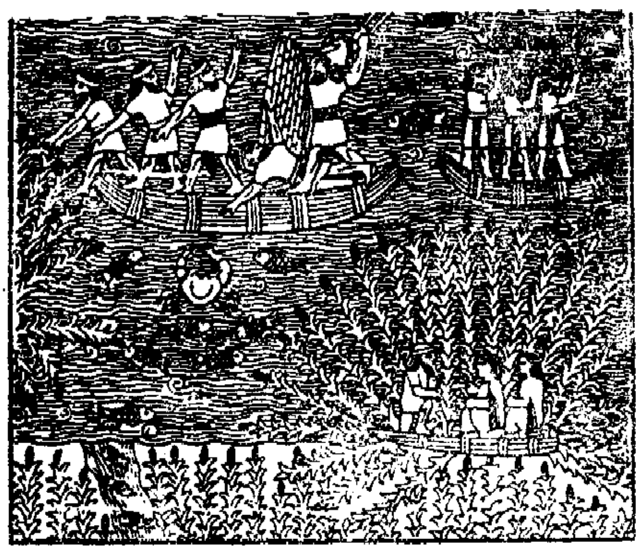
نقل الثيران المجنحة على ظهر مركب

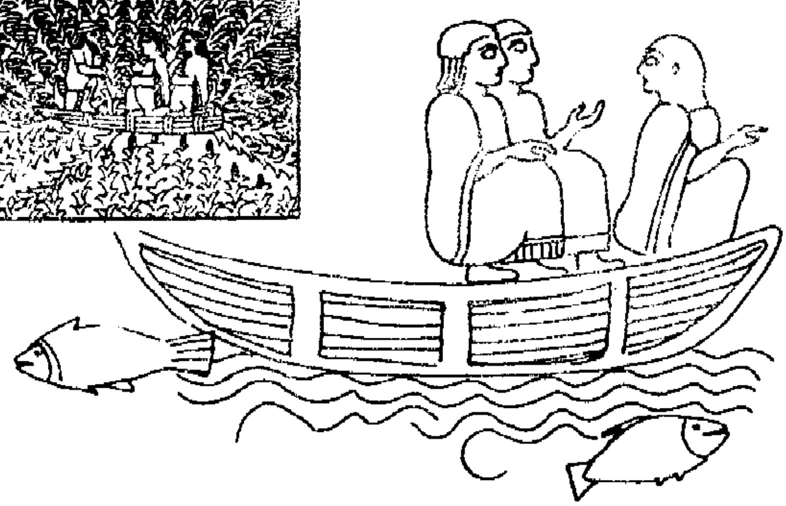


نقل عربة على قفة آشورية

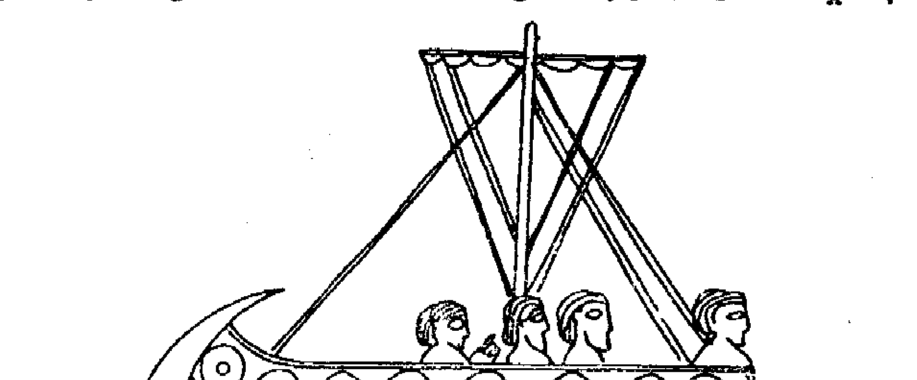


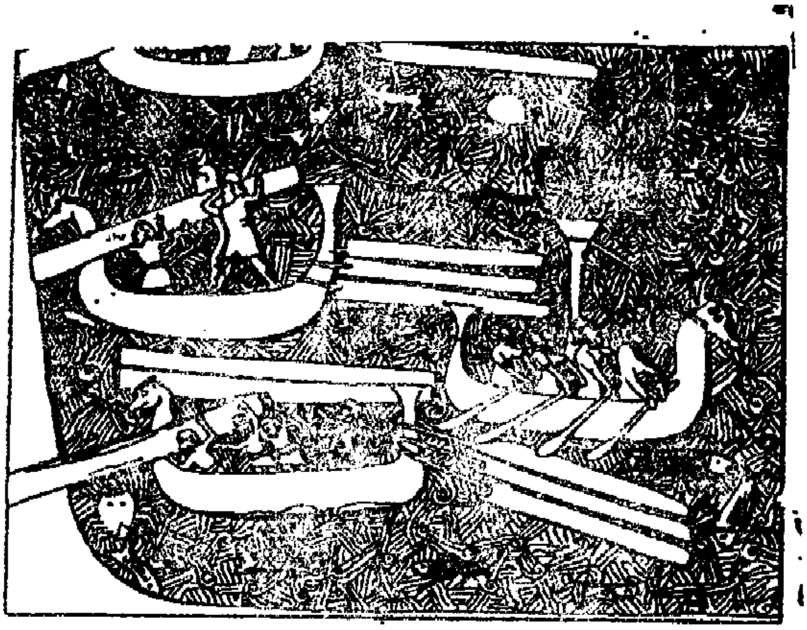
من عمليات نقل الحمولات على الاكلاك والقفف
الضخمة الاشورية من تفاصيل منحوتة جدارية من نينوى

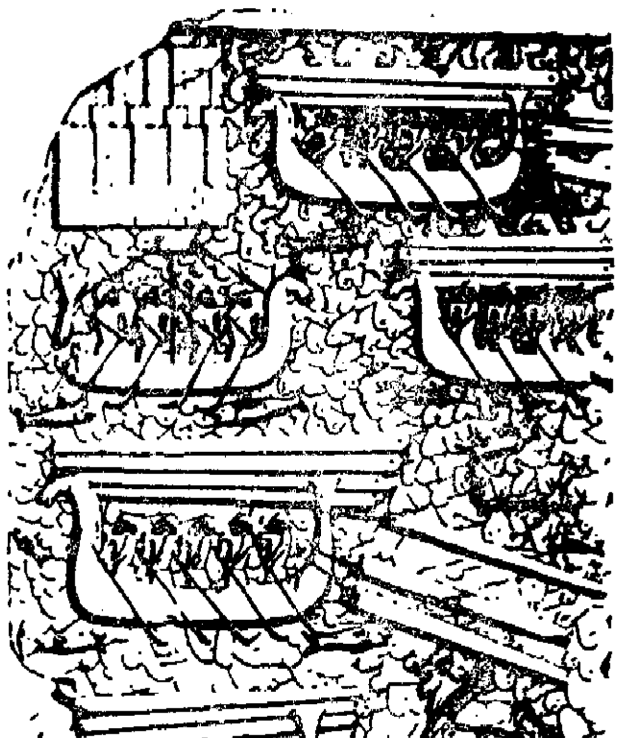




قوارب من القصب استخدمها جنود الجيش الاشوري
في حروبهم في مناطق جنوب العراق من تفاصيل منحوتة من نينوى







من تفاصيل منحوتة بارزة من قصـر سرجون الثاني في خرسـباد توضح اساليبا من نقل الاخشاب بالقوارب ٠
من الاصل المحفوظ في متحف اللوفر في باريس ويقرب ارتفاعها من ثلاثة امتار ٠

تأثير المعتقدات الدينية العراقية القديمة على الديانة الهلنتية

الاستاذ الدكتور واثق الصالحي
كلية الآداب ــ قسم الآثار
جامعة بغداد

تأثرت ديانة الاغريق خلال القرن الخامس ق٠م بعوامل مهمة أدت الى حدوث تغييرات جوهرية فيها ، ويعزو الباحثون سبب هذه التغييرات الى حركة السفسطائيين الفلسفيه التي احدثت حالة من التشكك في معظم المعتقدات المعروفة وخاصة تلك المتعلقه بعبادة الآلهة الاولمبيه والتي اكتنفها بعض الغموض خلال الفترة اللاحقة(١) ، اضافة الى تأثير الديانات الشرقية وخاصة العراقية القديمة ، التي بدأت تأخذ واقعا حقيقيا في معظم مدن الاغريق على الرغم من بعض المظاهر الخارجية التي تتضمن انبعاث آلهة جديدة وتنبوءات جديدة وما يرافقها من احتفالات من شأنها أن تقوي من محاولات البعث الديني في بلاد اليونان(٢) ، فالشخص الاغريقي اتبع تقاليد العبادة لأنها موروثة له من اسلافه ولكنه افتقد الى الحماس في معتقده الديني ، فعلى سبيل المثال أن معبد أبولو ــ أله الحكمة والمعرفة لدى الاغريق ــ في ديدما في آسيا الصغرى لم يكتمل بناؤه خلال أربعة قرون متعاقبة ليس بسبب نقص في الاموال اللازمه لاكمال عمارته وانما بسبب الافتقاد الى الحماس في تكريس المعتقدات الدينية الراسخه التي مكنت مدن الاغريق في فترات سابقة من اكمال معابدها الضخمة والجميلة خلال

جيل واحد فقط[٣] • وأصبحت عبادة الآلهة الاغريقية التقليدية ترافق بعض الافكار الفلسفية التجريدية مثل الصداقة والثروة والسلام والديمقراطية بالاضافة الى انتشار بعض الافكار التي تدعو الى أضمحلال التمييز بين الآلهة والبشر وما رافقها من اقامة محلات لتقديس الرجال البارزين الى الحد الذي دعى بعض الفلاسفه الى القول ان بمساعدة الرجال العقلاء نستطيع العيش مثل الآلهه[٤] •

وخلال هذه الفترة اخذت الحقائق الدينية التي تستند الى المعتقدات الدينية تتجه نحو الزوال ، على الرغم من أن الطقوس الدينية القديمة لازالت تقام من قبل بعض الأفراد اعتقاداً منهم وعن ايمان راسخ بأن مفرداتها يجب أن يحافظ عليها في حين كان يسود الشك في أعماق البعض الآخر في وجود تلك الآلهة وحتى انهم اقتربوا من الالحاد الديني[٥] • ولم يكن اقامة الشعائر والمواسم الطقوسية الدينية المألوفة تعني الشيء الكثير لعدد كبير من المتعبدين ، بل أن غالبيتهم اهتموا فقط بالحرص على اقامتها في حين تبنى اغريق آخرين عبادة آلهة شرقية متأثرين بمعتقدات الجاليات الاجنبية الصغيرة التي استوطنت مدن الاغريق والتي استمرت بعبادة آلهتها الخاصة ولكنها نادراً ما مارست الطقوس الخاصة بعبادة الآلهة الاغريقية المعروفة[٦] •

تلك هي معتقدات الاغريق في الفترة التي سبقت غزو الاسكندر المقدوني للشرق في الثلث الاخير من القرن الرابع ق•م ومن نتائجه سيطرته على بلدان العالم القديم في آسيا وافريقيا ، وقد برزت عندئذ المعتقدات

الدينية بشكل واضح وبدت في مظاهرها متناقضة نوعما خاصة بعد تأسيس دول جديدة ومدن جديدة وماتبعه من تأثير شعوب تلك المناطق ذات المعتقدات الدينية العريقة والمختلفة فقد بدأت بدلالات التجمعات السلطانية الاغريقية تتأثر بشكل مباشر وتتبنى عبادة طقوس خاصة تتعلق تبأليه الحكام التي تعزى الى اسباب سياسة بحتة • الا أن من الملائم ولغرض فهم تلك التغييرات أن نرسم الفروقات بين التطورات الدينية التي حدثت بدوافع سياسيه وبحافز من السلطة والملك أو الحكومة وبين الطقوس والعبادات الدينية التي تبناها الافراد برغبتهم المطلقة وبحرية تامة لأنها بدت لهم أنها تلبي حاجة أصيلة لديهم ولغرض شخصي وثيق الصلة بحياتهم وشخصيتهم الفردية • فالملوك الجدد الذين اعقبوا الاسكندر المقدوني كانوا الى حد ما مغتصبي السلطة ، لهذا فقد أخذوا يبحثون عن سند وأساس ديني في جعل سلطاتهم قانونية ولتعزيز ادعاءاتهم للحكم ، لذلك ظهرت بعض السمات الخاصة المتعلقة بالمعتقدات الدينية للأسر الحاكمة الجديدة من ضمنها تبني عبادة اله حامي معين ، وكان من الضروري جداً ان يكون هذا الاله من ضمن مجموعة الآلهة الاولمبيه لأنهم مابرحوا يعتقدون بقدسية آلهتهم التي نشأوا على عباداتها وتقديسها وأقاموا شعائرها التقليدية العريقة • فعلى سبيل المثال ، ادعت الاسرة الحاكمة في مقدونيا انحدارها من الاله هرقل ونقشوا صورته وبعض معطياته وخاصة الهراوة على نقودهم الرسمية لتصبح رمزاً لحكمهم(٧) بينما وجد الحكام السلوقيون في العراق والشام ضالتهم المنشورة في ابولو واعتبروه الههم الخاص الحامي واشتهر سلوقس نفسه بنسبه اليه وانه

كان ابنه وحمل بنفسه رمزه وهو المرساة ، التي كانت منقوشة على فخذه على أنها علامة ولادية[٨] . وقد قبل السكان الاغريق ذلـــك الادعاء حيث نصت كتابة تذكارية مهمة نقشت على شرف سلوقس نفسه على منح الحاكم الجديد امتيازات عديدة من ضمنها الاشراف على مذبح يقـــوم الرياضيون المتنافسون بتقديم القرابين الجسدية في كل سنة ، اضافة الى تسمية أحد أشهر السنة باسمه واقامة احتفالات ملكية كـل اربـــع سنوات تتضمن مسابقات في الموسيقى والفروسية والرياضة وجميعها تكون تحت رعايـة الالهأبولو « الجد الاعلى للسلالة الحاكمـة »[٩] . وارتبط ادعـــاء الحكام الهلنستين بآلهة خاصة مع التقاليد العراقية الموروثة بتقديس الحاكم وهي في الاصل تدعو الى عبادة السلف ثم تطورت الى عبادة وتقديس الملكفـي حياته واعتبارة الهاً[١٠] . وقد وجدت هـذه الممارســة الطقوسية والعبادة ارضاً ملائمة خصبه في معظم مدن الاغريق واستغل الحكام الهلنستين هذه الظاهرة وما تقدمه من فوائد ومكاسب شخصية سياسية واقتصاديـة . وكان تطور هذه الممارسة بطيئا وغـير منظما في البلاط السلوقـــي حيـث استغرق فترة طويلة كانت المدن الاغريقية تجد المحفز والدافع المبرر لاعمال التكريس والتقديس للحاكم . وقد أخذت مراحل عدة طريقها في عمليـة التطور لهذا المفهوم الديني الجديد ، وسبق ان ذكرنا ، الادعاء الخاص بسلوقس ، فالقانون الذي صدر في عام ٢٨١ ق.م والذي به تـم الاعتراف بسلوقس حفيداً للاله أبولو يقترب في نصوصه ومفرداتة ومضامينه فـــي معطيات سمو الشرف الالهي . وقد اعلن ابنه انطيوخوس الاول أن والده أصبح في مصاف الآلهة واضفى عليه لقب سلوقس « المنتصر » وهو احدى القاب الآلهه[١١] في حـين يعتبر انطيوخوس الثالـث (٢٢٣ – ١٨٧)ق.م

أول ملك سلوقي يؤسس معبداً رسمياً لتقديس نفسه ولأسلافه ، كما تشير بذلك رسالة يعود تأريخها الى عام ١٩٣/١٩٢ ق٠م كتبت بخط يده الى حاكم اقليم كاريا حيث يعين بموجبها كاهنه لمعبد زوجته(١٢) ٠

ان الدلائل التأريخية والدينية لاتلقي الضوء الكافي لمعرفة الأهمية الحقيقية لظاهرة تقديس الحاكم أو حتى تحديد جوهرها بتلك السهولة لأنها تنطوي على جوانب سياسيه ذات مكنونات متعددة كما وان لها عبادة وطقوس خاصة ٠ وكانت غالباً ما تميز الحالة الملكية وتدعم في نفس الوقت قوة وشرعية حكم ذلك الملك وسلالته ، وان معظم التطورات الدينية الجديدة كانت استجابة للتغييرات في المواقف الشخصية والى الحالات الاجتماعية الجديدة ٠ ومع اضمحلال قوة دولة المدينة بدأ تدهور واضح يطرأ على ثقة الافراد في عباداتهم التقليدية واهتمام متزايد في الديانات الصوفيه التي تضمنت القيام بمحافل سرية من شأنها التعهد بانقاذ الأشخاص ونجد في المراسيم الاحتفالية في اليوسس وفي جزيرة ثاموثريس ايرز امثلة لتلك الممارسات ، وخلال العصر الهلنستي قيت في جوهرها اغريقية وتزايدت شعبية البعض منها مثل (طقوس دايونيسوس)(١٣) ٠ وتوضحت الحرية الشخصية للفرد الاغريقي في تلك المحافل أو الجمعيات الخاصة بعد عام ٣٠٠ ق٠م ، ومن خلالها ، اي في القنوات الاعتيادية ، دخلت العبادة الشرقية وخاصة العراقية الى كل مدينة اغريقية أو جالية اجنبية صغيرة كانت قد استوطنت حيث تجمعت في نادي أو جمعية لعبادة الههم الخاص ، ومن المحتمل جداً ، أن الاغريق أنفسهم انضموا الى تلك الجمعيات(١٤) ٠ والميل نحو الالهام الصوفي والمبادىء غير المنطقية كانت صفة ملازمة لممارسات

تلك الجمعيات التي تأثرت الى حد ما ببعض الطقوس الاغريقيه المعروفه ، ومن المناسب أن تتوضح ، على سبيل المثال ، في معبد اسكبيوس في ابيداريوس حيث يسعى الفرد الى الشفاء الاعجازي أو الخارق من الامراض وقد أثرت تلك المعتقدات في افكار المتعبدين الذين قضوا الليالي نائمين في المعبد سعياً وراء الشفاء ، وتؤكد الدلائل الكتابية التي وجدت منقوشة على الجدران والكتابات الدعائية التذكارية الاخرى على أن هذه الممارسات وصلت الى ذروتها خلال الفترة الهلنستيه اضافة الى ما تقدمه انواع القرابين والنذور من دلائل من شأنها تعزيز تلك الاستنتاجات(١٥) ٠

وتبنت بلاد الاغريق نفسها عبادة الآلهة الشرقية في حين قلما عبدت عبدت الشعوب الشرقيـة آلهـة اغريقية ، فمثلا ، مدينـة دورايوروبس استقبلت بحرية آلهة عراقية قديمة وخاصة البابلية منها(١٦) في حين لـم يدخل أله اغريقي الى مدينة الوركاء(١٧) ٠ وأخذت الآلهة الشرقية والعراقية بشكل خاص ، في بعض الاحيان ، أسماء الآلهـة الاغريقية ولكـن دون معطياتها لأنها كانت ، في معتقداتهم ، الاقوى ٠ وهذه الظاهرة أدت بالتالي الى فشل الغزو الاغريقي لآسيا لأن البلدان الشرقية قد وضعت في مجالهـا الديني مقياسا واضحا عبر الاغريقي عن ضعفه في مواجهته وان ماقدمـه الاغريق الى البلدان الشرقية هي جوانب معينة من العلم والفلسفه والتـي كانت مقتصرة في حد ذاتها على القلة القليلة من الأفراد وليس الى الجماهير الواسعة ٠ وقد مثلت الالوهيه بواسطة نمو الفكـر التجريدي وهـو ميل يمكن أن يتتبع خلال القرن الرابع وان الهـة الحظ

كانت تمثل نوعاً بارزاً من الفكر التجريدي ، وقد انتشرت عبادتها في العالم الهلنستي ولعبت دوراً مهماً في ديانة ومعتقدات هذه المنطقة وخاصة فـي حياة البشر الذين اهتموا بها بشكل خاص وانها كانت في الواقع تعبر عن مبدأ هلنستي بحت(١٨) . وانها لم تكن الحظ الاعمى ولكنها كانـت تمثل بعض العلاقات التي لايمكن فهمها من قبل البشر حيث أن الهة الحظ نفسها هي التي جعلت من بعض قواد الاسكندر ، حكاماً ناجحين مسيطرين عـلى اقاليم واسعة وانها قادت البعض الآخر الى القبر ولكنها لم تكن الهة قاسية غير عطوفة أو بدون رحمة أو شفقة ولم تحرم الرجال من الامل في الاعتقاد بأن « اليوم لك ولكن الغد لي » وكان لكل رجل خطة حيث انها كانـت تمثل روحه الفرديـة وفي كثير مـن الاحيان كانـت تجسد شـخصيته الفرديـة(١٩) .

واهتمت الطبقة المثقفة بالعلم والفلسفة والثقافة بدلا عـن المعتقدات الدينية ولكنها لم تؤثر على عقلية الفرد الاعتيادي الذي ايقن أن عليـه أن يعبد شيئا ما وبما ان الآلهة الاولمبية قـد بدأت تضمحل ، بدأ شعور ديني حقيقي بالتطور واصبحت العبادة العراقية والشرقية تسيطر تدريجياً على نفسية المواطن ، ولهذا يعتقد بعض الباحثين بأن غزاة الشرق أنفسهم قد وقعوا فعلا أسرى الديانة الشرقية(٢٠) ، وعلى الرغم من أنها لم تصـل ذروتها الا بعد الفترة المسيحية لكنها كانت تجمع قواها خلال هذا العصـر بتأثيرات جاءت من بلاد وادي الرافدين وبلاد وادي النيل ، وتقديس الآلهة البابلية قد مارس تأثيراً محلياً اضافة الى انها غزت بـلاد اليونان نفسها

وباسمائها الحقيقية أو القريبة منها • وازدهرت تلك الديانات بقوة على الرغم من أنها ، في بعض الاحيان ، أخذت اغطية اغريقية ، فعلى سبيل المثال ، تكشف لنا النقوش التي ضربت على النقود وخاصة تلك التي يعود تأريخها الى العصر الروماني عن خليط أو مزج فريد من العبادات والديانات المتعاصرة وكان أهم وأعظم الآلهة هو حداد أو أدد اله المطر والخصب والرعد في معتقدات وادي الرافدين والذي استوعب عدداً من الآلهة المحلية التي عبدت تحت اسم بعل وانه تطابق مع زوس ، كبير آلهة الاغريق(٢١) ورفيقته كانت اتركاتس ، التي هي في اصولها ومعطياتها وصفاتها الآلهة عشتار البابلية التي تطورت وأصبحت في بعض الاحيان حامية المدينة ، وقد عقد عليها الملك السلوقي أنطيوخوس زواجاً وأصبحت الهة معظمة ذات قوة ونفوذ كبيرين(٢٢) • ولكن العطاء البابلي كان في عبادة الكواكب والتى يطلق عليها « علم الفلك » حيث أن جذورها تمتد بعيداً في وادي الرافدين ثم تطورت الى اسلوب ناجح حيث اتضح لهم بأن النجوم والكواكب انما كانت تتحرك في السماء حسب قوانين ثابتة •

يتوضح لنا ان لبلاد وادي الرافدين تأثيرا كبيرا على تشكيل الديانة الهلنستية بهذه الصورة ولكن الادلة الآثارية والكتابية عن هذه الفترة قليلة ونادرة لاتكفي لرسم صورة متكاملة ، ومن أهم المكتشفات الآثارية ، معبد صغير في تل النبي يونس في مدينة نينوى ، حيث يبدو أنه كان جزءاً من مستوطن أوسع ولكن معاول المنقبين لم تمتد اليه • وقد تألف هذا المعبد من خلوة ذات أرضية مرتفعه يوصل اليها من خلال درجات قليلة

من مقدمة خلوة تقع أمامها(٢٣) • وعلى احد جانبي الخلوة توجد باب تؤدي الى غرفة جانبيه صغيرة ذات جيوب شيدت من اللبن وقد عثر فوق ارضيتها على آثار تؤرخ الى العصر الهلنستي استناداً الى مقارنتها مع آثار مماثلة عثر عليها في الادوار الاولى في مدينة سلوقية ـ على ـ نهر ـ دجلة • وهذا المعبد الصغير يشبه في تخطيطه المعابد الآشورية والبابلية الأقدم عهداً• واحتوت خلوة المعبد على دكة ، خصص قسم منها لوضع تمثال الاله هرمز الذي عثر عليه خلال التنقيبات والجزء الآخر منه احتوى على بقايا آثار حرق مما يدل على أنه استخدم لحرق البخور وهناك منصه اخرى ، من المحتمل انها استخدمت لوضع الهدايا والنذور المقدمة الى الـه المعبد(٢٤) واعتبر هرمز رسول زوس كبير آلهة الاغريق فلذلك يظهر وهو يحمل زوج من الاجنحة فوق رأسه وزوج آخر فوق نعله وفي بعض الاحيان يظهر جناحان آخران فوق عصاته السحرية • ومن صفاته التي اشتهر بها في المشرق الهلنستي انه كان حامي التجارة والهها الخاص وهو الذي يسبغ حمايته على التجار أيضاً • وتشير الدلائل الآثارية والكتابية الى أنه ، في بعض الاحيان ، أخذ بعض صفات أبولو ـ اله الحكمة والمعرفة في الاساطير الاغريقية وأعمها مخترع الكتابة وهي صفة مهمة لأبولو والتي تطابق بها مع نابو نظيره العراقي القديم الذي عبده العراقيون القدماء بصفته مخترع الكتابة وهو الذي يمسك بالقلم ، وهذا التطابق هو نتيجة طبيعية لتأثير الديانات الشرقية على المعتقدات الدينية الاغريقية • ومن الادلة الاخرى التي يعود تاريخها الى هذه الحقبة الزمنية هي بعض المزارات الصغيرة التي عثر عليها خارج المعبد الكبير في مدينة الحضر والتي مرت بأدوار زمنية ،

يعتقد بأن أدوارها الاولى يعود تاريخها الى الفترة الهلنستية ، حيث كانت تتألف من مقدمة خلوة أو مصلى مستطيل الشكل وخلوة ، وهـــي عبارة عن كوة في الجدار المقابل للمدخل ، يوضع فيها تمثال لاله المعبد أو المزار. ومن أهم هذه المعابد الصغيرة ضمن الفترة الزمنية ، هو الدور الاول للمعبد الثامن الذي من المحتمل انه كان مخصصاً لعبادة الكواكـب السيارة حيث عثر فيه على تماثيل صغيرة تمثل الشمس والقمـــر والكواكـــب الخمسة الاخرى وهي المريخ والمشتري وزحل والزهرة وعطارد ، وكلها تدل على التأثيرات الدينية العراقية القديمة وخاصة تلك التي تتعلق بدراسة علـم الفلك(٢٥) .

وتم العثور على العديد من الدمى الفخارية في بعض معابـــد مدينـة سلوقية على دجلة وقد عملت حسب الأسلوب الاغريقي اضافة الى الاسلوب الشرقي وهي تمثل مجموعة متنوعة من الآلهة وكانت قد قدمت للمعابـــد بشكل نذور دينية رخيصة تعبيراً عن المعتقد الديني . ومـــن أبرز أمثلة الازدهار الديني للمعتقدات العراقية القديمة هـــي الاستمرار في تدريس التراتيل السومرية في مراكز العبادة اضافـة الى أن الديانـــة والطقوس البابلية والآشورية قد استمرت وكان لها تأثيرا في معتقدات سكان المناطق الآشوريين فأن طبقة الكهنة حافظت على سيطرتها الثقافية . وهذه الدمى واسعة بعيداً عن مناطقها وعلى الرغم من الانحسار السياســـي للبابليين تحمل بعض صفات العصر الا أنها تعتبر استمراراً للتراث القديم ومـــن أهم أنواعها هي تلك التي تصور المرأة العارية ، حيث أصبحت موضوعـاً

للمناقشة وأبدى العديد من المختصين آرائهم فيها ، وحصيلتها هي انها أما تمثل الالهة عشتار نفسها بصفتها الهة الخصب أو كاهناتها ، اي أنها لاتبتعد عن المغزى الديني وانما كانت هدايا نذريه وقطع دينية للتعبد في البيوت والتي كان لها قيمة رمزية وطلسميه لمالكها[٢٦] . وتطابقت عشتار مع أفروديت الهة الحب الاغريقية وانتشرت عبادتها انتشارا كبير استنادا الى العثور على نماذج لتماثيلها في وادي الرافدين والصحراء السورية وهي تشير بذلك الى شعبيتها خلال هذا العصر[٢٧] . وتقسم هذه الدمى الى نوعين ، النوع الأول انجز وهو يحمل تأثيرا واضحا للاسلوب الاغريقي في حين يتميز النوع الثاني بصفات شرقية ولكن معظمها يرجع الى أصناف اغريقية معروفة وقسم منها يمثل أفروديت وعثر على بعض دمى وقد عملت تفاصيلها بشكل رمزي تخطيطي لنساء عاريات أو نصف عاريات وهي تظهر تأثيرا شرقيا قديما ، وهذا مايدعو الى الدهشة والاستغراب الى وجود هذه الدمى في مدينة تأسست في العصر الهلنستي[٢٨] .

هذه بعض الاشارات المهمة عن تأثير المعتقدات العراقية القديمة على الديانة الهلنستيه والتي يتضح من من خلالها استمرار وتواصل تلك المعتقدات حتى الى فترات لاحقه .

الهوامش

(١)
W.W. Tarn, Hellenistic Civilization, Cleveland, 1943, P. 337

(٢) F.W. Walbank, The Hellenistic World glasgow, 1981, P. 208

(٣) Tarn, P.337

(٤) Aristotle, Nicomachean ethics, 1177b - 8d

(٥) Walbank ' P. 209

(٦) Tarn ' P. 338

(٧) Livy ' xxxll ' 22 ' ll

(٨) Justinus, xvl ' 4,2

(٩) Oqls ' 212

(١٠) فوزي رشيد ، «الديانة ، المعتقدات الدينية» حضارة العـــراق ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص١٨٢ ــ ١٨٤ .

(١١) E.R. Dodds, The greeks and the Irrational P. 276

(١٢) Walbank ' P. 216

(١٣) Walbank ' P. 218

(١٤) Tarn ' P. 338

(١٥) Walbank ' 218

(١٦) Susan Downey , The Stone and Plaster Scueture , Excavations at Dura - Europus, Los Angles , 1977

(١٧) Tarn , P. 337

(١٨) History of Polybius . xxix , 21 , 1 - 9

(١٩) ibid

(٢٠) F. Cumont, Les religions Orientales, 1929

(٢١) A.B. Cook, Zeus, P. 217 219

(٢٢) لوقيانوس ـ الالهة السوريـة .

(٢٣) محمد علي مصطفى «اكتشاف تمثال الاله هرمز في نينوى» سومر ، ١٠ (١٩٥٤) ص٢٨٠ ـ ٢٨٣

(٢٤) Davd Oates, Studies in the History of Northern Iraq, London, 1968, P.61

(٢٥) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر ، مدينة الشمس ، بغداد، ١٩٧٤ ، ص٣٦٠ .

(٢٦) صبحي أنور رشيد «كتب جديدة ـ دمـــى من آشور في متحف الشرق الادنى في برلين» سومر ، ٣٧ (١٩٨١) ص٢٥٣ ـ ٢٥٨ .

(٢٧) وائق الصالحي «أفروديت عبر التاريخ» مجلة آفاق عربيـة السنة العاشرة ، كانون الاول ، ١٩٨٥ ، ص٦٦ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص٦٧ .

القربـان مفهومـه دلالته في العصر السومري

د· خليل سعيد عبدالقادر
كلية التربية للبنات

القرابين هبات او تقدمات من مختلف المواد او تضحيات تقدم فـــي مناسبات معينة او دورية شهرية او سنوية دينية او غير دينية ، تقـــدم للالهه او للاسياد من الملوك والامراء ، وحتى لهؤلاء الملوك الذيـــن تالهوا وللامـــوات ···· الـخ ·

وتدخل القرابين ضمن العبادات والشعائر التـي كان يقيمها سكان وادي الرافدين والتي منها المناسك والمراسيم الدينية المختلفة الاخـــرى كالصلاة او الاعياد الدينية(١) · لقد كان الفـــرد مجبراً اجتماعيا ودينياً على تقديمها ، طالما كـــان حبيس قيـــود فرضتها طبيعة الحياة الدينيـــة والاجتماعية · لذلك فقد أصبحت القرابين تقليد متوارث ، شأنها شأن بقية الشعائر الاخرى ، فرضت على كافة افراد المجتمع وحتى الكهنة منهم ، حيث كانوا مجبرين على تقديمها لتبرئة مايتعلق بذممهم ·

لقد أمدتنا النصوص المسمارية بلفظتين للقربان :ـ (مستدرية و (نك ـ كشي ـ تا ـ كا "Nig-gis-tag-ga

وقد اختلفت اراء المختصين في العلوم الاشورية في اعطاء المعنـى الدقيـــق والموحد لكل منهمـــا ·

ففي الوقت الذي اشار فيه « جينولاك N?de. Ee honllae

الى ان كل من اللفظتين كانت تحمل معنى القربان والذي معناه (العشر dime)[٢] ـ وهو يتفق مع راي (جان Jean) عندما اشار الى ان اللفظتين مترادفتين[٣] ـ نجد ان (لاندسبيرجر B. Landsberger) يشير الى ان القربان يمكن ادخاله ضمن الكلمة المركبة الاتية :ـ (schlacheoplerabfabe) والتي تحمل معنى (القربان المضحى)[٤] معتمدا في ذلك على نص جاء بشكل استمارة سجل فيها كل الوثائق المتعلقه بالتضحيات المقدمة والتي حملت اسم (نك ـ كش ـ تا ـ كا) ٠ والتي حملت اسم (المشدريه) ٠ وهذا يعني ان الاقوام السومرية لم يكن في تصورهم التمييز بين اللفظتين ٠

اما (دايمل - A Deimel) فمن خلال تحليله لعدد من الكلمات اسومرية والتي من بينها (المشدريه) توصل الى ان لفظة المشدرية تحمل معنى (الهبة او التقدمه) وترجمها بالكلمة Festaben في البحث الذي نشره بعنوان (الهبات الدينية (Religiose Abgaben)

ويعتقد ان هذه الترجمة التي اعطاها لمعنى القربان غير مقنعة ٠ فقد ناقشت (روزتكارتين)(٦) ذلك وتوصلت الى ان القرابين لايمكن ان تحمل معنى (الهبة او التقدمه) لانها لاتقدم دائما بمناسبة الاعياد ٠ هذا اضافة الى ان التقدمات للامراء والملوك ليست دائما واجبا دينيا ، ولو انها كانت تقدم في عيد ديني ٠ كما انها كانت تقدم في مناسبات غير دينية ، وجاء مايماثل ذلك في مجموعة من النصوص منها ماتشير الى انها قدمت بمناسبة ولادة احدى بنات (برنمتارا) او مجيء الباتيسي الى قصر الاميرة[٧]

اما (شولتز - (Ccholtz)) فقد اقترح ترجمة جديدة للقربان

المعروف باسم (مشدرية) ، عندما اعطاها معنى (الهبات الواجبة) مستشفاً ذلك من خلال الدراسة النحوية التي اجراها(٨) والملاحظ انه لايمكن اعطاء صفة (اتاوة او ضريبة (Redeuance)) ولعل هذا هو الذي دفع رجستين RJestin) ، اعطاء صفة (التقدمة او الهبة "Present ' doffrande" للقربان(٩) وبذلك يكون قد اتفق مع (لامير M Lamert) ، عندما اعطى للمشدرية معنى « البخشيش Bakschich » او الهدية Cadeanx «(١٠)

ويشير (لاندسبيرجر) من خلال النصوص التي اطلع عليها والتي وردت فيها عبارة (سلة الالواح)

الى ان القرابين التي تقدم كانت تدخل في سجل حسابات خاص يمثل جداول شهرية او سنوية ، تقدم للقصر باعتباره المشرف المالي الاول • فاذا كان القربان موا • (حيوانا) ، فانه لم يضحى به وقت تقديمه بل يدخل الى الحضيرة المخصصة لذلك والتي يشرف عليها رجل يعرف باسم (ان — كوج) الذي كان بمثابة وكيل اعمال الامير ، او القصر ، حيث باشرافه تنظم قسيمة لهذه الضحية ثم بعد ذلك تقدم للتضحية ، حيث يأخذ الحيوان الى اماكن الذبح بأشراف ال (سوكال) ، وهو المبعوث الذي يأخذ الحيوان الى اماكن الذبح •

اي ان الضحية عملت لها عملية ادخال وأخراج على ان من الحيوانات ما كانت تمكث كثيرا ريثما يأتي دورها وحاجتها للتضحية • ولذلك فالحضيرة كانت اشبه بمخازن خزن المواد العينية التي تقدم كقرابين ، وخاصة تلك التي غير قابلة للتلف او التفسخ • ومايشير الى ذلك ورود

بعض اسماء مسؤولي المخازن في النصوص مثل (رئيس مخزن المـــواد الدهنية والذي كان يعرف بـ

واخر عرف باسم « وكيل الاعمال » ... كما ان هناك موظفـين اخريـــن يشرفون على عملية الخزن(١١) .

والجدير بالذكر ان القرابين كانت اما بهيئة اطعمة كالطحين ، النشاء ، الزيت ، عصير العنب ... وتقدم عادة كأطعمة للالهه . او تكـــون بهيئة سوائل تعرف بـ (السوائل المقدسة) تسكب بطريقة خاصة للقبور(١٢) .

وتقدم القرابين عادة لنيل رضا الالهه ، لان معطياة الحياة وما يرافق ذلك من نكبات وشرور تعود للالهة . لذلك وانطلاقاً من مبدأ عجز الانسان وشعوره في عدم تمكنه من تحقيق التوافق بين عالمه الداخلـــي (النفسي) وعالمه الخارجي (المجتمع) لتحقيق ما تصبو اليه النفس قد خلق فيه الحس الذاتي بالالوهة ، فانبعثت فيه الحيوية الدينية ، لانـــه ادرك ان الفعـــل الالهي في كل شيء في سماء الاله انو ، انليل وايا ، او في ارض انكي . وهذا هو الذي جعل الانسان ان يكون عبدا لها ، يقدم القرابين ويرفـــع لها الصلوات والتراتيل ، ومن هذا الشعور انطلق الانسان قائلا :ــ

« الخوف من الالهه ، مدعاة للعطف والقرابين تطيل العمر .... »

لهذا فقد اعتبرت القرابين من صنف العبادات والشعائـــر الخاصـــة(١٣) بتحقيق امل الفرد وحاجاته كازالة الامراض ودرىء خطر الشياطين والارواح وابعاد الشرور والنكبات .... الخ . لهذا فهـــي تشكل عنصـــرا رئيسياً في كل الشعائر(١٤) بل وكانت الغاية الاساسية التي مـــن اجلها خلـــق الانسان . ويتضح ذلك من النص الذي جاء في ملحمة كلكامش الخليقـــة

البابلية/اللوح السادس ، على لسان الاله مردوخ بعد ان انتصر على تيامه حيث قــال :ــ

« اريد صنع شبكة دم وهيكل عظمي[١٥] وخلق كائن حي يكون اسمه الانسان ، ليكتفي بخدمة الالهه ولتعش بسلام »[١٦] •

ولعل هذا هو الذي اضفى على القرابين طابعها الدينـــي ، واصبحت التزاما معروفاً على مر السنين • لان عــدم تقديمها معناه معصاة للالهـــة وتقصير في حقها •

والقرابين ثلاثة انواع :ــ ١ ــ قرابــين تقــدم عــلى ارواح الموتـــى

٢ ــ قرابين تقدم على شرف الامراء والملوك والعظماء

٣ ــ قرابين تقدم بمناسبة الاعياد

قرابين الامــوات •••••

جرى العرف الاجتماعي في وادي ان تقدم القرابين على ارواح الموتى من عامة الناس او من الشخصيات وعظماء البلد ••••• فقد جاء في نص : (اموات عظام ، قرابينهم توجد هنا ••• ونصها

(En - en - ne - ne - masdaria - a bi ..... e - du gal [١٧]

لقد اكتسبت قرابين الاموات أهميتها منذ عصر ســلالة اور الاولى • حيث كـــان السومريون لاينسون اطعـــام الميــت • فيشــير (جـــان) ، الى ان الاموات ــ حسب التصور السومري ــ كانت ناقصه، وانهم في محيط ذو رفقاء لطفاء ــ حسب تصورهم[١٨]

وكانت القرابين تقدم ــ كما تشير النصوص المسمارية ــ وفق طقوس ومراسيم خاصة ، وفي مكان خاص • فقد ورد في بعض النصوص بـــان

القرابين كانت تقدم في مكان يعرف باسم (اورو ــ كار)
وفي نص أخر يعرف باسم (كي ــ آ ــ ناك) [١٩]
كما ورد في بعض النصوص ان القرابين كانت تقدم للموتى عن طريـــق وضعها امام تماثيلهم في المعابد (هذا بالنسبة للملوك والامــراء ....) • فقد جاء في نص يعود لسرجون الاكدي ذكر باسماء القرابين التي قدمها الى تمثال الملك السومري (أنتمينا) • كما وجـــدت اشارة اخــرى تشير الى القرابين المقدمة الى تمثال الملك (جوديا) الذي كانت تقام لـــه الصلوات والادعية • كما قدمت الى تمثال الملك سرجون الاكدي بعد وفاته[٢٠] هناك نصوص أخرى تعود الى عصر سلالة اور الثالثة تشير الى قرابين قدمت الى تماثيل الملوك بعد وفاتهم[٢١] •

ان تقديم القرابين امام التماثيل الملكية الموضوعة في المعابـد لاتعنـي ان ذلك العاهل كان يتوخى من وراءها ضمان العبادة لنفسه ، لان التمثال قد حددت مهمته ، حيث تتمثل بترديد الصلوات الخاصة بالالهة والتي كان الملك يقوم بترديدها باستمرار وبدون توقف • كما ان الغرض منها ايضا كان يتمثل باسناد حياة التمثال بشكل دائم من اجـــل ان يذكر الالـــه بترديده للصلوات حتى بعد وفاته •

وقد بلغت من أهمية القرابين هذه درجة ان الملك كوديـا ــ مثلا ــ قد كتب على احد تماثيله : (ان العاهل اللاحق الذي يستبعد القرابـــين ويعرقل قرارات (ننجرســو) ، لتستعبد قرابينه وتعرقـــل قراراتـــه • ويشير (فرانكفورت) الى ان عادة تقديـــم القرابين الى التماثيل الملكيـة

لاتتضمن التأليه ، باي حال ، خاصة وان التماثيل كانت تمثل دور الوسيط بين الملك والاله ، فهي اشبه بالالهه الحامية(٢٢)

هناك بعض النصوص تشير الى ان القرابين كانت تقدم مباشرة بواسطة الموتى • حيث يأخذ الميت معه بعض الهدايا الى العالم الاسفل • فتروي لنا الاسطورة السومرية المعنونة د (موت كلكامش) • ان كلكامش كان قد قدم عند نزوله الى عالم الاموات الهدايا التي اصطحبها معه الى بعض الالهه منها : الآهه ارشكيكال ملكه مملكة الاموات والى (نمتار) وزير الالهة ارشكيكال والمنفذ لاوامرها ، كما قدم خبزا الى (نيتي) رئيس • حراس ابواب العالم الاسفل وهو يقوم ابلاغ القادمين الى العالم الاسفل للالهه ارشكيكال ، والى تموزى وبعض الموتى ••••(٢٣)

كما ان الملك السومري (اورنمو) كان قد قدم بعد موته مجموعة من الهدايا الى الهة العالم الاسفل السبعه ، فذبح الثيران والاغنام للموتى من الشخصيات العظيمة • كما قدم الحقائب والاسلحة والثياب والحلي والمجوهرات الى بعض الموتى ومن بينهم كلكامش كل في قصره الذي يقيم فيه في هذا العالم(٢٤) • ومن الواضح مثل هذه القرابين كانت تدفن مع الموتى في اضريحتهم •

لقد تصور سكان وادي الرافدين ان انقطاع القرابين او عدم تقديمها سوف يؤدي الى احد الامرين : اما ان يبقى الموتى في العالم معتمدة في طعامها على الطين كما جاء في اسطورة نزول عشتار الى العالم الاسفل(٢٥) •

« نحو الطريق الذي من سلكه لاعودة منه نحو المسكن الذى حرم ساكنوه من النور حيث التراب يشبع جوعهم والطين خبزهم »

او تخرج منه الى عالم الاحياء غاضبة منزعجة ، تأكل مـن فضـــلات الشوارع وتتربص للاحياء لألحاق الاذى بهم • وهذا يتضح من تهديد اننا/ عشتار في قصة (كلكامش وشجرة الحياة أو /اننا والثور السماوى) عندما طلبت من اباها (انو) ، ثورا سماويا لمنازلة كلكامش وهددته قائلة اذ لـم يحقق طلبهـا :

(اذا لم تعطني الثور السماوي فلأحطمن باب العالم الاسفل وأفتحـه على مصراعيه وادع الموتى يقومون فيأكلون كالاحياء(٢٦) •

وفحوى التهديد ان مشاركة الاحياء في العظام تحل المجاعة في الارض ويحرم حتى الالهة من الطعام ، وهي اشارة غير مباشرة باعتقادهم بالطبيعة الثائره للارواح ، عند خروجها من عالمها – عالم الاسفل •

هناك نوع من القرابين تقدم على شرف الامراء في حياتهم وبعد مماتهم• وهذا النوع من القرابين عرف باللفظة السومرية (مشدريه) ، وكان يقدم في المناسبات الدينية والاعياد العامـــة كعيد (شي ـ كـو) وعيد (بولو ـ كو •) للالهـــه نانشه وعيـد بـا ـ أو (٢٧) • هناك نصبين يعود الاول ولى (لوكال ـ بندا) احد ملوك سلالة لجش في عصر فجر السلالات الثالث ل (اوركاجينا) احد ملوك هذه السلالة ايضا مؤرخ بالسنة الثالثة مـــن حكمه ، يشيران الى القرابين المقدمه على شرف كل منهما في احدى المناسبات • ويعتقد ان مثل هـــذه القرابين كانت تقدم بشكل دورى ووفق طقوس خاصـه ، اثناء الاحتفالات التي تقام شهريا او سنويا ، او بمناسبة الاعياد الدينية(٢٨) •

هناك قرابين تقدم اثناء العبادات والمهرجانات العامـة التـــي تقام

بمناسبة الاعياد ، كعيد (اكيتو) الصيد السنوي عند البابليين • وكان هذا العيد قد أصبح عيدا سنويا يمجد فيه الاله مردوخ منذ ان عظم شان مدينة بابل في زمن سلالة بابل الاولى في فترة حكم حمورابي(٢٩) • وقد تناول (د• فاضل عبدالواحد) هـذا العيد باسهاب ، وأشار الى ان الاحتفالات فيه كانت تستمر مدة احد عشره يوماً من شهر نيسان • وانه كان معروفاً في مدينة اور في الفترة التي سبقت السلالة الاكدية • ثم يشير الى ان هذا العيد كان مناسبة لترفع فيه التراتيل وتقام الصلوات وتنحر الاضاحي(٣٠) • وفي لحبش في العصر السومري الاول ، كان هـذا العيد مناسبة تمجد فيه الالهه (بـا ـ بـا) لمدة ثلاثـة ايام ، حيث تقام الاحتفالات وتقدم التضحيات للالهه ، كما كان هذا العيد مناسبة يحتفل فيها تمجيد الاله ننكرسو(٣١) • وتفسر لنا ملحمة كلكامش ماكان يقدم من قرابين كما جاء على لسان ((اوتونابشتم) نوح الطوفان اثناء بناء سفينته حيث قال :ــ (لقد نحرت ثيرانا عديدة ، وكنت اذبح لهم نعجة كـل يوم واقدم للعمال عصير العنب والنبيذ الاحمر والسمن والنبيذ الابيض ••• كنت اقدم ذلك بسخاء كما لو كانت من مياه نهر حتى انهم اقاموا احتفالاء كما لو كانوا يوم اكيتو •••)) (٣٢) •

الهـوامش

(١) ينظر البحث الذي نشره طه باقر في مجلة سومر/المجلد الثاني ١٩٤٦

(٢) Genoullac .H. de ; Tablettes Sumeriennes archaiques. Paris. 1909. LVI

(٣) Jean. charles - F ; La Religion Sumeriennes - Paris P.191 .

(٤) Landsberger . B ; Der Kuleische kalencler cler Babylonier und Assyrer . Leipzig . 1915 . P. 44. n. 1 .

(٥) Orientalia . 26 . P. 26

(٦) Rosengarten . yvnne ; Le Regime des offrandes dans La Societe Sumerienne . Pars. 1960 . P. 18

(٧) Nikolisky . M.v ; Documents de La collection Likhachev. 1908 . 157 . lv ' 209 ' 11 .

(٨) Scholtz . R. ; Die struktur der Sumerischen engeren Verbalprafixa 1934 . xxxlx . P. 89
Orientalia . 26 . P. 26

(٩) Jestin , Ri La Verbe Sumerlen ' Prefixes , Particules Verbales et noms Verbaux . Paris . 1946 . P.186
et Lamert.M; Le verb AK (cabint d'Assyriologie) college de france . Paris . 1955 . P. 229

(١٠) Revele d'Assyriologie Oriental . 1953 , 47 . P.63

(١١) Rosengarten . y, «Le concept Sumerlen de Consommation» dans La Vie economique et reliqieuse . Paris. 1959 . P. 395 .

(١٢) طه باقر : المصدر السابق

(١٣) Heidel . A. The Gilgamesh Epic and Testament Paralles .

(١٤) عليان (رشدى وسعدي الساموك) : الاديان – دراسـة تاريخيـة

مقارنة/القسم الاول الديات القديمة ۰ ۱۹۷٦ ۰ ص۷۱ ۰

(١٥) ان كلام مردوخ هذا يدل على انة الخالق الأعظم – حسب الفكـر البابلي – الا انه من الصعب انتزاع صفة (خالق الانسانية) عن الاله (أيا) ۰ لذا فانه يظل هو الخالق ، الا ان لاهوت (الايساكل) قـــد اصفى له مقدرة التفكير لخلق الانسان وعلاقته بالالهه ۰ وهذا يتضح من الابيات الاتية التي وردت في نفس اللوح :ـ

« بعدما خلق الاله (ايا) الانسانية وخصصهم لخدمة الالهة »

(١٦) Rene Labat ; La Relgion du Proche -orient asiatigue Paris . 1970 . P. 59 .

(١٧) Jean - charles - F ; Les Sumerlenne Religion Texts 1924 . P. 141 Thureou - Dangan ; in Revue d'Assyriologie et d'Archeologie Orientale ,20 , 1922 .

(١٨) Thureau - Dangn ; Recueil de Tablettes chaldeeenes (2e Serie) , Paris . 1903 , 59 . P. 111

(١٩) Rosengarten ; Le Regime des offrandes ... P. 25 .

(٢٠) Langdon , in Encyclopaedia of Religion and Ethics New york . 1958 . IV P. 445

(٢١) Leo Oppenheim , Ancient Mesopotamian . chicago 1964 . P. 120

كما ينظر النسخة المترجمـــة : ترجمـــة سعدى فيضي عبدالرزاق ۰ ص١٨٤ ۰

(٢٢) الطعان (د۰عبدالرضا) : الفكر السياسي في العراق القديم ۰ وزارة الثقافة والاعلام ۰ دار الرشيد للنشر ، ۱۹۸۱ ۰ ص٤٩٠

(٢٣) ساندرز ۰ ن ۰ ك : ملحمة كلكامش ۰ ترجمة محمد نبيل نوفـل وفاروق حافظ ، دار المعارف ۰ مصر ۰ ص٩٥

حنون نائل : عقائد مابعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة • مطبعة دار السلام • بغداد • ١٩٧٨ • ص٢٧٥

(٢٤) Kramer ; in Iraq . xxll P. 60

نقلا عن : نائل حنون : المصدر السابق • ص٢٧٦

Rene Labat ; Op. cit . P. 255 .

(٢٥) نائل حنون : المصدر السابق • ص٢٧٧

(٢٦) Rene Labat ; op . cit . P. 184 . (95 - 100)

طه باقر : ملحمة كلكامش • منشورات وزارة الاعلام • ١٩٧٥ • ص٩٤

كونتينو (جورج) : الحياة اليومية في بلاد بابل واشور • ترجمة سليم طه التكريتي • دار الرشيد للنشر • ص٤٩٧

(٢٧) Allatte de La Fuye ; Documents Presargoniques Paris ' 1920 . 131 . 205

Nikolisky . M.v ; Documents de La collection Likhaichev Saint - Peterbourg . 173

(٢٨) Rosengarten - Op . Cit - PP. 33 - 36 .

(٢٩) كونتينو : المصدر السابق • ص٤٧٤

باقر : المصدر السابق •

(٣٠) عبدالواحد (د• فاضل• د• عامر سلمان) : عادات وتقاليد الشعوب القديمة • ١٩٧٩ • ص١٨٢

(٣١) Thureau . Dangan ; Op . Cit P. 46

Allotte - de La Fuye ; Op Cit . 54 .

الاهه (بـا – بـا) كانت تمارس تنفيذ الاحكام وتعطي الاشارة الى الالهـه •

Jean . Op . Cit . P. 226

(٣٢) عبد الواحد (د• فاضل) : المصدر السابق • ص٨٢ج

نشأة وتطور المجتمع الريفي في العراق القديم

الدكتــور
يونس محمد فتــاح
رئيس فرع الدراسات الاجتماعية

الفصــل الاول

١ ـ المقدمـــة :

ان دراسة نشأة وتطور المجتمع الريفي في العراق القديم لــه مـــن الاهمية بمكان لاظهار دور العراق الحضاري القديم في مساهماته العديدة في بناء وتطور هذا المجتمع والذي تميز باختلافات واضحة عـــن الحياة المدنيـــة ٠

ان طابع المجتمعات الريفية وتطورها تعتبر ظاهــرة متميزة بسمات تختلف فيها عن طابع المجتمعات الحضرية ٠ من بين تلــك السمات التأثير الكبير بالطبيعة واثرها على الحالة النفسية التــى كان عليها ابناء ذلـــك المجتمع الريفي لعيشهم وسط بيئة تفتقر الى ابسط مقومات الحياة البشرية التي اشار اليها العالم العربي ابن خلــدون ٠

كل ذلك دفع سكان وادي الرافدين الى النهوض «بمجتمعهم الريفي» الذي يعتبر ذلك حاليا كعلم من فروع علم الاجتماع الــذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية الناشئة عن تجمع الافراد في البيئات الريفية ، وعـــن

اتصال سكان الريف بالحضر • كما ويعتبر ذلك احد الاختصاصات الدقيقة التي تطبق الاسس والظروف العلمية للبحث في دراسة الريف ، والحالة الاجتماعية والزراعية لساكنيه • اذن فالمجتمع الريفي يهتم بالدراسة العلمية للناس الريفيين من خلال علاقاتهم الاجتماعية ومن خلال مقوماتهم وخصائصهم واختلافها عن الحياة المدنية • فهو يدرس النظم الاجتماعية في الريف ، والمشاكل التي تواجه هذه النظم فيما لو اريد احداث تغيرات في المجتمع الريفي ، ويدخل ضمن موضوع المجتمع الريفي مواد عديدة كالتنمية الريفية ، والقيادة الريفية ، وانتشار الافكار والمتغيرات الاجتماعية والزراعية اضافة الى دراسة موضوع الهجرة بكافة اشكالها •

لقد اعتبر علم الاجتماع الريفي نبتا امريكيا خالصا منذ سنة ١٩٥٨(١)• هذا مع العلم ان اجدادنا العراقيين القدماء كانوا قد اهتموا بنشوء هذا العلم ومجتمعه منذ العصور الحجرية والسومرية والكلدانية والاشورية •• الخ وقد ارخ الكتاب العديدون هذا الاهتمام بكتب ومجلدات موجودة في مكتباتنا العالمية التي تزهو بفخر اجدادنا الذين لهم كل الفخر لهذا الاهتمام ، من هنا اتت اهمية هذه الدراسة فالابحاث المستلهمة من تراثنا وبناء الاستنتاج المنطقي واحيائها وتنسيقها وتفسيرها ستعلمنا بما ابقاه السلف من تراث قيم يجب احيائه•

لقد تم التركيز في هذا البحث على اظهار الجوانب والنقاط المهمة التي اوردها الكتاب والمؤرخون بهذا الصدد معتمدا في تعضيدى لذلك على الملامح العامة والمقومات الاساسية للمجتمع الريفي سابقا ولاحقا ذات العلاقة بالعوامل الايكولوجية البشرية ، العمل الزراعي ، التفاعلات الاجتماعية ،

والامور الاجتماعية الاخرى التي ستوضح في الفصول الاربعة القادمة •

وقبل القاء الضوء على تلك المقومات والخصائص العامة لابد من اعطاء نظرة عامة لتأريخ العراق الحضاري القديم الذي تدلل بصورة عامة على مدى الاهتمام بالمجتمع الريفي منذ اقدم العصور الحجرية •

٢ ـ نظرة عامة في تأريخ العراق الحضاري القديم للدليل على مدى الاهتمام بالمجتمع الريفي منذ اقدم العصور الحجرية :

ان التأريخ واجهة الحضارة الانسانية والحضارة نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة في انتاجه الثقافي(٢) •

لقد شهد العراق في مناطقه المختلفة نشاطا انسانيا متزايدا منذ اقدم العصور الحجرية كما عرفت اقسامه الشمالية اولى محاولات الانسان في اقدم الزراعة وتدجين الحيوان وبناء البيوت الريفية وصناعة الفخار ، فكانت هذه الخطوات من مسيرة الانسان الاساس الذي انتقل بواسطته من عصور الوحشية الى البربرية ، او من مراحل جمع والتقاط القوت Food gathering الى المراحل الانتاجية Food Produchion (٣) •

هذا هو الدليل الاول الذي يبين لنا اهتمام ابناء الرافدين بالمجتمع الرفي ، وبذلك فوقف الانسان نتيجة ذلك على أعتاب الحضارة • ولم يشعر العراقيون القدامى بالكلل او التعب وانما واجهوا متطلبات الحياة الجديدة المبينة على الزراعة وتدجين الحيوان بكل صبر وجهد وتفكير فعهدوا لمواجهة كل التحديات التي فرضها الواقع الجديد والتغلب على كل المعوقات التي اعترضت مسيرتهم(٤) •

الدليل الثاني ، اذ بمرور الزمن ففي العراق القديم ، برز العراقيون وجودهم على الارض بالمخترعات والمبتكرات والاكتشافات الجديدة ، فطوروا بذلك وسائل الانتاج التي مكنتهم من الاستفادة المتزايدة من المعطيات الطبيعية بشكل افضل، فمن صناعة الاواني الفخارية المختلفة المزخرفه،.. الى ابتكار وسائط جديدة للنقل والحرث والزراعة والرعي ، الى تدجين اعداد من الحيوانات ٠ ان هذا التقدم قد انعكس اثره على حياة الانسان ، فغير كثيرا من نظرته الى الوجود ككل ، والى الطبيعة بحالاتها المختلفة ، والمادة بأشكالها المتعددة ، كما شملت نظرته ذاته والمجتمع الذي عاش فيه ــ الا وهو المجتمع البدائي والذي نطلق عليه اليوم المجتمع الريفي ٠

ان خطوات الانسان تلك ، هي بمثابة الحجر الاساس لبناء الحضارة الانسانية من المجتمع الريفي الذي سأتكلم عنه من خلال الاثار ومخلفاتها في القرى الزراعية الاولى المتمثلة في المواقع الاثرية في شمال العراق جرمو (منطقة جمجمال) وحسونة[٥] (في الثورة) وحلف ، اما عندما استوطن ابناء المجتمع الريفي في العراق الاراضي الفسيحة المليئة بالمستنقعات والاهوار وحيواناتها المختلفة في جنوب العراق ، فواجهته الطبيعة المعطاء الصعبة بالتحديات المتواصلة ، فعمل بجهده لترويضها وتطويعها لرغباته وكانت له الغلبة ... فواجهة التحديات تلك بتطوير الاته وادواته ووسائل مواصلاته البرية والماشية وعموم وسائل انتاجه ... الخ ٠

ان مرحلة حضارة « جمده نصر » التي تلت الوركاء تعد في عرف الاثاريين اخر مراحل التطور للقرى المتنامية ــ اى لتطور المجتمع الريفي ــ وعندما تبلورت الظروف للانتقال الى عهد تاريخي وحضارى جديد يتمثل

في عصر فجر السلالات او بتسمية اخرى ، عصر دويلات المدن ــ والتي نطلق عليها حاليا بالمجتمع الحضري ٠

استغرق ذلك العهد من التأريخ مدة تقارب ستة قرون (٣٠٠٠ــ٢٤٠٠ق٠م) وانتهى بالسيطرة السياسية الموحدة على جزر البلاد متمثلا بالدولة الاكدية، تلتها الاموية ، ثم الاشورية ٠٠٠ واخيرا الكلدانية الارامية(٦) ٠

الفصل الثاني

الايكولوجية البشرية :

في هذا الفصل سنوضح علاقة الانسان بالبيئة التي عاش فيها انذاك ومدى تأثيرها عليه والتي يمكننا توضيحها بتأثير البيئة ٠ اما انماط العمل الزراعي للانسان في تلك البيئة هو ما نطلق عليه بالمهنة او الحرفة ، ومن الضروري ايضاح الاثار المترتبة على استيطان ذلك الانسان القديم في تلك البيئة ومزاولته لحرفة الزراعة ، ولعدم وجود وسائط النقل آنذاك سببت له العزلة النسبية ٠

وفيما يلي شرح مفصل لمقارنة السمات العامة والمقومات الاساسية للمجتمع الريفي سابقا ولاحقا ضمن المحاور الثلاثة البارزة اعلاه وهي :

تأثير البيئة :

ان البيئة الجغرافية تعتبر العامل الاول في نشوء الحضارات في العراق ، اذ استغل الانسان تلك البيئة وصار ينتج القوت والزراعة بيده، واخذ يقلل اثر البيئة المطلقة بانتقاله الى الحضارة حيث بدأ يسيطر عليها

منتقلا بذلك الى السيطرة على بيئته الاجتماعية بايجاد الحلول لمشاكل المجتمع الناشيء ، والذي نطلق عليه بالمجتمع الريفي(٧) .

كان لحضارة وادي الرافدين الاثر الكبير على ممارسة العمل الزراعي بنشاطاته المختلفة ولما كانت الزراعة تعتمد على تنظيمات الري في المستوطنات الجزرية التي لها الاثر الكبير في انتعاش العمل الزراعي وصدور انظمة وواجبات الفلاح وعلاقته بالاخرين بالنسبة للري . ولتوسيع رقعته الزراعية اتقنوا هندسة الري لشق الجداول السيحية ونقل المياه لمسافات طويلة لري الاراضي سيحا . كما ان اتقان وسائل رفع المياه الى الاراضي المرتفعة ادى بهم الى اختراع الدولاب واستخدام الطاقة المائية والحيوانية في تدوير النواعير المائية التي تدار بتيار الماء التي كانت منتشرة في منطقة عانة القديمة - التي غمرت بالماء - ومنطقة هيت هي من اختراع الجزريين. هذا وذكر سوسة ان دراسة العوامل الطبيعية وتأثيرها على الحياة الزراعية كمعرفة موسم الفيضان وتتبع الاحوال الجوية والحركات الفلكية وما الى ذلك من الامور المتصلة بالزراعة لتعيين مواسم زراعة المحاصيل الصيفية والشتوية وتدجين الحيوان ، واستخدام الطاقة الحيوانية اثرها في ذلك ، وقد تمخض عنها تأسيس القرى الريفية على ضفاف الانهار وتجميع السكان في مجتمعات تتولاها الانظمة والقوانين في معالجة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية(٨) ... هذا التجمع السكاني على ضفاف الانهار هو ما نطلق عليه بعلم الاجتماع الريفي - بالقرية الخطية - والتي فيها يبنى الفلاحون بيوتهم على طول طريق هام للمواصلات او نهر وبذلك تأخذ القرية شكلا خطيا .

لقد تمكنت خصائص النهرين الطبيعية بتاريخ توزيـع المستوطنات البشرية وتركيزها بالدرجة الاولى على الفـرات ، ولاسيما في مراحـل الاستيطان الاول في السـهل الرسوبـي ما بـين الالفـين الخامس والثالث ق٠م(٩) ٠

ولتأثير الطبيعة على الحياة الزراعية فقد اهتم سكان العراقيين القدامى بذلك واعدوا «تقويم زراعي» وهو التقويم السومري الذي عثر عليه من خرائـب احدى المدن القديمة ٠ ويعد أول تقويم زراعي في العالم(١٠) ٠ ومن المدهش ان الاوصاف التي ينطوي عليها هذا التقويم يدل على ان طرق الزراعـة والرى التي كانت تمارس في تلك الازمان لاتختلف في شيء عن طرق الزراعة او الرى التي يطبقها الفلاح العراقي في الوقت الحاضـر ٠

يشمل هذا التقويم على نصائح وارشادات يوجهها احد المزارعين الى ولده بما ينبغي القيام به خلال أعماله الزراعية السنوية كطريقة ادارة شؤون مزرعته وطرق اعداد الارض وانجاز عملية الحراثة وتنظيم الري كي يحصل على اجود منتوج واوفر محصول وقد دونت هذه الوثيقة التي يرجع تأريخها الى ما قبل اكثر من اربعة الاف عام على لوح من الطين يتكون مـن ١٠٨ أسطر بالخط المسماري باللغة السومرية ٠ تتناول السطور الستة التـي تلي المقدمة على اعداد الارض بترطيبها ليسهل العمل فيها ٠ وهـذا عـلى ما يظهر من النص تقع في حزيران وتموز ٠ من هذا يستدل على ان المقصود هنا هو المزروعات الشتوية كالقمح والشعير ، علما بـأن الارض لم تكـن مزروعة في السنة السابقة عملا بنظام زراعة ــ النير والنير ــ ان اتباع هذا من ذلك الزمن لعدم معرفة الفلاح باستعمال الاسمدة والمخصباة لزراعتهـا

سنويا وتستمر الارشادات بالنصائح المتعلقة بطريقة السقي كبذل العناية لئلا يرتفع الماء ارتفاعا كبيرا فوق الحقل والمحافظة على السواقي والاخاديد ثم يلي ذلك عملية تطهير الحقل من الحشائش وجذور النباتات المتروكة من الموسم السابق ثم تأتي عملية الحرث فيعمل افراد اسرة الفلاح والمساعدين والاجراء بتهيئة الآلات والادوات البسيطة الضرورية للقيام بذلك(١١) ونسبة للزمن من ذلك الوقت ، فأن سرد الوقائع التي يظهر الحقائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والزمن الحالي(١٢) .

ان التأثير بالبيئة في الوقت الحاضر لاتختلف عن التأثر بها في الزمن السابق فقد تتعرض المزروعات الى الاصابة بالحشرات والامراض النباتية او الى الفيضانات او الامطار او شحتها مما قد يؤدي الى اهتمام الفلاح في علاج ذلك مثلما كان يفعل ابناء الرافدين القدامى والا ادى ذلك الى قلة الناتج ، ان تأثير البيئة على المجتمع الريفي لايعني ان الانسان يقف مكتوف الايدي تجاه هذه العوامل لذا عمل وسعى اجدادنا القدامى في الالف الرابع قبل الميلاد على الاهتمام بسكان المجتمع الريفي بما ابدوه في التغلب على استغلال الارض وحراثتها وسقيها ووضع التقويم الزراعي • اما في الوقت الحاضر فأن أهتمام حكومة الثورة بالمجتمع الريفي ينبع من وجه المقارنة بالجهود الكبيرة المتمثلة في استصلاح الاراضي واقامة المشاريع الكبرى للري من اجل السيطرة على المياه الزائدة اثناء الفيضان • كما ان التقدم العلمي في مكافحة الافات الزراعية له الدليل الاكبر على ذلك وخاصة ان العراق يعتبر اول دولة عربية استخدمت الطائرات الزراعية في مكافحة

الافات الزراعية التي تستوجب المكافحة • هذا وان اهتمام حكومة الثورة بالمجتمع الريفي حاليا له جوانبه اللامحدودة •

٢ ـ الحرفة او المهنة :

انقضى عهد السومريين لكن حضارتهم لم يقضى عليها ، اذ انتقلت على طول مجرى دجلة والفرات حتى وصلت الى بابل واشور وكانت هي التراث الاول لحضارة الجزيرة • في حضارة سومر اخرجت الحقول بريها وزرعها محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضر الكثيرة المختلفة ، وظهر عندهم المحراث من اقدم العصور تجره الثيران ويتصل به أنبوب مثقوبة لبذر البذور • وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها اسنان من الطران تفتت القش ليكون علفاً للماشية ، وتفصل منه الحب ليكون طعاما للناس • لقد كانت هذه الثقافة ثقافة بدائية من نواحي كثيرة هو ما تطلق عليه المجتمع البدائي او المجتمع الريفي وكانوا يصنعون من المعادن المناجل لتقطيع الشعير • وكانت البيوت تبني من الغاب تحلوه لنبات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف في الشمس وهذا ما معروف عن بناء الدور الريفية حتى الوقت الحاضر ، وكان لهذه الاكواخ ابواب من الخشب تدور في ارقاب منحوته في الحجارة • وكانت ارضها عادة من الطين وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثني الى اعلى او مستوية مغطاة بالطين فوق دعامات من الخشب •

وكانت البقر والضأن والمعز والخنازير تجول في المساكن في رفقة الانسان البدائية • وكان ماء الشرب يؤخذ من الابار(١٣) • ويمكن تصنيف

السكان العراقيين القدامى من حيث نمط حياتهم وظـــروف معيشتهـــم الخاضعة الى أربعة حرف وهي :

أ ـ الرعـاة : وموطنهم الاصلي بادية الشام وهم الذيـن اتخذوا حرفة الرعي بعد تدجين الحيوان وهي الحرفة التي توجب التنقل والبحث عن المراعي في مختلف المواسم ، وهؤلاء وجدوا في كافة انحاء العراق ٠ هذا وقد وردت في النصوص السومرية المتقدمة كلمة «راعي» هي من اصل جزري وان هذا يشير الى التجارة بتربية الاغنام والماعز كحرفة منذ اقـدم تلك المجتمعات في بلاد سومر(١٤) ٠

ب ـ احتراف الزراعة : ظهر ذلك في المناطـــق الجبلية والسهول شمال العراق لاعتمادهم على المطر في انضاج مزروعاتهم ، وادى الى ارتباطهم بالارض وتأسيس القرى الريفية لاول مرة منذ اقـــدم العصور ٠ كما ان وجود العيون المنبثقة من المياه ، اضافة الى توفر المطر الوفير ساعدت على الاستقرار في جوار تلك العيون للتمون بالماء منها بالصيف٠ ويرى الباحثون في نشؤ الحضارة وتطورها ان تدجين الحبوب البرية واختراع الزراعة قد حدث قبل استئناس الحيوان واحتراف رعي الماشية ، عدا تدجين الكلب الذي كان يحرس الانسان ويعنيه في صيد الحيوانات البرية(١٥) ٠

جـ ـ هيئة الماء : وهي الجماعات الجزرية التي استقرت على شواطيء نهر الفرات بعد ان نزحت من شبه جزيرة العرب الى موارد الماشية اثـــر الجفاف والجذب اللذين حصلا منذ حوالي ٢٠٫٠٠٠ سنة ق٠م في الجزيرة العربية فأن هؤلاء اول من اسس الثقافات النهريـــة والحياة الزراعيـــة الاروائية على ضفاف نهر الفرات وهي هيئة المـاء كما نعتها بعض المؤرخين الباحثين مثل محمد عزة ٠٠٠

د ـ اهل البطائح والاهوار والمستنقعات ، وهم الصف الرابع ، انهم سومريون ومعظم هؤلاء كانوا يرعون الجاموس ويزرعون الارض المجففة في الاهوار والمستنقعات ومنطقتهم كانت هور الدلج وهور الزهرة وهور الجاموس وهور عفك وهور لفتة وهور الكطية(١٦) .

٣ ـ العزلة النسبية :

مر السومريون بثلاث اطوار في طريق تكوين حضارتهم :

الطور الاول بدأ في اوائل عهد استيطانهم حين اخذوا يعملون على توطيد حياتهم الزراعية البدائية في منطقة الاهوار ، وقد كانوا من القلة في هذه المرحلة بحيث لم يستطيعوا ان يساهموا في التقدم الحضاري ، اذ كان عليهم ان يثبتوا اقدامهم في هذه المنطقة الصعبة وهم في صراع دائم من عزلتهم هذه من اجل البقاء . « فلقد كانت مأرب نهرى دجلة والفرات سهولا نغمرها المستنقعات ، وتستوطنها الحميات ، والوحوش الخطرة والافاعي السامة وعدد لايحصى من الحشرات وبهذا فرض على القبائل السومرية للانتقال الى سهل بابل خلافا لرغبتها وللتخلص من ضغط القبائل الاخرى المتفوقة عليها من ناحية القوة ، ـ فانعزلت نسبيا ـ لحصولها على الامن لها في مستنقعات الوادي ، مثلما وجد اعداء الاشوريين مأمنا لهم في مستنقعات الفرات الادنى»(١٧) .

اما الطور الثاني بدأ باهتمام السومريون بالماشية وتجفيف المستنقعات واستغلال اراضيها بالزراعة .

اما المرحلة الثانية : الاعتماد على زراعة السهول في الجنوب ، وشق الجداول الطويلة في نهر الفرات وايصال المياه بها الى الاراضي الزراعية .

ومنها خرج السومريون من عزلتهم من الاهوار الى السهول الفسيحة الممتدة على مجرى نهر الفرات القديم الذي كان يجري بين نهر دجلة وشط الحلة الحالي • مما ذكر يظهر ان السومريون قد استغلوا مناطق ذات سعة جغرافية متعددة لهذا المجتمع الريفي • فبالطبع ان سعة المساحة الريفية تعقبها رداءة في طريق المواصلات والاتصالات يجعل المجتمع الريفي بمعزل عن المجتمعات الاخرى اضافة الى ذلك ان منطقة الاهوار بحكم موقعها الجغرافي المتناثر يجعل حياة سكانها متميزة بالعزلة النسبية وهذا مما يدلل على انطباق هذا المؤثر على ابناء المجتمع الريفي الساكنين من تلك المناطق وكذلك صعوبة تنقلهم ما بين الاهوار والمناطق الاخرى كما ان وجود عبارة القبائل ما هو الا دليل اخر على ان ذلك المجتمع هو ريفيا هذا وذكر سوسة بأنه في الطور الثالث تميزت هذه المرحلة من حياة السومريون بتغير جوهري في الانتقال الى الزراعة البطائحية المقتصرة على تجفيف الاهوار واستصلاح اراضيها ولزراعة السهول بعد ايصال المياه من نهر الفرات لتلك الاراضي هو استمرارهم بالحياة الاجتماعية الريفية(١٨) •

الفصل الثالث

العمل الزراعي :

دلت التنقيبات الاثرية على ممارسة الحياة الزراعية في العراق قبل حوالي عشرة الاف سنة في المنطقة الشمالية بعد تدجين سكان هذه المناطق للحبوب البرية اما في المنطقة الوسطى والجنوبية فأن الجزريين اسسوا اول مستوطناتهم قبل حوالي ستة الاف سنة بالاعتماد على تنظيمات الري وممارسة الزراعة المرتكزة على شرائح تناولت واجبات الفلاح وعلاقة الذين لهم صلة بالعمل الزراعي(١٩) •

لذا وجب اثبات اولا عدم التخصص في العمل الزراعــي ، وأخيرا توضيح نص اقدم خارطة لنمط الحياة الريفية :

١ ــ عــدم التخصص في العمل الزراعي :

مما كان يعيق الانسان بالزراعة في العصر الحجري الحديث وما تــلاه هو صغر مساحة الارض التي يزرعها وذلك لاهتمامه بالاكتفاء الذاتي فــي الانتاج للعائلة الواحدة بحيث ينتج حاجتها من القـــوت ويصنع ادواتها البسيطة الساذجة وكل ذلك صفات لاتعمل عــلى ظهــور التخصص(٢٠) . ومع ذلك فأن الانسان القديم من وادي الرافدين قد تطورت حياته المعاشية بتغيير اسلوب عمله من ذلك المجتمع الريفي اذ ان العمل الزراعي يتطلب اشتراك كافة افراد العائلة الواحدة ، رجالا ونساء كبارا وصغارا والتقسيم في العمل الزراعي غير دقيق لترابط وتماسك افراد الاسرة الريفية فــي العمل الحقلي سابقا ولاحقا(٢١) وهذه من الصفات البارزة للمجتمع الريفي . هذا وقد توصل علماء الاثار نتيجة مكتشفاتهم الى الاستدلال عــلى ثلاثة انماط معاشية متعاقبة الاطوار من مجرى الانسان القديم من تنازعه مــن اجل الحياة باحثا عن الطعام فوضعوا حدودا زمنية لفترة هذا التطــور وهــي :ــ

١ ــ عصر القنص والصيد : كان الانسان القديم في هذا العصر يعتمد في غذائه على القنص والصيد ، فيصيد الغزلان والثيران الوحشية وكذلــك الماعز والاغنام الوحشية . والى جانب هذا كان يقطع ثمار وجذورا واعشاب برية مندفعا وراء الحافز الغريزي عملا بسنة التنازع من اجـــل البقاء ، واستعان بالادوات والسهام والحراب والاقواس من الاحجار ثم بعد ذلــك

باجيال طويلة استعمل المعادن ، وكانت الحاجة تدفعه الى اختراع هــذه الادوات وتطويرها بالابتكار والتجديد(٢٢) •

٢ ـ عصر الرعــي • لما وجد الانسان القديم ان صيده لايكفيه اخـذ بطريقة تربية ما يصيده من الحيوانات والعمل على تكثيرها وذلك بتدجينها بحيث تصبح اليفة فأخذ يربي الماعز وبعدئذ الاغنام بقصد الاستفادة مــن لحومها وجلودها واخيرا استجلب هذه الحيوانات وجز صوفها ثم بدء بدجن الخنزير والثور وبهذا توافر لديه اللحم والدهن والحليب الى جانب ما كان يجمعه من ثمار واعشاب وجذور فضلا عن توفيره اللباس والكساء والغطاء•

ولكن سرعان ما وجد ان ما دجنه يحتاج هو الاخر الى الطعام فاخــذ يبحث عن الكلاء له بالتعرف على اماكن الرعي حتى اذا جذبت الارض رحل عنها من مرعى الى آخر ، كل ذلك اثباتات عديدة الى عدم التخصص فــي العمل الزراعي الذي هو مبدأ من مبادىء ظهور المجتمع الريفي الى الوجود•

٣ ـ عصر الزراعة : اما الطور الثالث فهو يبدأ حين بدأ ذلــك الانسان يفكر في اعداد الطعام الى عائلته من مقر استيطانه ، فأخــذ يجرب حفر في الارض ليضع فيها بعض البذور ، فأذا سقط عليها المطــر انبتت واخضرت ثم نمت فاينعت حتى اذا نضجت جاءت بالثمر لطعامــه وطعام ماشيته ، ثم اخذ الانسان يبحث عن وســائل اصطناعية لارواء مزرعته عندما تقل الامطار فأخذ يحفر الجداول ويخزن المياه ويقيم السدود وينشيء السداد لوقاية مزارعه من الغرق (٢٣) •

لقد كان لاختراع الة الحرث اثر في خطو الانسان خطوات ناجحــة نحــو التقدم الحضاري • ان تلك الانماط الثلاثة التي اوردها علماء الاثار منــذ

الالف الرابع قبل الميلاد لتعد بحق من النظريات الصادقة على اهتمام ذلك المجتمع في العراق فعلم الاجتماع الريفي ، وما استدلال ابن خلدون عن ذلك فانما يعود لوصف هذه المجتمعات بصورة عامــة ٠

ان ما ذكر اعلاه يثبت فعلا ان الانسان من عراق الرافديـــن منـذ العهود السابقه كان يقوم بالاعمال الزراعية المختلفة وهذا يدلل على مبدأ عدم التخصص في العمل الزراعي والذي هو من المبادىء المهمة المعمول بها في دراسة علم الاجتماع الريفي ٠ وهناك اسناد آخر لما ذكر اعلاه الا وهو ان من يريد ان يدرس شيئا عن مبادىء علم الاجتماع او الاجتماع الريفـي ان يكون ملما وعلى بينة بالمراحل التاريخية التي مر بها العمـل او التفكير الاجتماعي حتى اصبح بصورته الحالية ، واكبر دلالة على ذلك هو ما اسهمت به حضارة وادي الرافدين في تطوير الفكر الاجتماعي والتـي كانت تسمى ميسوبوتيميا (اى مابين النهرين) ٠ فلقد نشأت في العراق القديم فلسفات على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لمقومات الحياة الاجتماعيـة ٠

هذا ومن المعلوم ان الفلاحين في مجتمعاتنا الريفية وفي مجتمعات اخرى يقومون في الوقت الحاضر بعملية حراثة الارض وتعديلها ثم زراعة المحاصيل المختلفة وارواثها والاعتناء بها كأجراء التعشيب والتسميد والعـــزق ٠٠ الخ ٠ حتى جني المحصول وتسويقه من ذلك يدل ان عليه القيام بالعمليات الزراعية وبضمنها العناية بالثروة الحيوانية ٠٠٠ ذلك يبين او يدلل عـلى عدم تخصص الفلاحين في العمل الزراعي وهذا ما يؤيد قيام اجدادنا القدامى من تلك الازمنة القديمة بالاهتمام بالمجتمع الريفي طالما يعتبر هـذا المبدأ - (عدم التخصص في العمل الزراعي) - احد الجوانب التي يرتكز عليها

للتميز ما بين علم الاجتماع الحضري وعلم الاجتماع الريفي ·

واخيرا اكد باقر (ان التخصص الصحيح لم يبدأ الا انه من المحتمل جدا ان نوع من تقسم العمل البدائي كان موجودا في حياة انسان العصر الحجري الحديث ولاسيما بين المرأة والرجل) · فالمرأة كانت تزرع البذور وتطحن الحبوب وتطبخ وتغزل وتصنع الملابس ، اما الرجل فعليه حرث الحقل والعناية بالحيوانات ورعيها وصيدها وبناء البيوت وصناعة الادوات الضرورية والاسلحة وحماية البيت ولتجمع ذلك الناس نشأت العائلة ، وظهر المجتمع البدائي في ذلك العصر[٢٤] ، وبذلك ممكن ان نطلق عليه المجتمع الريفي لمزاولة الجنسين من ذلك المجتمع الاعمال الزراعية ·

٢ ـ سيادة العمل الزراعي :

ان ما يدلل على سيطرة العمل الزراعي في العراق وحدوث انقلابا خطيرا في حياة البشر هو باهتدائه الى الزراعة وتدجين الحيوانات وكان ذلك في بداية الالف الثالث ق · م [٢٥] ·

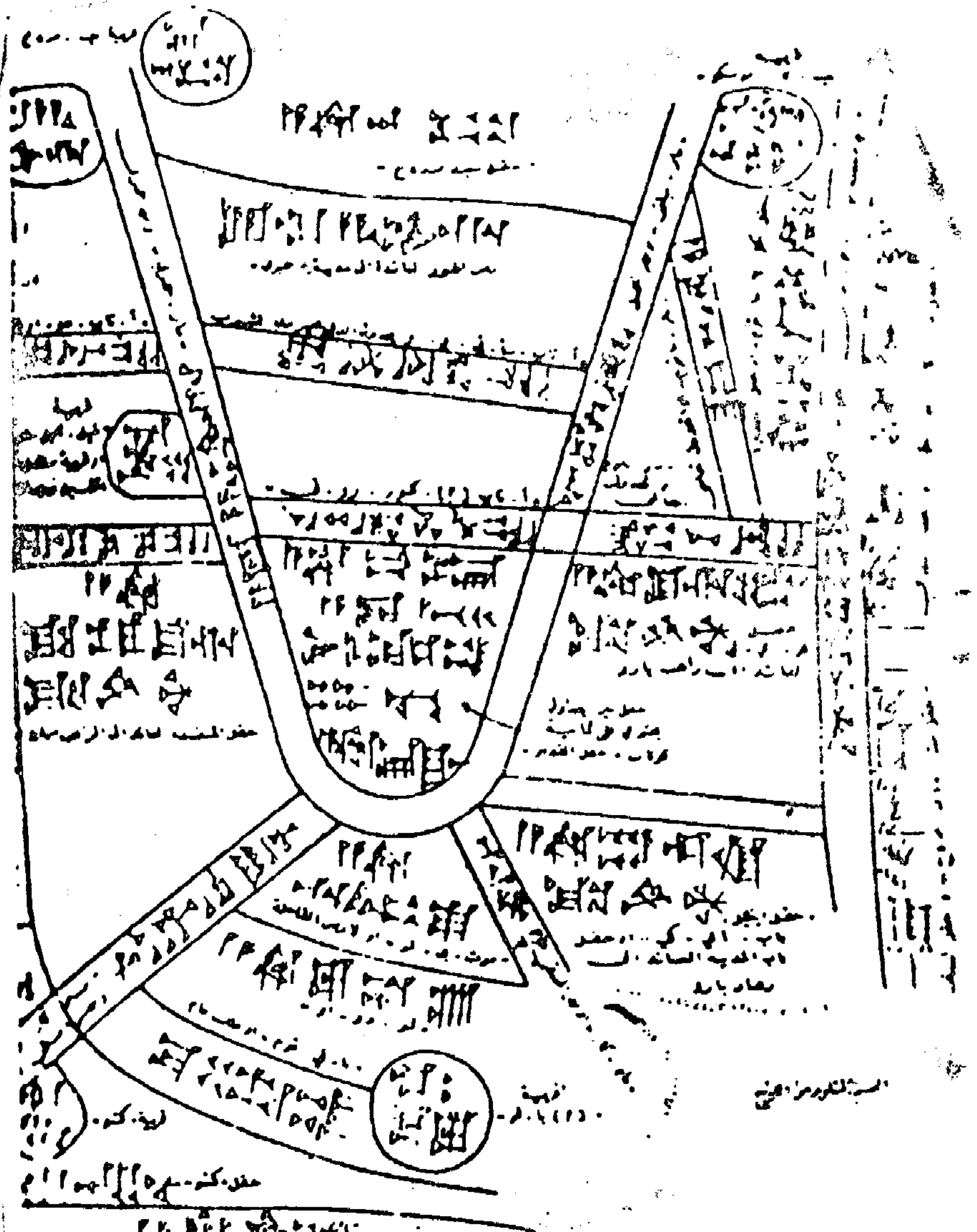
هذا ويشير ايمار الى تبوء الزراعة مركزا مرموقا ، الاول دون شك، فقد مسحت الارض وسجل كل تغير يطرأ على تقسيمها وملكيتها وطرق استثمارها ، وحفرت قنوات الري ، ونظم اسس توزيع المياه ، ومعاقبة كل اعمال أو غش يلحق الضرر بالاخرين ، وحددت شروط الزراعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار من تقلبات الجو بين المالك والمستأجر والمزارع ، ومبلغ اجرة الفلاح ، والبقار والمراعي ، وبدل استئجار ثور او حمار ···· الخ كل ذلك يعزز مهد حضارة بلاد ما بين النهرين بالزراعة اما خصب اراضيها فقد افاد هيرودتس وسترابون بأن الحبوب كانت تعطي

نخلة تعادل ٢٠٠ او ٣٠٠ وحدة • والى استخراج الزيت من السمسم ونباتات اخرى ، وشدد سترابون على اعداه شجر النخيل ومنافعه المتعددة كاستخراج الخل ، والخمرة ، وعسل التمر والاستفادة من الالياف للنسيج ، ومن نواة البلح وقودا للحداد ، وبطبخها تغدو علفا للحيوانات وعرف البشر في حضارة وادي الرافدين تلقيح النخيل وتدجين الثور البري والضأن وطيور القن ... وعرفوا المذرة(٢٦) •

كما ان اهتمام العراقيين القدماء بالاعمال الزراعية في عهد السومريون يبرهن على اهتمامهم بالمجتمع الريفي نظرا لكون العمل الزراعي آنذاك هو احد سمات هذا المجتمع الذي نتكلم عنه • وقد اورد الهاشمي النصح للفلاح في ذلك العهد بكتيب الارشاد الزراعي عن كيفية حرث التربة وموعد ذلك وعملية البذر ، والسقي والحصاد والدراسة والتذرية كل ذلك وجدت في وثيقة مدونة بنسخ ومقتطفات عديدة قسما منها لا يزال مدفونا في خرائب سومر • اما انواع الحبوب التي زرعها السومريون فتتألف من الشعير والحنطة والدخن والحمص والعدس ، وكذا الثوم والخس واللفت والرشاد والكراث والخردل وانواعٍ من القثاء • واهتمامهم بالنخلة وانواعها البالغة آنذاك مائة وخمسون • اضافة الى تربية الحيوانات المختلفة كمصدر للغذاء والكساء والقسم الاخر للنقل • اما الاغنام فقد وصلت انواعها الى مائتي نوع • اما صيد الاسماك فكانت مهنة هامة جدا وبلغ انواعها في ذلك الوقت خمسين صنفا(٢٧) •

ومما يبرهن على اهتمام اجدادنا بالعمل الزراعي هو وضعهم لاقدم خارطة للجداول والحقول الزراعية والقرى الريفية ـ وفيما يلي النص الكامل لنمط حياة المجتمع الريفي آنذاك •

اقدم خارطة توضح نمط الحياة الريفية السومرية



تلقي هذه الخارطة القديمة التي تعود الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ضوءاً على طراز الحياة الريفية التـي عاشها السومريون والبابليون

في حقولهم الزراعية عثر عليها في خرائب مدينة «نيبور» (نفر) السومرية، فتوضح تفاصيل نمط حياة المجتمع الريفي القديم في منطقة « نيبور » وكيفية تنظيم شبكة جداول الري وتقسيمات المياه وتثبيت مواقع وملكيات الحقول الزراعية والقرى مع ذكر اسمائها ، ولم تهمل الخارطة تحديد المواقع العامة المشاع استعمالها من مجموع سكان المنطقة كالطرق والمراعي والأهوار التي ينبت فيها القصب والبردي • وتعد هذه الخريطة تاريخ اقدم خريطة من نوعها معروفة في تاريخ العالم وهي وإن كانت تعود الى عهد متأخر الا ان هناك دلالة قاطعة على أن السومريين أتقنوا فن صنع الخرائط في أزدهار حضارتهم وقد أخذ البابليون والكاشيون هذا الفن عنهم • ولعل الغاية الاساسية من وضع هذه الخريطة هي تحديد موقع الحقل الملكي في منطقة «نيبور» بدليل انها وجدت بين السجلات الملكية التي عثر عليها في « نيبور » • ويشاهد موضع هذا الحقل في وسط الخارطة وقد كتب « حقل بين الجداول مساحته ثمانية كولات ــ حقل القصر » • ويدور حول الحقل جدول يبدأ في الزاوية الشرقية للخارطة فيسير نحو الماء ثم يعود فينحرف الى الشمال الغربي مشكلا شبه دائرة مخروطية الشكل حتى ينتهي في الزاوية الشمالية الغربية من الخارطة • وقد سمي هذا باسم « نار ــ بيلتي » اي نهر الحمل أو النقل ، ويستدل من هذه التسمية انه الجدول الرئيس الذي تنقل بطريقه المواد الزراعية باهتمامهم للملاحة ، ولاشك ان هذا الجدول كان يتمون من نهر الفرات •

ويلاحظ ان الجداول والفروع رسمت في الخريطة على شكل خطين متوازيين على النحو المتبع في الوقت الحاضر في رسم الجداول للدلالة الماء وحدود الماء ، كما ان القرى رسمت على شكل دوائر كما هو متبع في رسم خرائطنا الحديثة(٢٨) •

الفصـــل الرابـع

التفاعلات الاجتماعيـة :

عند اتصال الانسان بالانسان او جماعة بجماعـة سيحدث تفاعـــل معين بينهم تقوم على اساسه علاقات اجتماعية ايجابية او سلبية قد تباعدهم او تقاربهم • وهذا سيقتصر البحث في هذا الفصل على اهم ما يميز المجتمع الريفي من تلك التفاعلات الا وهي : التعاون ، والكرم او الضيافة ، وهما نوعان من التقارب • او قد ينشأ عند البعض الاخر الصـــراع والتنافس ، فالصراع هو نوع من انواع التباعد ، اما التنافس فهي عمليـــة منشـطة للقوى الانسانية اوجب ايضاح دور كـــل منهـم في نشوء حضـارة وادي الرافديـن •

١ ـ التعـــاون :

لما كانت حياة الانسان في العصر الحجري القديم شاقة صعبة فقـــد كافح كفاحا شديدا من اجل البقاء ضد قساوة الطبيعة ووحشية الحيوانات الضارية ، وانعدام وسائل الدفاع الطبيعية والعناية بصغاره فأول ماعلمته تلك الظروف ان يكون اجتماعيا ويعيش بتعاون مع غيره ، فاستعمل دماغه وقابلياته في صنع العدد (اى حضارته) ليتغلب بها على الطبيعة ويدافع عـن

نفسه(٢٩) • وفي بابل لعبت المبادلة دورا عظيما ، اذ ان الطلب على الاخشاب والحجر هما المادتان اللتان لم تكونا متوفرتين في وادي الرافدين ولايمكـن الاستغناء عنهما في صناعة ادوات العمل البدائية قـد ادى الى نشاط فعال اكثر في المبادلة وهو نوع من انـواع التعاون والتجارة عمـــل عليه ذلـك الانسان لسد حاجته ورغباتـه(٣٠) •

وذكر صموئيل كريم ... بأن السومرين وضعوا قيمة عالية للفرد وانجازاته ، فقد كان هناك عامل بارز يعزز روح التعاون بين الافراد وبين المجتمعات على السواء بتوزيع الري بقنوات تضمن حقول كل فرد . ان ذلك التنويع بالتساوى لم يحصل الا بتعاون كافة الافراد آنذاك . لذا تغلغلت الحضارة السومرية الى مناطق واسعة فمن ناحية الشرق امتدت الى البحر المتوسط ومن ناحية الجنوب الى الحبشة ومن ناحية الشمال الى بحر قزوين . ان ذلك قد حصل قبل خمسة الاف سنة(٣١) .

من ذلك نلاحظ ان التعاون هو من العمليات الاجتماعية التي يتميز بها المجتمع الريفي ، اذ لايمكن للافراد في اى مجتمع ان يعيشوا منعزلين متباعدين ، بل يرتبطون بعلاقات وروابط تنشأ من طبيعة اجتماعاتهم ، او من تفاعلهم او من رغباتهم او عن طريق احتكاك بعضهم لبعض الاخر . لذا فالتعاون عملية اجتماعية ظاهرة فمن المجتمع الريفي كأن يتظافر جهود شباب القرية على تعبيد طريق يعود بالنفع على ساكني المجتمع الريفي الذين هم من افراده . او تعاونهم عند الحصاد ، او حفر بئر ماء من ذلك نرى ان التعاون في العمل الزراعي في العراق تحتم على توحيد الجداول والمبازل وهو النظام الاقتصادي الريفي الذي مارسه الافراد والعشائر تحت مفاهيم (العونة) او الفزعة وهي السائدة وما زالت حتى الوقت الحاضر(٣٢) . هذا وقد اكد الدكتور علي فؤاد احمد على ان التعاون المتبادل في الريف وشرحه بما يلي : تتميز العلاقات الاجتماعية في الريف بأنها علاقات قوية بين الافراد تقوم على اساس معرفة وثيقة وتتشابهه في المهنة والمسؤوليات.

وسكان الريف يعاون لبعضهم بعضا ويتعاونون تلقائيا في مختلف

المناسبات الاجتماعيـة والزراعيـة ، فأهالـي القريـــة يتبادلون الالات ويستعيرونها من بعضهم ..وكذلـك يتعاونون فـــي المناسبات العديدة كالافراح او في المآتم او عند حلول ضيف على الاسرة فيتضح مدى التعاون الذي يشارك فيه الاهالي بعضهم في معاونة الاسرة على الوفاء بالتزاماتهـا الاجتماعية في المناسبات المختلفة(٣٣) .

٢ ـ الصراع والتنافس :

من الامور المهمة التي ظهرت في حياة الانسان في العصـــر الحجري الحديث ، الملكية الفردية ، ولعل نشوء هذا النظام في نشوء العائلة كما ان زراعة الانسان المتنقلة كان تضطره الى التوســع والاصطدام بالجماعات البشرية التي لم تزل في طور جمع القوت وكذلـــك الاتصال بالجماعات البشرية الاخرى المنتجة للقوت، مما أدى الى النزاع على الارض وظهور نظام الحرب بابسط اوجهها(٣٤) . كما ان طائفة من الانثرولبولوجين ترى ان الزراعـة الخليطة اى الزرع وتدجين الحيوان ظهـــر نتيجة لغزو جماعات الرعـاة للمجتمعات الزراعية(٣٥) .

هذا وان الغزو نوع من انواع الصراع في المجتمعات الريفية الـذي لايستوجب التفسير . هذا وتصور ملحمة كلكامش الكثير من اوجـه الفكر العراقي القديم فقد يعكس الصراع كلكامش وانكيدو صراعا بين الحضارة والبداوة والتي نكشف منها تغلغل العناصر الجزرية القادمة مـــن الغرب ومعارضة السومريين لهم بادىء الامر ومن ثم امتزاجهم في ذلك المجتمع الموضح في نتيجة الصراع (الصداقة الحميمة بين كلكامش وانكيدو) والتي أتت على وحدة الصف ودفن الضغائن وحقن الدماء بالخير والاندفاع للفتح وجلب الغنائـم ...

ان تدوين ذلك محدد بزمن سرجون الاول الاكدي (٢٣٢٥ - ٢٢٦٩ ق٠م)[٣٦] ان البداوة جزء من المجتمع الريفي والصراع صورة واضحة في المجتمعات الريف مما له الدلالة الواضحة لموضوع بحثنا منها ايضا ان الحضارة العراقية القديمة التي ازدهرت في جنوب العراق حضارة عربية في الاصل ، اسسها الجزريون العرب النازحون من الجزيرة العربية الى ضفاف الفرات ، ثم اقتبس السومريون (سكان الاهوار) عنهم الحضارة التي اطلق عليها اسم الحضارة السومرية ، وما هي بسومرية ولكنها سومرية - جزرية أو سومرية - أكدية ، وذلك بعد ان اتصل السومريون بالجزريون ، وتشابكت مصالح الطرفين نتيجة ممارستها الزراعة المرتكزة على الري من مصدر واحد (وهو الفرات) مما ادى الى الاختلاط والامتزاج اللذين تمخضت عنهما الحضارة السامرية الجزرية ٠ ويبدو ان الصراع بين الساميين الذين احتلوا معظم انحاء الشرق الادني واسسوا فيها حضارتهم في مختلف العصور غير الجزريون من اجل السيطرة يرجع الى عصور واغله في القدم ٠ ويؤكد ديورانت مؤلف كتاب (قصة الحضارة) ان النزاع بين الجزرية وغير الجزرية لعبت دورا هاما في تأريخ الشرق الادنى يرجع الى ما قبل اكثر من ستة الاف عام ٠ ان التنافس الذي قام بين هذين المركزين الاولين من مراكز الحضارة القديمة اول دور من ادوار النزاع بين السامية وغير السامية[٣٧] ٠

من ذلك الشرح تقول ان الصراع هو المظهر المتطرف للمنافسة وهو عملية اجتماعية غير مرغوب فيها ولكن تظهر في المجتمع الريفي ويجب العمل على تخفيف وطأتها والقضاء عليها ٠٠٠

ومن خلال دراسة الدكتور علي الوردي للمجتمع العراقي ، وجـد هذه الظاهرة الاجتماعية والتي سماها بظاهـرة الصـراع بين البـداوة والحضارة • ولقد اجمع علماء الاثار ان العراق كان مهبط حضارة تعد من اقدم الحضارات في العالم • فالعراق قد حظى منذ بداية التاريـخ البشرى حضارة مزدهرة • ويمكننا ذكر قصة ادم التي أوردها الباحثون والتي ذكرت في الكتب المقدسة ... فقد نوه تويبني ان هذه القصة رمزيـة تشير الى الاحداث التأريخية • وخلاصة القصة ان ادم وزوجته حـواء كانا يعيشان في جنة عدن منعمين ، ثم عصيا ربهما بتحريض من الشيطان ... فطردهما الله من الجنة ، حيث صار يكسبان قوتهما عن طريق الكـدح وعرق الجبين • ورزقهما الله بعد ذلك ولدين هما : هابيل وقابيـل • فاتخذ هابيل مهنة الرعي بينما اتخذ قابيل مهنة الزراعة وجرى بين الاخوين نزاع فقتل قابيل اخاه هابيـل •

هذه القصة تمثل الحالة المطمئنة التي كان البشر يعيشون فيها قبل انحسار العصر الجليدى • اما النزاع بين قابيل وهابيل فيمثل الصراع الذى حدث بعدئذ بين البداوة والحضارة •

اما وليم ويلكوكس فقد ذهب في هذا السبيل الى مدى ابعد مما ذهب اليه توينبي ، اذ هو حاول ان يحدد موقع جنة عدن تحديدا دقيقا ، وتوصـل بتحرياته الى القول بأن تلك الجنة كانت العراق وفي الفرات الاوسط وعلى وجه التخصص(٣٨) •

الفصـــل الخامس

الامور الاجتماعية الاخــرى :

في هذا الفصل سنوضح ثلاثة امـــور اجتماعية بارزة في المجتمعات الريفية بصورة عامة ، وظهورها في حضارة وادي الرافدين بصورة خاصـة الا وهي : الفوارق الاجتماعية بساطتة المؤسسات الاجتماعية ، واخـــيرا التماسك الاجتماعي والنظم الاجتماعية • وفيما يلي شرح لكل منهم عـــلى انفراد وعلاقتها بموضوع دراستنا •

١ ـ الفــوارق الاجتماعيــة :

بين طــه باقر بأنه في حدود ٤٠٠٠ سنة ق٠م في عصور ما قبل السلالات الحاكمة بهيئة امراء وملوك في كل من العراق ومصر نشأت طبقة جديدة من الناس عاشت في القرى المتسعة وتخصصت بالصناعات البدائية فكانت طلائع الاختصاص • واقتصر امـر الفلاحين على الانتاج الزائد لمبادلته بالصناعات الجديدة ومن هؤلاء الصناع والتجار ••• وغير ذلـك من الطبقات التي تكاثرت آنذاك(٣٩) •

وكذلك اكد طه باقر على « ظهور طبقات من المجتمع القروى تتخصص بنواحي اخرى من الانتاج الزراعي لتوسيع امكانية ذلـك الانتاج »(٤٠) • هذا التأكيد يثبت امرين الاول وجود الطبقات الاجتماعية الذى يدعـــم ان هناك فوارق اجتماعية والامر الثاني هو ذكره لكلمة المجتمع القروى هــــو بالضبط المجتمع الريفي والذى نحن بصدد اثبات وجود هذا المجتمع الريفي في العراق القديـم •

وفي صفحات اخرى من نفس المصدر يبين المؤلف وجود ثلاث طبقات في الزمن البابلي القديم : الطبقة الاولى كانت مؤلفة من الاحرار وهم الطبقة العليا في المجتمع وحريتهم مطلقة ، والطبقة الوسطي وكانت تتألف من الاحرار الذين كانت حريتهم مقيدة ، وتتألف الطبقة الثالثة من الارقاء وقد وردت هذه الطبقة واضحة التقسيم في شريعة حمورابي • ومن الفوارق الاجتماعية الموجودة بين هذه الطبقات هو ان التزاوج بينهم قليل الوقوع وقد يحدث بصورة سرية كما ان العقوبات يختلف تطبيقها على هذه الطبقات فعندما يحدث افراد الطبقة الممتازة الاضرار باحد افراد الطبقة الوسطى فيدفع ضريبة او تعويض او دية وهذا ما معروف عنه ومنتشر في المجتمع الريفي ، اما لو وقعت الاضرار على الطبقة الممتازة من الطبقة الوسطى فيطبق مبدأ القصاص (اى العين بالعين والسن بالسن)(٤١) •

اما الهاشمي فقد بين بأن المجتمع السومري كان ينقسم الى ثلاث طبقات هي : طبقة الاحرار وتضم رجال الدين ، والطبقة المتوسطة وهم من الاحرار ايضا ، ثم طبقة العبيد وكان اكثرهم من اسرى الحرب • وكان للاحرار حقوق امتلاك العقار والتصرف بالدور والبساتين واحواض الاسماك واقتناء الحمير والغنم المعزى ، وكانوا يمتلكون الاثاث والادوات وبعض الفضة ، كما كان عدد منهم يمتلك بعض الاراضي • وهناك ما يؤيد ان رجال الدين والحكام مع عوائلهم كانوا يملكون اقطاعات خاصة بهم وكانت اكثر الممتلكات من اراضي وعنز وحيوانات تعود الى المعابد(٤٢) •

ان اى مجتمع من المجتمعات يتميز بوجود بعض الفئات الاجتماعية وفي رأينا ان هذه الفئات تتميز فيما بينها في مستوياتها الاجتماعية ووجدانها

الاجتماعي كما وجدناه من السطور السابقة • من ذلك ممكن الكشف عـن كون قسم من طبقة الاحرار هم من افراد المجتمع الريفي الذى نحاول دعـم بحثنا هذا خاصة لامتلاكهم البساتين واحواض الاسماك وبعض الحيوانات الزراعية ••• كما ان الدكتور علي فؤاد احمد يرى ان لمعرفة الافـــراد الوثيقة لبعضهم البعض في المجتمع الريفي فأن الطبقات الاجتماعية تكـــون نوعا ما محدودة وواضحة وبالتالي فأن الفوارق الاجتماعية بـــين الطبقات تكون واضحة ايضا • لكن مما يقلل من حدة هذه الفوارق الاجتماعية فـي الريف هو شعور الافراد بالانتماء الى مجتمعهم بدرجة قوية تظهر في التعاون والمساعدات فيما بينهم • ومع ذلك فقد ظهر التمايز الطبقي آنذاك بوضوح في المجتمع الريفي المتمثل بالشيوخ والامراء ورجال الديـن كطبقات متنفذة مستقلة وبالمقابل برزت طبقات مسحوقة مستغلة تتمثل في العبيد والاجراء •

٢ ـ بساطة المؤسسات الاجتماعية :

كان لاكتشاف الانسان للمعادن في العصور الحجرية له الاثر الكبير في تطوير وتحسين وسائل انتاجه • فتوسعت مجالات الاستثمار الزراعـي المعتمدة على طبيعة العراق المعطاء بأرضه الزراعية الخصبة ومياهه الوفـيرة واهواره ومستنقعاته التي تعج بثروة حيوانية هائلة تتمثل في الاســـماك بالدرجة الرئيسية الى جانب الثروات الزراعية الاخرى • من ذلـــك كان للعمل دوره الاساسي الفعال ، وكان لابـــد ان تبرز الى الوجـــود بسبب متطلبات الاعمال او الظروف مؤسسات ومصالح خاصة ، فظهر المعبد كاقدم متطلبات الاعمال او الظروف مؤسسات ومصالح خاصـــة ، فظهر المعبـــد كاقدم مؤسسة في تأريخ العراق القديم وهـو الذي يميز تلـك المرحلـة

الحضارية التي تكشف عن خصائصها في اول موقع اثري جنوب العراق (قرب مدينة اور القديمة) .. فبرزت مؤسسات اقتصادية واجتماعية ودينية فرضتها عمليات الانتاج الزراعي الواسعة الجديدة . ان وجود المؤسسات الاجتماعية آنذاك بررت الحاجة الى اختراع وسيلة التدوين والتي افتمدت آنذاك على الكتابة المسمارية(٤٣) .

ان المؤسسات الاجتماعية المنتشرة في المجتمعات الريفية في الوقت الحاضر تتميز ببساطة تركيبها ، وفي كثير من الاحيان تقوم بوظائف محددة . فالمسجد ومركز الشرطة ، والمدرسة والمستوصف ان وجدت في الريف فيكون هيكلها التنظيمي متميز بقلة المراكز الوظيفية وقلة العاملين فيها . اضافة الى ان المهام التي تؤديها هذه المؤسسات اولية وبسيطة مقارنة بالمؤسسات في المجتمع الحضري . من ذلك نلاحظ الترابط الموجود مابين المؤسسات الاجتماعية في العصور الحجرية لحضارة وادي الرافدين والمؤسسات في المجتمعات الريفية الحالية مايؤيد اهتمام العراق القديم بالمجتمع الريفي وبروز معالمه منذو ذلك الوقت .

٣ ـ التماسك الاجتماعي والنظم الاجتماعية :

بين طه باقر أن شرائع العراق القديم تعتبر اولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد واصول مدونة : كما ان هنالك من العقود والمستندات القانونية التي لها الاثر في تنظيم الهيئة الاجتماعية بموجب العرف القانوني والقواعد المقررة . كما اكد على تغلغل النظم والشرائع في حياة العراق القديم في مأثر الملوك والامراء مما وصل الينا من كتاباتهم وسجلاتهم لنشر العدل واقرار الشرائع الالهة وحماية الضعفاء

ومن تلك الوثائق عقود الزواج والطلاق والتبني والارث والضرائب والبيع وعقود الدائن والمدين .. هذا وان اولى نشوء الانظمة هو ما ظهر في حضارة وادي الرافدين ولكن وجد من نوع الانظمة البدائية في الالف الثالث ق.م(٤٤) .

اما سوسة فقد بين ان النظام القبلي في وادي الرافدين كان يستند الى العادات والاعراف والتقاليد المتوارثة والذي يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد آنذاك في ذلك المجتمع الريفي اذ كانت سلطة رؤوساء القبائل الى جميع توابعها : بطونها وافخادها اينما كانوا ، وكانت لهم انظمة خاصة بالحرب والغزوات التي تنشب فيما بينهم يتداولها ويتقبلها الجميع عن طيب خاطر(٤٥) .

اضافة الى ما تقدم فقد وضح باقر ايضا بأنه في عصر فجر السلالات امتاز بنشوء نوع من نظام الحكم امتازت بالانظمة الديمقراطية البدائية(الشورى). ومما لاشك فيه ان تنظيم العمل والجهود ابان نمو الحضارات يتطلب ادارة وقيادة اتسمت بالحزم والمواهب والقابليات للسيطرة على البشر وهذا هو الذي نعنيه بالنظم الاجتماعية(٤٣) .

هذا وذكر صموئيل كريمر ... علينا ان لانتعجب ان يكون السومريون اول من سن القوانين والشرائع ليعرف كل فرد حقوقه وواجباته بوضوح ولتجنب عدم الفهم وسوء التفسير والتصرف الاعتباطي(٤٤) . لقد اعتبر تنظيم الري عند كثير من الباحثين المختصين عاملا بالغ الاهمية في احداث قوة التماسك الاجتماعي والتماسك السياسي(٤٥) .
وما من المميزات الاساسية للمجتمع الريفي ، ولاعجب في ان اقدم الشرائع

المعروفة في العالم ظهرت في العراق وهي تتناول بالدرجة الاولى واجبات الفلاح وعلاقته بالذين يتصلون بالمسلك الزراعي الذي يعتمد على الري ٠

من تدريسنا لمادة المجتمع الريفي نركز على قوة التماسك الاجتماعي بين ابناء الريف وان هذا التماسك يظهر من المساعدة التي يقدمها الفلاح للبعض الاخر عند الحصاد او عند بناء الدار في القرية او عند عمل تقوية السدود الوقتية لدرء الفيضان ٠٠٠ الخ ٠

هذا وان قوة التماسك الاجتماعي تظهر عند الخروج على الاعراف والتقاليد وذلك لمعرفة ابناء المجتمع الريفي لكافة الساكنين من الريف وهذا ما نطلق عليه بالضبط الاجتماعي غير الرسمي ولمعرفة كل فرد للافراد الاخرين وسيادة علاقة الوجة للوجة ، اذ في حالة خروج اى منهم عن القيم والتقاليد والعادات سيلاقون النبذ أو الاحتقار أو الازدراء من أبناء مجتمعهم وهذه من اهم صفات المجتمع الريفي ٠

وكذلك من تدريسنا لمادة المجتمع الريفي نركز ايضا على تفهم الطلبة للمنظمات الاجتماعية المتعددة ، كالمؤسسات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والصحية والدينية ونهتم بالتغييرات الحاصلة على هذه المؤسسات ومنها سيادة الانظمة والقوانين التي تشرعها الدولة لهذه المؤسسات المتعددة وهو ما نعبر عنه بالضبط الرسمي والتي فيها يخضع الفرد للردع بتطبيق القوانين حسب ما ارتكبه من خروج على الاعراف والتقاليد السائدة والتي تتمثل باجهزة الشرطة والامن لحفظ الاستقرار والطمأنينة لذلك المجتمع ٠

٤ ـ الضيافة في الريـف :

في الزمن السابق كان يحاول الشيخ الريفـــي ان يتشبه بالشيخ البدوي في جميع قيمه واخلاقه · فهو يؤكـد ان يكون شجاعا ، كريما ، يحمي الجار والضعيف ، ويجلس في المضيف ليحل مشاكـــل قبيلته ، وكان هو يقود القبيلة في الحرب ويمثلها في المفاوضات ·

ان المضيف الريفي ليس خيمة كبيرة كما هو الحال في الصحراء ، بل هو كما وصفه سيتن لويد يشبه الهياكل السومرية القديمة ، حيث ينتهـــي آنذاك من القصب والطين ويكون طوله وعدد حناياه حسب مكانـة الشيخ وتقاليد اسرته · والشيخ كان لايجوز له ان يستأجـر عمالا محترفين لبناء مضيفه بل يجب ان يطلب من ابناء قبيلته ان يتعاونوا في بنائه وليس على الشيخ الا تقديم الطعام لهم اثناء البناء ·

في المضيف الريفي والبدوي كانت تقدم القهوة حسب القواعـــد المتعارف عليها ، وفيه يقدم الطعام لكل ضيف مهما كان · وكلما كان الضيف رفيعا في مكانته الاجتماعية كثر عدد الذبائح التي كانت تنحر له · واذا سمع اهل القرية رنين الهاون التي تدق فيها القهوة ادركوا ان هناك ضيفا حـل في مضيف شيخهم فيتهافتون للسـلام عـــلى الضيف وهـم يتوقعون ان يشاركوا في طعامه احتراما لـه ·

ان اهل القرية يتمنون ان يكون الضيف رفيع الشأن لكـــي يكون الطعام المقدم لهم وفيرا وهم عندئذ سينعمون بتناول اللحم والرز وغيرها من افانين الطعام الدسم الذي لم يعتادوا ان يتناولوه في بيوتهم الا نادرا ·

لقد كانت سمعة الشيخ الريفي ترتفع وتشيع اخبارها كلما كان طعامه في

المضيف ادسم واوفر . لقد ذكر محمد باقر الجلالي في «موجز تاريخ عشائر العمارة» عن شيخ البو محمد ان ارض مضيفه بقيت بعد وفاته لمدة ثلاثين سنة لاينبت فيها اى نبات لكثرة ما اريق فيها من السمن (الدهن) اثناء تقديم الطعام للضيوف .

وهناك اسرة من آل فتلة اشتهرت بأسم (البو هدلة) وقد جاءتها هذه الشهرة لان الطعام كان يهدل من الصحون التي كانت تقدم في مضلفها(٤٦) .

الخلاصة :

يتضح من مقارنة السمات العامة والمقومات الاساسية للمجتمع الريفي منذ اقدم العصور لتأريخ العراق القديم وما تم تثبيته من المختصين بدراسة علم الاجتماع الريفي في الوقت الحاضر لخصائص وصفات المجتمع الريفي يثبت اهتمام العراقيين القدامى بنشؤ وتطور المجتمع الريفي آنذاك . كما ان اكبر دليل على ذلك هو الرجوع الى اقدم خارطة توضح نمط الحياة الريفية السومرية على الصفحة (١٨) ، حيث ان هذه الخارطة قد وضحت تفاصيل نمط حياة المجتمع الريفي وذكرت نصا العبارة السابقة (المجتمع الريفي) من منطقة نيبور اضافة الى التفاصيل المذكورة على تلك الخارطة .

ان اهتمام العراقين القدامى بهذا المجتمع منذ الالف الرابع قبل الميلاد ، اذ نشأت آنذاك حضارة وادي الرافدين والتي كان يطلق عليها اسم

(ميسوبوتيميا) اى ما بين النهرين • كما ان ما جسدته مسلة حمورابـــي يبين مقدار النضج الذي توصل اليه الفكر بالمجتمع الريفي في الرافديـن بما احتوته من تشريعات دقيقة ومتنوعة • كما أن العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة وما عكسته من القيم والعادات والتقاليـــد وانماط السلوك يمكن الاعتماد عليها من تمييز المجتمعات الريفية من العصور السابقـــة • وبذلك امكننا التوصل الى ايجاد السمات العامة التالية للمجتمع الريفي العراقي منذ ذلك الزمن وهي :

- التأثـر بالبيئة •
- الحرفة او المهنـة •
- العزلة النسـبية •
- عدم التخصص في العمل الزراعـي •
- سيادة العمل الزراعي •
- التعـــاون •
- الصراع والتنافـس •
- الفـوارق الاجتماعيـة •
- بساطة المؤسسات الاجتماعيـة •
- التماسك الاجتماعي والنظم الاجتماعية •

المصـــادر :

١ ــ الجواهري ، د. محمد واخرون : دراسة علـم الاجتماع . سلسلة علم الاجتماع المعاصر : الكتاب الثالث عشر . دار المعارف بمصـــر الطبعة الثانية ١٩٧٥ .
٢ ــ احمد ، د. علي فؤاد : علم الاجتماع الريفي . مكتبة القاهرة الحديثة الطبعة الثالثـة ١٩٦٦ .
٣ ــ الهاشمي ، رضا جواد : نظام العائلة في العهد البابلـي القديـــم مطبعة الاداب في النجف الاشرف ، ١٩٧١ .
٤ ــ اضواء على بعض الجوانب المهمة في الزراعة العراقية ــ الجزء الاول . وزارة التخطيط ــ بغداد ١٩٧٣ .
٥ ــ ايمار ، اندريه ، وجانين ابوابة : الشرق واليونان القديمة : نالله الى العربية فريد /م. داغر وفؤاد ابو ريمان . منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٤ .
٦ ــ الوردى ، د. علي : دراسة طبيعة المجتمع العراقي . مطبعة العالمـي ١٩٦٥ .
٧ ــ باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، الوجيز في تاريـخ حضارة وادي الرافدين ، الجزء الاول ، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، العراق ١٩٨٦ .
٨ ــ باقر طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة . القسم الاول مـــن تأريخ العراق القديم ، الطبعة الثانية ، شركة التجارة والطباعـــة المحدودة ، مطبوعات دار المعلمين العالية ، بغداد ١٩٥٥ .
٩ ــ باقر طه ، مقدمة في ادب العراق القديم ، دار الحريـــة للطباعـة ،

مطبعة رقم ١/ ١٩٧٦ ·
١٠ـ جماعة من علماء الاثار السوفيت : العراق القديم : دراسة تحليلية لاحواله الاقتصادية والاجتماعية ،ترجمة سليم طه التكريتي، ١٩٧٦·
١١ـ سوسة ، د· احمد : العرب واليهود في التأريخ · حقائق تأريخية تظهرها المكتشفات الاثارية · وزارة الاعلام · مديرية الثقافة العامة، دار الحرية للطباعة مطبعة الحكومة ، ١٩٧٢ ·
١٢ـ سوسة ، د· احمد ، الرى والحضارة في وادى الرافدين·الجزء الاول· مطبعة الاديب البغدادية / ١٩٦٨ ·
١٣ـ دكلة ، د· محمد عبد الهادي واخرون : المجتمع الريفي ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ ·
١٤ـ كريمر ، س ، ن : هنا بدأ التأريخ حول الاصالة في حضارة وادي الرافدين ١٩٨٠ ·
١٥ـ كريمر صمويل نوح· السومريون، تأريخهم وحضارتهم وخصائصهم· ترجمة الدكتور فيصل الوائلي ، جامعة الكويت · الناشر وكالة
١٦ـ ملحمة كلكامش ، ترجمها عن الاكدية وعلق عليها الدكتور سامى سعد الاحمد استاذ التأريخ القديم في كلية الاداب جامعة بغداد دار الجيل ، بيروت · دار التربية ، بغداد ، ١٩٨٤ ·
١٧ـ ولديورانت : قصة الحضارة · الجزء الاول من المجلد الاول نشأة الحضارة ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود · اختارته وانفقت على ترجمته الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الرابعة ·
مطابع النجوى ، القاهرة ـ عابدين ، ١٩٧٣

(١) الجواهري ، د.محمد . دراسة علم الاجتماع/١٩٧٥ ، ص١٤٥ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة /١٩٧٣ ، ص٣ .

(٣) الهاشمي ، رضا جواد ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم/١٩٧١ ص١٠ ـ ١١ .

(٤) الهاشمي ، رضا جواد . نظام العائلة في العهد البابلي القديم/١٩٧١ ص١١ ـ ١٢ .

(٥) باقر ، طه : مقدمة في ادب العراق القديم/١٩٧٦ ، ص١٣ .

(٦) الهاشمي ، رضا جواد ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم/ ١٩٧١ ، ص١٢ ـ ١٥ .

(٧) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات : ١٩٥٥ ، ص٧٥ ـ ٧٦ .

(٨) سوسة ، احمد . الـرى والحضارة في وادى الرافديـن/١٩٦٨ ، ص١١ ـ ١٢ .

(٩) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين /١٩٨٦ ، ص٤٤ .

(١٠) سوسة ، احمد ، الري والحضارة فـــي وادي الرافدين/١٩٦٨ ، ص١٣ ـ ١٤ .

(١١) ايمار ، اندية ، الشرق واليونان القديمة : ١٩٦٤ ، ص١٣٣ .

(١٢) ديوانت ، قصة الحدارة : ١٩٧٣ ، ص١١ ، ١٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

(١٣) جماعة من علماء الاثار السوفييت «العـراق القديـم» /١٩٧٦ ، ص١٨٩ .

(١٤) سوسة احمد ، الري والحضارة في وادي الرافديـــن/١٩٦٨ ، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

(١٥) سوسة احمد ، المصدر نفسه ، ص٢٠٥ ـ ٢٠٩ ٠

(١٦) جماعة من علماء الاثار السوفييت ٠ العــراق القديـم /١٩٧٦ ، ص٢٣ ٠

(١٧) سوسة احمد ، الري والحضارة في وادي الرافديـن ،: ١٩٦٨ ، ص٢٠٥ ـ ٢٠٩ ٠

(١٨) اضواء على الجوانب المهمة في الزراعـة العراقيـة الجـزء الاول ـ وزارة التخطيط بغداد ـ ١٩٧٣ ، ص٣ ـ ٥ ٠

(١٩) باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات /١٩٥٥ ، ص٤٠ و٤٥ ٠

(٢٠) سوسة احمد ، الري والحضارة في وادي الرافديـــن /١٩٦٨ ، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

(٢١) سوسة احمد ، الرى والحضارة في وادى الرافديــــن /١٩٦٨ ،

(٢٢) سوسة احمد ، الـرى والحضارة في وادى الرافديـــن /١٩٦٨ ،

(٢٣) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات : ١٩٥٥ ، ص٤٣ ٠

(٢٤) باقر ، طه ، المصدر نفســه ، ص٤٦ ٠

(٢٥) الهاشمي ، رضا جواد ٠ نظم العائلة في العهد البابلي القديـم/ ٨١ ١٩٧١ ، ص١٣٩ ـ ١٤٥ ٠

(٢٦) باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات ، ١٩٥٥ ، ص٣٢ و٣٣٠

(٢٧) جماعة من علماء الاثار السوفييت «العراق القديم» ١٩٧٦، ص٣٦٠

(٢٨) كريم ، صموئيل : السومريون تأريخهم وحضارتهم وخصائصهم ، ١٩٧٣ ، ص٥٠٤ ٠

(٢٩) دكلة ، د٠ محمد عبدالهادي : (المجتمع الريفي) ١٩٧٩ ، ص٢٦٤٠

(٣٠) احمد ز ، د٠ علي فؤاد : علم الاجتماع الريفي ، ١٩٦٦ ،ص٥٧ ٠

(٣١) باقر ، طه مقدمة في تاريخ الحضارات ، ص٤٣ ٠

(٣٢) باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات ، ١٩٥٥ ، ص٤٤ ٠

(٣٣) ملحمة كلكامش ، ١٩٨٤ ،ص١٤ ٠

(٣٤) سوسة ، احمد : الري والحضارة في وادي الرافدين /١٩٦٨ ، ص١٨ – ٢٠ ٠

(٣٥) الوردى ، د علي : دراسة طبيعة المجتمع العراقي ١٩٦٥ ، ص٣٥ – ٣٦ ٠

(٣٦) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات/١٩٥٥ ، ص٤٩ ٠

(٣٧) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات/١٩٥٥ ، ص٤٥ ٠

(٣٨) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات /١٩٥٥،ص٤٠٣ – ٤٠٥٠

(٣٩) الهاشمي ، رضا جواد : نظام العائلة في العهد البابلي القديم : ١٩٧١ ص١٢ – ١٥ ٠

(٤٠) الهاشمي ، رضا جواد : المصدر السابق / ص١٢ – ١٥ ٠

(٤١) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات /١٩٥٥ ، ص٣٧٤و٢٨٤٠

(٤٢) سوسة ، احمد : العرب واليهود في التأريخ /١٩٧٢ ٠ص (غ) ٠

(٤٣) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات/١٩٥٥ ، ص٧٤ و١٠١ ٠

(٤٤) صمويل كريم مر ٠٠٠ ص٤ – ٥ ٠

(٤٥) سوسة ، احمد : الري والحضارة في وادي الرافدين : ١٩٦٨ ، ص٣٠ ٠

(٤٦) الوردي ، د٠ علي : دراسة طبيعة المجتمع العراقي /١٩٦٥ ٠

ترشيد الاستهلاك
في الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي

الدكتورة امل عبدالحسين السعدي

قسم الدراسات التاريخية /معهد الدراسات القومية

والاشتراكية ,الجامعة المستنصريـة

المقدمة

ان سياسة ترشيد الاستهلاك قضية اقتصادية معاصرة ، لها مردودات ايجابية على مختلف الاصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية • فـاذا ماطبقت مفاهيمها بشيء من الوضوح الفكري مع الرؤيا المستقبلية لكشف نتائجها لتمكنت المجتمعات من تجنب الكثير من المشاكل الناجمة عـن التفاوت الكبير في مستويات الانفاق السائد فيها ، وليصل المجتمـع بواسطتها الى منتهى الحالة من الاستقرار • ولاهمية هذا الموضوع فقـد تـم التركيز على هذه السياسة وفق نظرة ومفهـوم الفكر الاقتصادي العربـي الاسلامي وتم الرجوع في ذلك الى مصـادر متباينة في اختصاصهـا نظرت الى الموضوع كل بحسب الزاوية التي تصدت لتوضيحها ضمن حدود ترشيد الاستهلاك •

من هذه المصادر المعتمدة هو كتاب « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » لمسكويه • نجد ان المعلومات التي قام بطرحها تبين وجهة نظر فلسفية نحـو مكارم الاخلاق التي يجب ان تسود المجتمعات في حالة تطبيق مبدأ الترشيد الاقتصادي •

اما الماوردي فقد عرض الموضوع بشكل فقهي بحكم علمه واختصاصـه بهذا العلم وكما هو معروف عن كتابه « الاحكام السلطانية والولايات الدينية » •

وكان الغزالي مصدرنا الثالث الذي جاء تركيزه على الترشيد من باب الزهد وذم المال بحسب رؤيا المتصوفين اليها ، وبحكم الاتجاه الـذي

اعتمده في كتابه « احياء علوم الدين » •

اما المصدر الرابع والاخير الذي اعتمد عليه في طرح المادة فهو ابن خلدون في مقدمته المعروفة • حيث نظر الى الموضوع من زاوية مفكر اجتماعي يحلل الاوضاع القائمة وفقا للسياسة الاقتصادية المتبعة على المستويين الرسمي والشعبي •

واخيرا نود ان نبين ان البحث قد خصص لبيان سياسة ترشيد الاستهلاك على مستوى الافراد والجماعات فقط ولم نحاول الخوض في مجال ترشيد النفقات العامة الخاصة بالدولة العربية الاسلامية حيث تم فرد بحث آخر خاص بها •

اولا — معنى الترشيد :

الترشيد سمة اقتصادية رصينة تتمثل فيها كل المعاني الدينية والانسانية • فهي تقود المجتمع نحو الامثل وتمنع حدوث واستفحال المعضلات فيه ، وترتقي بالذات الانسانية نحو السمو والفضيلة • وتعبير الرشيدة او الرشيد كما جاء في معاجيم اللغة هي حسن التقدير والتدبير • فقد قال ابن منظور(١) بصدد توضيح ذلك «الرشيد •• هو الذي تنساق تدابيراته الى غاياتها على سبيل السداد من غير اشارة مشير ولا تسديد مسدد» ويستشف معناها ايضا من قول الزبيدي في تاج العروس(٢) في باب رشد عن فحوى الرشيد مايلي : «هو الذي حسن تقديره فيما قدر» •

وقد جاء توضيح عملية ترشيد الانفاق في عدد من الايات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة • فنجد ان القرآن الكريم قد حدد سبل الرشاد في العيش بأن جعله مفترقا للطريق ما بين الاسراف والتبذير وبين البخل والتقتير وكلاهما صفات مذمومة عند الخالق والمخلوق • كما في الاية الكريمة

«الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر »[٣] والايه «ولا تسرفوا انــــه لايحب المسرفين »(٤) • وقال الله تعالى في البخل والتقدير الذي يكمن فيه اخفاء نعم الله اذ انه سبحانه يحب ان يرى عبــاده وما تكان هــذه النعــم الا في الفضائل الانسانية والرؤيا الاجتماعية الى مشاركة المسلم لمن حوله مــن الاخرين بما يقدمه المال والخير الذي انعمه الله عليــه • فقــد قال الله تعالى في ذلــك في ســورة النساء : «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مبينا»[٥] •

وبين هذا وذاك يشيد القرأن الكريم باوسطها ، بمن جعل نفقته على قدر حاجته فلا هو مسرف فيها ولا مقتر عليها ، بل تزكو نفسه لاقـــل حاجاتها • اذ قال الله تعالى : «والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولــم يقتروا وكان بين ذلك قواما»[٦] • والاية الكريمة «يسألونك ماذا ينفقون قـــل العفو»[٧] • والعفو الوارد في هذه الاية الكريمة هــو الترشيد في النفقات حيث جاء في تفسير هذه الاية ان العفو هو «التوسط من النفقة ما لم يكن اسرافا ولا اقترا» • وفسر العفو ايضا على انه «اليسير من كــل شيء» • واورد صاحب تفسير جامع البيان معاني اخرى للعفو تدور جميعها ضــمن هذا المعنى[٨] •

كذلك الحال في الحديث الشريف فقد اكد الرسول (ص) على صــفة الالتزام في النفقة والابتعاد عن الغلو والتفريط فيها او الحــرص عليها • حيث قال (ص) : « من اقتصد اغناه الله ومن بذر افقره الله » • وقال أيضا «اذا اردت امرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل اللــه لـــــك فرجا ومخرجا • والتؤدة في الانفاق من أهم الامور(٩) • وفي السنن وضمن باب الاقتصاد

في طلب المعيشة ، ابن ماجة الى بعض من احاديث الرسول (ص) فيها • منها قوله (ص) : «اجملوا في طلب الدنيا فأن كلا ميسر لما خلق له» وقال (ص) ايضا : «لابأس بالغنى لمن اتقى والصحة لمن اتقي خير من الغنى وطيب النفس من النعيم»(١٠) •

وقدم الغزالي تحليلا فلسفيا لمعنى الترشيد الذى اورده بصيغة الرشد ، بين فيه انها فضيلة ونعمة الهية يستهدي بها الفرد للوصول بالنفس الانسانية نحو السعادة والسداد حيث قال : «واما الرشد فنعني به العناية الالهية التي تعين الفرد عند توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتقتره على ما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال الله تعالى ـ ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ـ فالرشد عبارة عن هداية باعثه الى جهة السعادة محركة اليهـا»(١١) •

ومن الصيغ المرادفة للترشيد التي تشير اليها المصادر هي الكفاية والقناعة • فالكفاية تصل بالترشيد الى الحد الضروري من سبل المأكل والملبس والمسكن • وقد جاء تفسير الكفاية في معاجم اللغة • ففي باب كفى تصدى ابن منظور لتوضيح الكيفية قائلا : « الكيفية ما يكفيك من العيش وقيل الكيفية القوت(١٢) • وجاء في تاج العروس ان الكفاف الرزق والقوت ما كف عن الناس واغنى•• ونفقته الكفاف أي ليس فيها فضل » القنوع يكون بمعنى الرضا والقانع بمعنى الراضي •• والقنوع الرضا كصيغة مكملة الى الكفاية ، لان القناعة هي الرضا بالنزر اليسير • وقد ذلك الشخص قانعا بها بكونها ايمانا واحتسابا • وازاء ذلك جاءت القنعة انما عنده ما يكفيه عن الناس »(١٣) •

ولايمكن اعتبار الكفاية سبيلا ومنهجا لحياة اى شخص ما لم يكن ذلك الشخص قانعا بها بكونها ايمانا واحتسابا •

وازاء ذلك جاءت القناعة كصيغة مكملة الى الكفاية لان القناعة هي الرضا بالنزر اليسير • وقد وضحت المعاجم اللغوية معنى القناعة • حيث قال صاحب لسان العرب : « القنوع يكون بمعنى الرضا والقانع بمعنى الراضي ••• القنوع الرضا باليسير اي العطاء »(١٤) • وجاء في تاج العروس ان « القنوع قد يكون بمعنى الرضا أي بالقسم اليسير من العطاء(١٥) •

وفي الاية القرآنية التالية نجد صورة مكتملة لمفهوم القناعة وابعادها المستقبلية وانعكاساتها على واقع الحياة التي يحياها الانسان وان القناعة تذكي في الانسان طول الصبر وقصر الامل وبها تمتحن ارادة الفرد وتحتسب اعماله • اذ قال الله تعالى في سورة النحل : « من عمل صالحا من ذكر وانثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(١٦) • وجاء في تفسير هذه الآية ان « فلنحيينه حياة طيبة بأن نرزقه القناعة » واكمل الطبري تفسيرها في مكان اخر حيث اردف قائلا : « من قال تأويل ذلك فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة وذلك ان قنعه الله بما قسم له من رزقه لم يكثر للدنيا تعبه ولم يعظم فيها نصيبه ولم لم يكثر للدنيا تعبه ولم يعظم فيها نصيبه ولم يتكدر فيها عيشه باتباعه بقية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لايدركة فيها (١٧) » •

استنادا الى ذلك تصبح عملية ترشيد الانفاق او الاستهلاك عملية محمودة ومدروسة تسير وفق نسق متكامل ، تبدو النفس الانسانية فيها ذات سطوة تغلبت على حاجاتها وملذاتها وامست مؤشرا على حقيقة قدراتها في الضبط والحكمة ووضع الامور في المكان الذى يجب ان توضع من حيث ما يبرز من خلالها الخير والصلاح لعموم المجتمع • وبناء على ذلك فقد اولى المفكرون المسلمون عملية ترشيد جانبا كبيرا من اهتماماتهم وتصدوا لبيان

اركانه وقدموا في ذلـــك اراء ومسيمات وتحليلات واستنتاجات بصددهـا تدرو جميعها في فلك واحد تعبر عن الرؤيا الدينية للنفس الانسانية نحو الالتزامات الاجتماعية والاقتصادية في المحيط الاجتماعي ·

ثانيا ـ مسكويه والترشيد :

نجد مسكوية (٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) حين يتكلم عن الترشيد فانـــه يحدده بمعنى السخاء المشفوع بالقناعة ، على اعتبار ان قدرة الفرد الذاتية التي تقوده للسخاء يجب ان تنبعث من قوة داخلية مكنونة في قرارة النفس تعين صاحبها على النظرة الى امور الحياة بعين القبول والرضا ، لايلتفت فيهـا شمالا ولا يمينا ، ولا يكون توافقا الى ما تلوج فيه النفس الانسانية نحـو الرحب المندفعة باتجاه الحاجات الكثيرة والمتعددة التي لاتقف عند حدود ، ولا سبيل الى تداركها الا بالقناعة المؤطرة بالرضا والشعور بالسعدة بما حصل ، عليه وبما ينفق منه وحينذاك يضحي الانسان فيها شاكرا ومتعبدا فاذا ما رجعنا الى تعريف السخاء عند مسكويه نجد يقول : « السخاء فهـو التوسط في الاعطاء وهو ان ينفق الاموال في ما ينبغي على مقدار ما ينبغـي وعلى ما ينبغي »· اما القناعة فتعني عنده : « التساهل في ا المآكل والمشارب والزينة .» (١٨) · وفي معرض حديثه عن السخاء نراه يشير الى الفضائـل المنبعثة منه وذات السمة الانسانية التي يتدارك فيها الانسان عن ســـد حاجاته الى تقديم المساعدة للغير بما يكفل السعادة لكلاهما نفسه ونفســـ غيره على حد سواء · من هذه الفضائل الكرم ، ويعتبره مـــن الفضائـــل المدروسة والمستحكمة حيث يقوم العقل فيها عـــلى المفاضلة بين الحاجات وحدود الانفاقات فيولي اعمها فائدة اهتماما منطلقا في ذلك من مسببات اقتصادية رشيدة حيث ان الكرم عند مسكويه : « انفاق المال الكثير بسهولة

من النفس في الامور الجليلة القدر الكثير النفع » .

ومن فضائل السخاء « الايثار » وتتجلى في الايثار قيمة معطيات النفس الانسانية وانعكاساساتها الايجابية على المحيطين بها ، وتعبر عن سمو المبادىء والاهداف التي تلتزم بابقائها هذه النفس أو تلك . فالايثار .. فضيلة للنفس يكف الانسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه » . ثم فضيلة النيل ، وهذه الفضيلة تعبر عن مكنون السعادة التي يحصل عليها الانسان من جراء الاقدام على عمل الخير حينما يتحدد الانفاق على الامور الجليلة العظيمة القدر فقط . فيمكن هنا التوازن بين النفقات والاعمال ، لان النيل يعني : « سرور النفس بالافعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة » . اما الفضيلة الرابعة فهي فضيلة المواساة وهي تنطلق من تعزيز المشاركة الوجدانية القائمة بين الفرد والافراد الاخرين المحيطين به ضمن حدود الانفاقات الرشيدة التي يلتزم بها الفرد . اذ عرف مسكوية المواساة بأنها « معاونة الاصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الاموال والاقوات » . اما فضيلة السماحة فقد عرفها « بأنها بذل بعض ما لايجب » . والفضيلة السادسة هي المسامحة التي تنطلق من مؤشرات ومفاهيم عقلية تعبر وبشكل حاسم عن قوة العزيمة الانسانية حيث ان المسامحة تكمن في « ترك بعض ما يجب والجميع يكون بالارادة والاختيار »(١٩) .

وعندما يتكلم مسكوية عن السخاء فانه يعني السخاء الملتزم بمبادىء رصينية فيها الانسان غير الفضيلة والثواب ، وما تعدى ذلك فانه يرى

ان كل انفاق خارج هذه المبادىء لا تعتبر ترشيدا للنفقات بل انها تقود الى استخلاص منهجيات وغايات يرتئي منها الانسان الحصول على امور خارج نطاق الفضائل الانسانية ، لان مثل هذا ارلانفاق يحاول فيه الفرد بذل أمواله في شهواته طلبا للسمعة والرياء أو تقربا الى السلطان أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمه واولاده • وقد يكون مدفوعا بدافع الرغبـــة في الاستزادة من الربح والمال • (٢٠) •

ومن المبادىء المركزية الاخرى التي تصدى لتنفيذها مسكوية هـو الربط بين الترشيد والسعادة • حيث اعتبر ان الترشيد لايكمن في الانفاق فقط بل في السبل المتبعة والكيفية التي يتم فيها اقتناء الاموال ومدى قناعة الفرد في ذلك وقد اطلق عليه رزق الكفاية • فمن ارتضى بالقليل منها ، قاده هذا الرضا الى العيش على قدر كفايته ، ومن دار في خلده وسيطر عليه عامل الطمع والحرص شغل حياته كلها في طلب الاموال والاستكثار منها واضحى سبيله في الحياة كمن يجري وراء السراب فلا حصل له القليـل فسعد واقتنع ، ولا اقتنى المكثير فرضي واقتنع ولنرى قول مسكوية (٢١) في تحليل هـذه المسـألة : « لمن رزق الكفـاية ووجـد التقصـد من السعادة الخارجة ان لايشغل بفضول العيش فأنها بلا نهاية ومن طلبها اوقعته في مهالك بلا نهاية لها ••• ان الغرض الصحيح بينهما (الكفاية والقصد) هو مداواة الالام والتحرز من الوقوع فيها لا التمتع وطلب اللذة وان من عالج الجوع والعطش اللذين همـا مرضان حادثان لاينبغي له ان يقصد لذة البدن بل صحته » • وقال بصدد من لم يقتنع برزق الكفاية واما من يرزق الكفاية واحتاج الى السعي والاضطراب في تحصيلها فيجب ان لايتجاوز القصد وقدرمنها حاجته الىمايضطر معه الىالسعيالحثيثوالحرص

الشديد والتعرض لقبيح المكاسب او ضروب المهالك والمصاعب بل يجعل في طلبها اجمال العارف بخساستها (٢٢) ٠

ووفق سياق موضوع الترشيد ، نرى مسكويه ينظر الى موضوع النفقات من زاوية اخرى ضمن تصديه الى قضية ادب المطاعم حيث بين ان مسألة تنظيمها تعتبر ظاهرة صحية تقتضي بالابتعاد عن بعضها ، والتركيز او الاقتصار على ذات النفع العام لصحة البدن ٠ وقدم لذلك تعليلا فلسفيا لدور الطعام في حفظ الصحة حيث قال (٢٣) ٠٠ ان الاغذية تجري مجرى الادوية يداوى بها الجوع وألم الحادث منه ٠ ونعرض ان تصبح مادة للحياة فأن الضرورة تقتضي بالحكمة في تناولها والاقتصاد على المحدود منها اذ قال : « ٠٠ الاطعمة ما ينبغي ان يتناول منها الا ما يحفظ صحة البدن ويدفع الم الجوع ويمنع من المرض فيحتقر عنده قدر الطعام الذي يستعظمه اهل الشرة ٠٠ » (٢٤) ٠

ثم اشار الى الفضائل المتحققة من الكفاية والقصد ودورها في شيوع الافعال الكريمة المؤدية الى سبل الخير والرشاد حيث بين : « فقد يصل الى الفضيلة من ليس بكثير المال ٠٠٠ فأنما الفقير من المال ٠٠ قد يفعل الافعال الكريمة ٠٠ ان السعداء هم الذين رزقوا من الخيرات الخارجة عنهم وفعلوا الافعال التي تقضيها الفضيلة »(٢٥) ٠

ثالثا ـ الترشيد عند الماوردي :

اما الماوردى (ت، ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) فأنه يفسر الترشيد على انه محدد بحد الكفاية ، وربط هذا الحد بالاسس المالية المعتمدة في الدولة العربية الاسلامية فيما تتعلق بحقوق الزكاة وتوزيع العطاء ٠

يتعرض الماوردى ضمن تصديه لحد الكفاية الى فريضة الزكاة من

حيث جبايتها ولاسس المعتمدة في توزيعها • ويستشف من خلال تعرضه لتعريف الزكاة نوع الترشيد الذى يكمن في فرضها اذ انه حدد سبل جبايته قائلا : « والزكاة تجب في الاموال المرصدة للنماء اما بأنفسها أو بالعمل فيها طهرة لاهلها ومعونة لاهل السهمان » (٢٦) حيث ان الاموال المرصدة للنماء سوف تحقق لصاحبها ربحا يضاف الى اصل رأس المال وهذا التراكم المستمر في الارباح سوف يضحى من الامور قد تدفع صاحبها باتجاه التبذير والاسراف على وجه العموم • وبما ان المبادىء الدينية توجب المشاركة فيها لتغطية حوائج الناس ، وعليه فانه في حالة وجوب الزكاة سيذهب جزء من هذه الارباح الى جماعة ذكرهم الله في محكم كتابه العزيز في سورة التوبة » (٢٧) انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله لاعليم حكيم ج »• فيكون هذا الجزء بمثابة ترشيد لصاحبها تدخل ضمن مجال المبادىء والفضائل التي يجب الالتزام بها وجاء في تفسير هذه الاية الكريمة ان للصدقة مضامين ترشيدية للنفقات تأخذ جوانب اجتماعية والاقتصادية ودينية وسياسية • فهي تعمل على توثيق عرى العلاقات الانسانية بين المسلمين من خلال حلقات التطبيق لفرض الصدقة أو الزكاة التي شكلت القاعدة التي يرتكز « ان الله جعل الصدقة في معنيين احدهما سد خلة المسلمين والاخر معونة الاسلام وتقويته » • وقد وضع الماوردي حد الكفاية للاصناف الموزعة عليهم الزكاة اذ انه يحقق حصولهم على الحد الضروري من المعيشة • وحد الكفاية الذى يفنده الماوردى يختلف من بلد الى اخر بحسب طبيعة البلاد الاقتصادية

ومستوى الاسعار السائدة في اسواقها بيقول عند تفسيره لحد كفاية المسكين والفقير : « المسكين اسوأ حالا من الفقير رهو الذى اسكنه العدم فيدفع الى كل واحد منهما اذا اتسعت الزكاة فيخرج به اسم الفقر والمسكنة الى ادنى مراتب الغنى وذلك معتبر بحسب حالتهم فمنهم يصير بالدينار الواحد غنيا اذا كان من اهل السوق يربح فيه قدر كفايته فلا يجوز ان يزاد علية ومنهم من لايستغني الا بمائة دينار فيجوز ان يدفع اليه اكثر منه ومنهم من يكون ذا حيلة يكتسب بضاعته قدر كفايته فلا يجوز ان يعطى وان كان لايملـــــك درهما »(٢٩) .

وعلى ضوء هذا الاساس يرى الماوردى ان الغاية او الهدف من توزيع الزكاة هو الوصول بالشخص المعني الى مرتبة الكفاية للحد الضروري الذى يكفل له العيش الكريم من غير حاجة أو تنعم ، ووفقا لذلك فقد حدد المستوى الاقتصادي للاصناف المعنية بعد توزيع الزكاة واعتبرها بخمسة اقســـام وفق الشكل التالي : قسم منها قد استوفى الحاجة ووصل الى حد الكفايـــة من غير زيادة ونقصان فلا يجوز اعطائهم مبالغ اخرى على اعتبار انهم قـــــد « خرجوا بما أخذوه من أهل الصدقات وحرم عليهم التعرض لها » . اما القسم الثاني فأن الاموال الموزعة عليهم لم تصل بهم الى حد الكفاية وهنـــا تقتضى الامور باحالتهم الى ذلك الحد حيث قال : « وقسم الثاني ان تكون مقصرة عن كفايتهم فلا يخرجون من اهلهـــا ويحاولون بباقـــي كفايتهـــم على غيرها » . ويقع في القسم الثالث تفاوت في نسبة حد الكفاية فيها لاختلاف الحد الافقي لمستوى دخولهم « لانها قد تكون كافية لبعضهم مقصرة عن الباقين فيخرج المكتفون عن اهلها ويكون المقصرون على حالهم من اهـــل

الصدقات . وهناك قسم من هذه الاصناف الثمانية قد وصل جميع المشمولين به الى حد الكفاية ووجد بعد ذلك فضل من المال من اصل المبلغ المقرر توزيعه على هذا الصنف ، فحينئذ يبدى الماوردى رأيه قائلا : « واقسم الرابع ان تفضل عن كفاية جميعهم فيخرجون من اهلها بالكفاية ويرد الفاضل من سهامهم على غيرها من اقرب البلاد اليهم » . ووضع الماوردي القسم الخامس في ان الاموال المقرر يمكن لها ان تغطي بعض الاصناف ويحصل فضل فيها . حين ان هناك عجز في الحصة المقررة على بعض الاصناف الاخرى بلا تكفل لاصحاب تلك الفئة من الوصول الى الحد الضروري من الدخل فيؤخذ من ذلك الصنف ليضاف الى حصة هؤلاء ليتقرر بعدها الحد الضروري أو حد الكفاية من الدخل الذي يضمن المعيشة السوية لصاحبها(٣٠) .

وبعد توضيح حد الكفاية للزكاة تصدى الماوردى الى مسالة توزيع العطاء والارزاق التي كانت تحل محل الرواتب الجارية في وقتنا الحاضر وضمن هذا التفسير اشار اولا الى وجه المسببات السياسية والاقتصادية التي تقع وراء توزيع العطاء والتي تكمن في توفير حماية متطلبات الدفاع القومي وتوفير العيش الكريم للقاتلين وعوائلهم حيث قال : « حتى يستغني بها عن التماس مادة تقطعه عن حماية البيضة » . والكفاية التي اشار اليها الماوردى هنا معتبرة بثلاثة وجوه :

١ ـ عدد الافراد الذين يعيلهم المقاتل من الذرارى والمماليك .

٢ ـ عدد ما يرتبطه من الخيل والظهر .

٣ ـ المستوى الاقتصادى للمكان الذى يقيم فيه المقاتل . ويتحدد المستوى الاقتصادى بمعدل الاسعار السائدة التي تتفاوت بين الرخص والغلاء بين فترة واخرى سواء كان ذلك في القوت او الكسوة .

هذه المعايير الثلاثة غير ثابتة وهي معرضة للتغير سنويا بموجب احتساب كل ركن فيها وفق التغييرات الحاصلة ؛ عدد افراد عائلته وخيله ومكان اقامته • وينظر المسؤولين في هذه الامور ويتقرر العطاء السنوي الجديد بازاءها • فان حصلت زيادة فيزداد العطاء بازائها وعلى العكس ان كان الحاصل هو النقصان فينقص العطاء على نفس هذا السياق •

وتطرق الماوردي الى مسألة زيادة العطاء عن الحدود المقرر وهو حد الكفاية واختلاف الفقهاء في تقريرها • فالامام ابو حنيفة قد اباح الزيادة ان كانت اعتمادات بيت المال كافية وقادرة على تحمل مثل تلك الزيادة ونسبتها • اما الامام الشافعي فقد اعترض على ذلك وضع من تقرير اية زيادة فيهامهما كانت نسبتها او مبرراتها حيث قال : « لان اموال بيت المال لاتوضع الا في الحقوق اللازمة » • وبصدد التعويض عن الخسائر التي تلحق المقاتل من جراء موت الدابة او تلف السلاح فقد اورد الماوردي وجهة نظر الفقهاء بهذا الخص وقال : « اذا نفقت دابة احدهم في حرب عوض عنها وان نفقت في غير حرب لم يعوض • واذا استهلك سلاحا فيها عوض عنه وان لم يكن يدخل في تقدير عطائه ولم يعوض ان دخل فيه (٣١) •

كان ذلك فيما يخص العطاء ، اما في الارزاق فان حد الكفاية قد احتسب فيه بالقدر من القوت الذي يؤمن بالوصول الى درجة سد الحاجة الى الطعام • وقد قدرت هذه الكمية في خلافة عمر بن الخطاب (رض) وفق طريقة سليمة وواقعية رصينة • اذ امر الخليفة بجلب جريب من الطعام ، فتم طحنه وخبزه وثرده • واحضر ثلاثين شخصا دعوا الى اكله في وجبة الغداء حتى شبعوا وعمل من ذلك العشاء • ايقن الخليفة بعد ذلك ان الجريب الواحد يكفي لاشباع ثلاثين شخصا في كل وجبة طعام فقال : « يكفي الرجل جريبان في كل شهر • وكان يرزق الرجل والمرأة والمملوكة جريبين في كل شهر »(٣٢) •

رابعا ـ مفهوم الترشيد عند الغزالي :

اما الغزالي (ت ٥٥٠هـ/١١١١م) فأشار الى مبدأ القناعة واعتبرها الفيصل القاطع في تحديد الانفاق وعرفها قائلا انها « الرفق في الانفاق وترك الخرق فيه » • مستشهدا في ذلك بالحديث الشريف : « طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به »(٣٣) • ثم ربط بين الانفاق وحالة القناعة التي يسمو بها اثر الفرد نحو احتساب نفقاته المرتبطة بحالته المالية • فالقناعة عنده صفة كامنة عند الغني والفقير • فالفقير الذي لا يسمح دخله بالنفقة كما يجب وينبغي ، عليه ان يكون قانعا بحالته وحدود نفقاته ، غير ملتفت الى ما في أيدي الاغنياء » ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك الا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن » • ويقوده هذا المبدأ الى شراء واقتناء أقل الاشياء نوعية وقدرا • وهذه جميعها مؤشرات لحالة الترشيد الاقتصادي الذي يطلق عليه الغزالي تعبير « عز القناعة »(٣٤) •

وأشار الغزالي الى عز القناعة عند الاغنياء ومن يجري مجراهم من أصحاب الاموال ، فقال ان قناعة هؤلاء تقودهم الى « الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق ، وبين أيضا : « فمن أراد عز القناعة فينبغي ان يسد عن نفسه أبواب الخروج ما امكنه ويرد نفسه الى ما لابد له منه » • واما من كانت نفسه تواقة الى سعة الانفاق لاتساع ماله وربحه فأن القناعة وعزها ليست من شيمه وتضحى بعيدة عنه وغريبة عن اطواره(٣٥) •

لقد بين الغزالي السبل والكيفية التي يتم بها اكتساب القناعة ذلك بأن يكون الانسان في قرارة نفسه تواقا لها عارفا بحدودها وابعادها ومآثرها اذ قال بهذا الصدد : « ان يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الحرص والطمع من الذل فاذا تحققت عنده ذلك انبعثت رغبته الى القناعة لانه في الحرص لا يخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذل وليس في القناعة الا الم الصبر عن الشهوات والفضول »(٣٦) • وتكتسب القناعة بأمر آخر

هو سمة النظرة المستقبلية التي يتجه الانسان نحو تحقيقها • فالقناعة لا تكتسب هنا بالنظر الى من هم أكثر منه مالا بل في النظر الى من هم أقل منه درجة ومالا ، ويعينه على هذا الامر فضيلة « الصبر وقصر الامل » وان « يعلم ان غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرا طويلا »(٣٧) وينبغي على الاغنياء ان يتوجهوا الى بذل المال لا على انفسهم بل على الاخرين « فأذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس »(٣٨) •

وضمن هذا المجال تصدى الغزالي الى الفقر والزهد وبين اثرهما في استقرار النفس الانسانية من الناحية الاقتصادية والاجتماعية اذ بواسطتها سوف يتجنب الفرد المشاكل الناجمة من ظاهرة اقتناء الاموال والجري وراء تحصيلها فذكر بأنه لا « مطمع في النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها اما ان تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا »(٣٩) • ولتوضيح هذه العلاقة ، فقد انبرى لبيان درجات الفقر والزهد في المال وصنفها الى خمس حالات • الاولى الاحتراز من مخافة الجري في تحصيل المال « بحيث لو اتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من اخذه مبغضاً له ومحترزا من شره » وهذا هو شأن الزاهد في الانفاق والثانية فقدان الرغبة في اقتناء الاموال « بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهية يتأذى بها » • وهو في ذلك يمسى راضيا مرضيا بحياته وحدود انفقاقاته • اما الحالة الثالثة فهي عدم السعي في تحصيل المال واقتنائه ويكون في قرارة نفسه قانعا ايما قناعة سيان عنده ان اقتناه أو فقده وفي نفس الوقت ان « يكون وجود المال احب اليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ رغبته ان ينهض لطلبه بل ان اتاه صفوا عفوا اخذه وفرح به وان افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به » • اما الحريص فيقع ضمن الفئة التي تمثل الحالة الرابعة من الفقر والزهد • ويقصد بها عجز الفرد في الحصول على الاموال رغم سعيه ، وهو في ذلك تواقا لاقتنائه وان « يكون طلبه ولو بالتعب لطلبه او هو مشغول بالطلب » •

والحالة الخامسة هو الشخص المضطر الذي « يكون ما فقده مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب »(٤٠) ٠

ومن خلال تفنيد الغزالي لهذه الحالات الخمسة نراه يركز على حالتي الزهد والاضطرار ويضيف اليها حالة أخرى غير تلك الحالات الآنفة الذكر هي المستغنى انها في رأيه أعلى درجة من الزهد « وهي ان يستوى عنده وجود المال أو فقده ، فأن وجوده لم يفرح به ولم يتأذ وان فقده »(٤١) ٠

ان حياة الزاهد والمضطر والمستغني وفق منظور الغزالي تسير بنسق ديني واجتماعي تحدده مبادىء ثابتة تنظر الى الحياة على انها عطاء وليس اخذ وعطاء ٠ وتستلزم هذه الحالة بالوصول الى المعيشة والانفاق بحد الكفاية فقط ، وتوجيه النظر نحو حاجة المجتمع وافراده الى ما في أيدي القادرين عليه مهما كان المبلغ زهيدا لانه سيجلب السعادة للنفس البشرية لكلا الواهب والموهوب وهذا هو قمة ترشيد الانفاق ٠

وضمن هذا السياق أيضا ، أشار الغزالي الى فضيلة الفقر المشفوعة بالقناعة ، واورد عدد من الاحاديث النبوية التي تدلل على ذلك ٠ حيث قال النبي الكريم (ص) : « من أصبح منكم معافا في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »(٤٢) ٠

وعندما تكلم الغزالي عن الشخص الغني في باب « فضيلة السخاء » فأنه أكد على ذلك الشخص الذي تسير حياته وفق مسار حسن التدبير نحو منح الصدقات والخيرات » فأذا أراد الله بعبد خير استعمله في قضاء حوائج الناس » واحتج كذلك بقول الرسول (ص) : « اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في اكنافهم فأني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فأني جعلت فيهم سخطي »(٤٣) ٠ وبحدود هذا المجال قدم الغزالي تحليلا للترشيد الانفاقي على وجه العموم حيث يرى ان « للمنفق حالتان

تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد » • وهنا ينبغي ان يتجه الانسان نحو المجالات التي تبرز ذاته الانسانية على المدى المستقبلي لواقع الخير العام والشامل المتحقق من جرائه والذي يطلق عليه ـ الغزالي بالخيرات المؤبدة • وتقع ضمن هذه الخيرات الاموال المنفقة على بناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الحباب في الطرق(٤٤) •

وبين محصلة الفقر والغنى والزهد أشار الغزالي الى الانعكاسات السلبية لمسألة حب المال وسبل تحصيله وتأثيرها على واقع العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراد المجتمع التي سوف يعتريها الكذب والرياء والنفاق لان « من كثر ماله كثرت حاجته الى الناس ومن احتاج الى الناس فلابد ان ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم »(٤٥) • ثم تتبع الغزالي سمة هذه العلاقات المشفوعة بالحسد والحقد والكبر والنميمة والغيبة ، وأكد على مردوداتها الاقتصادية كل حسب مجال عمله حيث قال : « صاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبته وخصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود وخصومة اعوان السلطان في الخراج وخصومة الاجراء على التقصير في العمارة وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم ، وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل ••• وهكذا سائر أصناف المال »(٤٦) •

خامسا ـ الترشيد عند ابن خلدون :

اما ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) فقد اتخذ في مقدمته مسارا آخر عند تصديه لمبدأ الترشيد ، حيث أشار بين مضامين فصول هذه المقدمة الى الخشونة وشظف العيش من جهة ، والى الترف والنعيم من جهة أخرى • وربط هذه المسائل بالظروف البيئية وسبل المعيشة التي يحياها كل من البدو والحضر • وبعد ان يمتدح حياة البدو الموسومة بالخشونة والعصبية ، ويتخذ موقفا من أهل المدن المتنعمين في معيشتهم يطرح مقارنة بين الاثنين يستشف منها على معنى ترشيد الانفاق الاستهلاكي الذي يعرفه بمعنى

المقدار الضروري من المعيشة فقط والذي لا يداخله شيء آخر منافيا له اذ قال : « واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم (اهل الحضر) الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها »(٤٧) • ونجده يؤكد في مكان آخر على ضرورات العيش وخشونته التي تكمن في النزوع الى ترك « رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية »(٤٨) • وازاء ذلك فقد تعرض ابن خلدون لحياة الترف بالتفصيل بين أبعادها ومخاطرها السياسية على حاضر الامة ومستقبلها واستخلص ملاحظات واحكام ربطها بمسببات اقتصادية اعتبرها العامل الحاسم الذي يقود الدولة نحو الهرم والسقوط • فقد تصدى لهذه المسالة في فصل « في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم » • اذ بين ان اقبال الافراد نحو النعيم والكسب وخصب العيش ومن ثم حرصهم على التانق في المباني والملابس يجعلهم يالفون حياة الترف واقتناء الرياش • ان هذه المستجدات سوف تقضي على الشيم الاصيلة للمجتمع « فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة » • فتتضاءل على اثرها المعنويات العسكرية في ذلك الجيل والاجيال المتعاقبة لاعتيادهم على سبل المعيشة المترفة • ويستمر هذا الضعف الى ان « تتعرض العصبية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء ••• واذا انقرضت العصبية وقصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم »(٤٩) •

ثم تطرق ابن خلدون في مكان آخر الى مخاطر انغماس السلطة الحاكمة في الترف والنعيم لانه يؤشر وبشكل حاسم على قوتها السياسية • حيث قام بطرح عدد من المسائل المركزية التي توضح اقتران سقوط الامم بحالة ترف حكامها في فصل خصصه لبيان هذا الجانب تحت عنوان « في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة

اقبلت الدولة على الهرم »(٥٠) • بين فيه ان للترف انعكاسات فاعلة على واقع الانفاق العام لانه يقضي بصرف النظر عن التفكير في وضع الخطط الرصينة التي يسترشد فيها بالانفاق ، فيختل على اثرها الميزان الحسابي وينعدم التوافق المطلوب بين الايرادات والنفقات • وقال ابن خلدون بصدد تفسير هذه الظاهرة الخطيرة : « تزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم »(٥١) • ثم يستطرد مبينا انه يجب في حالة قلة الموارد ان يتوجه المتوفر منها اولا نحو الجانب العسكري الذي يمثل رمز كيان الدولة وعنوان قوتها • غير ان ولوج الدولة بالترف يجعلها تستبعد هذا المبدأ ويجدى بها الامر في الاقدام على خصم نسبة النفقات المقررة على الجيش في ميزانيتها « فتضعف الحماية لذلك وتسقط الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول »(٥٢) • ويطرح ابن خلدون نهجا آخر تتخذه بعض الدول المنغمسة في النعيم كوسيلة أخرى لتلافي النقص الحاد في ميزانيتها وكسبيل لتلافي المشكلات الناجمة من جراء تخفيض النفقات العسكرية ، بأن تتجه الى مسألة أخرى لا تقل خطوزة عن الاولى وفيها النهايية الحتمية لها ذلك هو انها تقبل على استحداث روافد أخرى للايرادات تكمن اما باستحداث ضرائب أو بزيادة نسبة جبايتها ، وفي هذه الحالة تخلق معضلة جديدة حيث يعم السخط والاستياء العام بين أبناء الشعب ، ويكون نذيرا آخر بسقوطها(٥٣) •

وضمن سياق حديث ابن خلدون وتصديه لموضوع الترشيد ، فأنه قد أشار في مقدمته الى العلاقة التي تربط الاسعار السائدة في أي مجتمع من المجتمعات بنوع سياسة الانفاق التي يرتئيها أهل أي مصر من الامصار • حيث ذكر ان اقبال الناس على طلب واقتناء الحاجيات سواء كانت الكمالية منها مثل « الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني •• » أو الضرورية الخاصة بالقوت اليومي ، سوف يؤدي الى اختلال

التوازن المفروض بين عمليتي العرض والطلب الذي يتحدد طبقا لاقبـــال الناس وكمية المعروض منها في الاسواق « فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها(٥٤) فيحصل من جراء ذلك ارتفاع هائل في الاسعار ومشاكل اقتصادية تشتد طبقا لشدة الاقبال عليها أو على العكس عند الحد منها • ويوضح بعـد ذلك النتائج السلبية الاخرى الناجمة من جراء اقبال الناس على الانفاق العمودي باتجاه الحاجيات الكمالية بعد ان يمسي ذلك المصدر كثير العمران عظيم الترف حيث ستكثر « حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الاعمال كلهـا مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها » •

فأذا ما اعتقدنا ضمنا باتجاه معاكس لذلك اذا ما انتهج الناس سبيل الرشاد في نفقاتهم الاستهلاكية ، فسوف تسود الاسواق حالة من الاستقرار النسبي وحدوث التوازن المرجو بين عمليتي العرض والطلب ، وهذه قادرة في حقيقتها على وضع حد للمشكلات الاقتصادية الناجمـــة من الممارسات والتطبيقات غير الرشيدة في مجال النفقات الاستهلاكية لبعض أفراد المجتمع أو جميعه على وجه العموم(٥٥) •

اذا ما انتقلنا الى بيان الجوانب التطبيقية لمبادىء وسبل الترشيد التي فندها المفكرون المسلمون نجد ان رؤيا الافراد لها كانت متباينة فهناك جماعة اتخذت التدبير منهجا ومنطلقا لها في الحياة وكانت القناعة والرضا مسلكها واستمرار ديمومة أعمالها وخلود ذكرها • وتحفل كتب التراث بالاشارة الى نمط معيشتهم وايثار الغير على انفسهم • ولعل خير من يمثل ذلك هو الرسول (ص) الذي عمل على اذكاء هذا السلوك وتعميق معانيه ففي كتب التراث وصف دقيق لمبدأ ترشيد الانفاق الخاص بالرسول الكريم (ص) • منها ما جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : « كنا آل

محمد صلى الله عليه وسلم لنمكث شهرا ما نستوقد بنار ان هو الا التمر والماء »(٥٦) ٠

لقد أخذ الصحابة بسياسة الرسول (ص) وأضحى الترشيد سبيلا لهم للوصول الى طيب حياة القناعة والتخلص من كدر السعي وراء الدنيا وحياتها الفانية ٠ منها على سبيل المثال لا الحصر ما تتسم به حياة الخليفة عمر بن الخطاب والتي وصلت الى حد الكفاية في الطعام والشراب والكسوة حيث انه كان يقول : « يحل لي حلتان ، حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما أصبح عليه واعتمر من الظهر وقوتي وقوت اهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم »(٥٧) ٠ كذلك ما ذكرته المصادر عن زهد وقناعة الخليفة عمر بن عبدالعزيز اذ لبس الخشن واتخذ التعفف هداية ومسلكا له منذ توليه الخلافة ووضح ابن سعد هذا الامر قائلا(٥٨) : « كان عمر بن عبدالعزيز من اعطر الناس والبس الناس واخيلهم مشية ، فلما استخلف قوموا ثيابه بأثنى عشر درهما ٠٠ »(٥٨) ٠

وضمن سياق تطبيقات سبل ترشيد الاستهلاك اشارت المصادر الى حياة الفقيه البصري محمد بن واسع (ت ١٢٣هـ/٧٤١م) من انه كان « يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج الى احد »(٥٩) ٠ كذلك ما ذكر عن قاضي الرشيد معاذ بن معاذ من انه كان يقسم ايراده الضئيل على مدى شهور السنة ويصرف منها بحد الضرورة بما يسد مسدها(٦٠) ٠

قلنا بأن مسيرة الناس نحو الترشيد الاستهلاك متباينة منهم من اتخذ هذا المسلك نهجا في الحياة باعتبارها منظور ديني واجتماعي لكن هناك فئة من الناس لم تسلك هذا المسلك الا بعد ان عركها الزمن وتكالبت عليها المشاكل وصقلتها الحيـاة حيث تعرضت الى أنواع من المحـن والمشاكل واضحت بعد ذلك تنظر الى وجوب ترشيد نفقاتها على انه ايمانا واحتسابا

وضمانا لها في المستقبل . وبصدد توضيح ذلك فقد أشار التنوخي الى شخص كانت سنته في الحياة تقوم على بذل المال والعيش تحت كنف الدنيا وملذاتها حتى آل الدهر اليه بالفقر والمسكنة فتلقى من ذلك درسا قاسيا جعله يتجه الى التزام مبدأ يقوم على الترشيد والتدبير يكمن في الاقتصار على الحد الضروري من الاكل والفرش والركوب وقد وصف حاله قائلا : « ... فأن الحال لا تحتمل الاسراف .. انا الان في نعمة متوسطة وما قد افدته من العقل والعلم بأمر الدنيا واهليها يسليني عما ذهب مني وهذا .. فرشي وآلتي ومركوبي .. لم يكن ذلك بالعظيم المفرط ففيه ... تنعم وكفاية وهو يغنيني عن الاسراف والتخرق والتبذير وقد تخلصت من تلك الشدة »(٦١) .

يبدو من ذلك كله ان ترشيد الاستهلاك سبيل رصين في الحياة يسلكه كل من يبتغي السكينة والسعادة ومن يهبه الله القناعة والرضا وأخيرا خير ما نختتم به هذا البحث هو قول الجاحظ الذي بين الانفاق محدد بوسيلة الكسب اذا كان ذلك حلالا أو على العكس منه حيث قال : « ان كسب الحال مضمن بالانفاق في الحلال وان الخبيث ينزع الى الخبيث وان الطيب يدعو الى الطيب »(٦٢) .

ـ الخلاصة ـ

لقد تبين من خلال ما تم طرحه من اراء وافكار ان مسالة ترشيد الاستهلاك مسالة اقتصادية هامة وذات مؤشرات تكشف حقيقة التكافل الاجتماعي الذي ينبغي ان يسود العلاقات الانسانية . وقد كشف البحث ان لترشيد الاستهلاك اثر فاعل على جوانب متعددة من حياة الافراد والامم .

وان هذه الجوانب قد بينها المفكرون المسلمون كل بحسب موضوع اهتمامه ضمن الزاوية التي تصدى لتوضيحها . فنجد ان مسكويه قد نظر الى ترشيد

الاستهلاك نظرة عقلانية فيها تقويم لخلق الافراد وتكوين الفضائل المستديمة المتعارف بفعاليتها بين الافراد ، وهذا واضح من خلال تصديه لموضوع السخاء والفضائل المقترنة به • فيمكن القول بأن دعوة مسكويه لسياسة الترشيد كانت تكمن في الغاية التي ابتغاها في سبيل ارساء قواعد مجتمع مثالي متوازن اقتصاديا ومتكامل اجتماعيا وهذا ما تضمنه كتابه « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » •

اما الماوردي فانه نظر الى الترشيد بصيغة حد الكفاية أو الحد الضروري من المعيشة منطلقا في طرح أفكاره من خلال منظور فقهي لواقع الاسس التنظيمية للجوانب المالية وبعض مستجداتها في فترة مبكرة من تأسيس الدولة العربية الاسلامية ، ومتخذا في ذلك قضية الزكاة ، ضوابط جبايتها وتوزيعها ، والعطاء ومقاييسه الاقتصادية كأساس لتوضيح جوانب حد الكفاية التي ابتغى طرحها في كتابه « الاحكام السلطانية والولايات الدينية » •

واذا ما انتقلنا الى طروحات الغزالي فنجد يركز على الموضوع من خلال نظرة متصوف يحث على تبني الزهد في الحياة والقناعة والرضا بالشيء اليسير التي تقع ضمن حدود الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق وهذه هي سمات عملية ترشيد الاستهلاك التي دعى اليها الغزالي وحدد مكانتها بين التقصير والاسراف لكل من الفقير والغني فكانت عز القناعة هي النقطة المركزية التي أراد طرحها الغزالي من خلال تصديه لهذا الموضوع في كتابة احياء علوم الدين • وقد جرى التركيز فيه على الاغنياء القادرين على التوسع في النفقة على ان لا يكون هذا التوسع على المآكل والملبس والمسكن بل على حب الخير ودعوتهم على تنفيذ المشاريع ذات الخيرات المستديمة كالمساجد والاربطة والمدارس وهذه بحكم منفعتها العامة سوف تجلب السكينة والسعادة الابدية للنفس الانسانية •

اما ابن خلدون فأن نظرته الى الترشيد تمثل نظرة مفكر اجتماعي قام بربط حياة البداوة المتسمة بالخشونة وحياة الحضـــر الموسومة بالترف والنعيم بمسائل سياسة هامة ذات نظرة مستقبلية ذات عـــلاقة بأسباب وعوامل قيام الامم وسقوطها ٠ فبين ان في الترف والنعيم مردودات سلبية على الجوانب العسكرية والاقتصادية ٠ فيسود في الاولى التخاذل والجبن وضعف المعنويات القومية وترافق الثانيـــة مشاكل اقتصـــادية مستديمـــة وكلتاهما نذيرا مبنيا بسقوط هذه الامة أو تلك ٠ في حين يكمن في الخشونة وشظف العيش الشجاعة والدفاع والاستبسال في سبيل الدفاع عن الارض والوطـــن ٠

وهكذا نجد ان عرض مسألة ترشيد الاستهلاك قد جاء وفق اربعة محاور هي الفلسفة (الاخلاق) والفقه والتصوف وعلم الاجتماع وجميعها تدور حول نقطة واحدة غايتها ارساء قواعد مجتمع رصين قدير خالد بمبادئه وأهدافه الانسانية ٠

الهوامش :

(١) لسان العرب ، ج٣ (بيروت لا٠ت) ص١٧٥ ، باب رشد ٠

(٢) ٣٥٢/٢ ، باب رشد ٠

(٣) سورة التكاثر ، آية ١ ٠

(٤) سورة الانعام ، آية ١٤١ ٠

(٥) سورة النساء ، آية ٣٦ ٠

(٦) سورة الفرقان ، آية ٦٧ ٠

(٧) سورة البقرة ، آية ٢١٩ ٠

(٨) الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان في تفسير القرآن م٢ (القاهرة ، ١٣٢٣هـ) ص٢١٣ ٠

(٩) الغزالي ، محمد بن محمد ، احياء علوم الدين ، ط٣ (القاهرة ١٣٤٧) ص٢٠٩ ٠

(١٠) ٧٢٤/٢ ، ٧٢٥ ٠

(١١) احياء علوم الدين ، ٩٤/٤ ٠

(١٢) اللسان ، ٢٢٧/٥ ٠

(١٣) الزبيدي ، ٢٣٦/٦ باب كف ٠

(١٤) ابن منظور ، ٢٩٨/٨ مادة قنع ٠

(١٥) الزبيدي ، ٤٨٦/٥ ٠

(١٦) آية ٩٧ ٠

(١٧) جامع البيان ، ١١٤/١٤ـ١١٥ ٠

(١٨) تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق (بيروت ، ١٣٩٨هـ) ص٤١ـ٤٢ ٠

(١٩) ن٠م ص٤٣ ٠

(٢٠) ن٠م ص١٠٦ ٠

(٢١) ن٠م٠ ص١٥٦ ٠

(٢٢) ن٠م٠ ص١٥٦

(٢٣) ن٠م٠ ص٧١ ٠

(٢٤) ن٠م٠ ص ٠

(٢٥) ن٠م٠ ص١٤٩ ٠

(٢٦) الاحكام السلطانية والولايات الدينية (بيروت ، ١٩٧٨م) ص١١٢ ٠

(٢٧) آية ٦٠ ٠

(٢٨) جامع البيان في تفسير القرآن ، ١/١١٣ ٠

(٢٩) ن٠م٠ ص١٢٢ ٠

(٣٠) ن٠م٠ ص١٢٤ ٠

(٣١) ن٠م٠ ص٢٠٥ـ٢٠٦ ٠

(٣٢) ن٠م٠ ص ٠

(٣٣) احياء علوم الدين ، ٤/١٧٢ ٠

(٣٤) ن٠م٠ ٢/٢٠٥ـ٢٠٦ ٠

(٣٥) ن٠م٠ ص٣/٢٠٨ ٠

(٣٦) ن٠م٠ ٣/٢٠٩ ٠

(٣٧) ن٠م٠ ٣/٢١٠ ٠

(٣٨) ن٠م٠ ٣/٢١١ ٠

(٣٩) ن٠م٠ ٤/١٦٤ ٠

(٤٠) ن٠م٠ ٤/١٦٤ ٠

(٤١) ن٠م٠ ص ٠

(٤٢) ن٠م٠ ٤/١٦٥ ٠

(٤٣) ن٠م٠ ٤/١٦٩ ٠

(٤٤) ن٠م٠ ٣/٢٠٣ـ٢٠٤ ٠

(٤٥) ن٠م٠ ٣/٢٠٥ ٠

(٤٦) ن٠م٠ ص ٠

(٤٧) المقدمة (القاهرة لا·ت) ص١٦٩ ·

(٤٨) ن·م· ص١٦٧ ·

(٤٩) ن·م· ص·١٤٠ـ١٤١ ·

(٥٠) ن·م· ص١٤٨ ·

(٥١) ن·م· ص١٦٨ ·

(٥٢) ن·م· ص١٦٩ ·

(٥٣) ن·م· ص١٦٨ ·

(٥٤) ن·م· ص٣٦٣ ·

(٥٥) ن·م· ص٣٦٤ـ٣٦٥ ·

(٥٦) ج١٧ (القاهرة ، ١٩٧٢م) ص١٠٦ ·

(٥٧) ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع البصري ، الطبقات الكبرى ، ج٣ (بيروت ، ١٩٥٨م) ص٢٧٦ ·

(٥٨) الطبقات ، ٥/٤٠٢ ·

(٥٩) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٣/٢٠٧ ·

(٦٠) وكيع ، محمد بن خلف بن حيان ، اخبار القضاة ، ج٢ (بيروت ، لا·ت) ص١٣٩ ·

(٥٩) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٣/٢٠٧ ·

(٦٠) وكيع ، محمد بن خلف بن حيان ، اخبار القضاة ، ج٢ (بيروت ، لا·ت) ص١٣٩ ·

(٦١) الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي · ج٢ (بيروت ، ١٩٧٨) ص٣٨٦ ·

(٦٢) البخلاء ، منشورات مكتبة النهضة (بغداد ، لا·ت) ص١٤ ·

المصادر :

التنوخي ، المحسن بن علي بن محمد (ت ، ٣٨٤هـ/٩٩٤م) • الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي • دار صادر (بيروت ، ١٩٧٨م) •

الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ، ٢٥٥هـ/٨٦٨م) •
البخلاء •
منشورات دار النهضة (بغداد ، لا•ت) •

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ، ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) •
المقدمة ، المكتبة التجارية (القاهرة ، لا•ت) •

الزبيدي ، محمد مرتضى (ت ، ١٢٠٥هـ/١٧٩١م)
تاج العروس من جواهر القاموس •
(القاهرة ، ١٣٠٦هـ) •

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ، ٢٣٠هـ/١١١١م)
الطبقات الكبرى (القاهرة ، ١٣٤٧هـ) •

الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد (ت ، ٥٠٥هـ/١١١١هـ)
احياء علوم الدين (القاهرة ١٣٤٧هـ) •

الطبري ، محمد بن جرير (ت ، ٣١٠هـ/٣٩٢٢)
جامع البيان في تفسير القرآن • (القاهرة ، ١٣٢٣هـ) •

ابن ماجه ، عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ، ٢٧٥هـ/٨٨٨م) •
السنن ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة ، لا•ت) •

الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ، ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)

الاحكام السلطانية والولايات الدينية (بيروت ، ١٩٧٨م) ،
مسكويه ، أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (ت ، ٤٢١هـ/١٠٣٠م) ٠
تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق (بيروت ، ١٣٩٨هـ) ٠
ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ، ٧١١هـ/١٣١١م) ٠
لسان العرب ، دار صادر (بيروت ، لا٠ت) ٠
النووي ، يحيى بن شرف (ت ، ٦٧١هـ/١٢٧٢م) صحيح مسلم بشرح النووي ٠ (القاهرة ، ١٩٧٢م) ٠
وكيع ، محمد بن خلف بن حيان (ت ، ٣٠٦هـ/٩١٨م) ٠
اخبار القضاة ٠
عالم الكتب (بيروت ، لا٠ت) ٠

أثر قوانين حمورابي في الوثائق القضائية من نوزي

د. فاروق ناصر الراوي
جامعة بغداد ـ كلية الاداب
قسم الاثار ١٩٨٨

شهد الالف الثاني قبل الميلاد تدفق الاقوام الخورية على بلاد وادي الرافدين ، وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد تعاظم نفود هذه الاقوام واستطاعت تكوين دويلات لهـا في شمالي بلاد وادي الرافدين وفي شمال غرب سوريا ومشرق الاناضول .

ولعل ما وجد من نصوص مسمارية كثيرة في مدينة نوزي ومدينة أرنجا ومدينة كوروخاني خير شاهد على تواجد تلك الاقوام الغازية للمنطقة ان تلك النصوص المعروفة باسم نصوص نوزي والتي ينحصر زمنها بين نهاية القرن السادس عشر والقرن الرابع عشر قبل الميلاد . القت الضوء على الحضارة الخورية التي اقتبست اصولهـا من الحضارة العراقيـة القديمة ، لا سيما ما يتعلق منها بالخط والدين والقانون وحتى اللغـة والفن والعناصر الحضارية الاخرى(١) .

وعلى أية حال فان هذه النصوص لا تتضمن لوائح أو قوانين ولكنها احتوت على قضايا قانونية تخص القروض وعقود التبادل والتبني والاقرار وما الى ذلك . وعندما تناولنا مجمل هذه النصوص في دراستنا المستفيظة الخاصة برسالة الدكتوراه ، استطعنا من خلالها تكوين صورة واضحة عن العادات والقيم الاجتماعية . هذا فضلا عن تطور النظام القانوني الذي

يحكم تلك العادات والقيم ٠

ولنأخذ على سبيل المثال مكانة الزوجة الثانية (الأمة أو ما يعرف « أم ولد ») والتي وردت في قوانين حمورابي لاسيما المـادة ١٢٨(٢) والمادة ١٤٥(٣) هذا فضلا عن ورود كلمـة hirtum والتي تعني الزوجة المختارة في الفقرتين ١٣٧ و١٣٨ والتي تنم بشكل أو بآخر عن وجود فرق بين الزوجة الاولى « وأم ولد » ٠

اما في وثائق نوزي القانونية فنقرأ ان المـرأة ج اعطيت الى ش كزوجة ، وعند انجابها اطفالا فعلى ش ان لا يتزوج بأخرى ، ولكن عند عدم انجابها فان لـ ش الحق في الزواج من أمة Lulln ، او ربمـا antu (اي امة من اللولوبو) ، أما بالنسبة الى ابنائها فان ش لن يبعدهم(٤) ٠

ونقرأ في وثيقة أخرى ذكر في نهايتها « اذا كانت الزوجة عاقـرة يستطيع بعلها أخذ زوجة أخرى »(٥) ٠

وبالمقابل نجد في قوانين حمورابي المادة ٣٩ الآتي :

« يجوز له (أي الريدوم أو البائيروم أو الناشيء بيلتم) أن يقطع لزوجته أو ابنته أي من الحقل أو البستان أو البيت الذي اشتراه وحصل عليه ، وله أن يعطيه مقابل ما بذمته من التزامات(٦) ٠

ويطابق ذلك تقريبا ما ورد في الوثائق القانونية التي جاءتنـا من نوزي وأرنجا وكوروخاني لاسيما وثائق التبني Adoption :

ان باستطاعة المتوفى ترك ثروته لشخص يتبناه(٧) ٠ وفي وثائق أخرى نرى ان المتوفى ترك ثروته الى زوجته وأولاده(٨) ٠ ان مثل هذا الاجراء القانوني يطابق الى حد كبير ما جـاء في الفقرة ١٦٥ من قوانين حمورابي التي تنص على : « اذا أهدى رجل حقلا أو بستانا أو بيتا لابنه

المفضل في نظره · وكتب له بذلك رقيما مختوما ، فعندما يقتسم الاخوة (التركة) بعد ذهاب الوالد الى اجله ، عليه ان يأخذ الهدية التي اعطاها اياه والده ، وبالاضافة الى ذلك عليهم ان يتقاسموا أموال بيت الوالد بالتساوي »(٩) ·

وهذا ما يمكن ان تلمسه من خلال النصوص المسمارية المعروفة باسم شمتو Simtu (الوصية) التي جاءتنا من مدن نوزي وأرنجا وكوروخاني والتي ورد فيها : ان المدعو زيكي يستلم الهدية pistu لانه الوريث المفضل (aplisu sa insu nahru) وعلى بقية اخوانه عدم الاعتراض على مقاسمته لهم في بقية التركة (u ahhu nihutu ul izzuzzu) وبخصوص المدعو زيكي نفسه أو التي وجدت له وصية أيضا نقرأ فيها ان على ابنائه القسمة كل حسب حصته ودون التمييز بينهم ·

(u maru sa zikr ipalla ssunuti) ·· كما انه ترك حصة واحدة لزوجته · شريطة ان لا تعطيها الى رجل غريب (aweli nakari) (١٠) ·

ان هذا المثال يمكن ان نراه في مجموعة كبيرة من الرقم التي تعرف باسم tuppi simti · والتي جاءتنا من أرنجا ونوزي وكوروخاني(١١) · وعلى الرغم من المكانة الاجتماعية المرموقة آنذاك والتي حصلت عليها المرأة وحضيت بها في قوانين حمورابي وفي الوثائق القانونية من نوزي وأرنجا وكوروخاني ، ووصولا الى حد المساواة مع الرجل ، الا انه كان بالامكان ان تباع المرأة كأمة اذا ما وقع زوجها تحت ديون طائلة ·

وهذا ما يمكن أن يطابق الفقرة ١١٧ من شريعة حمورابي التي نقرأ فيها :

« اذا احرج رجل بسبب (حلول موعد) استحقاق الدين وباع (نتيجة ذلك) زوجته أو ابنه أو ابنته مقابل نقود او انه وضعهم تحت

عبودية (دائنه) ، فعليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو استعبدهم ثلاث سنوات وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة » ٠

وفي مثل هذا الوضع القانوني نجد ان المدعو لوكي باع ابنته كأمة الى تيختبـلا ووفق عقـد تبني يعـرف بتبني الابنـة أو الكنـه (martutu u kallatutu) وبموجب هذا العقد حق لتيختبلا اعطاءها زوجة الى شخص آخر يدعى اكبشاري(١٢) ٠

كنا قد تناولنا في مناسبات سابقة وجود مفاهيم تتعلق بالسلطة في العراق جعلت من تأليه الملك فكرة لا تتفق واتجاه بلاد وادي الرافدين الحضاري ، فالسلطة لم تكن بيـد شخص واحـد وانمـا بيـد المجلس puhrum الذي كان حائلا دون اتجاه الحكم الى الاوتوقراطية ، أي حكم الغزو الاستبدادي ، هذا فضلا عن وجود انعكاس لذلك على الآلهة التي لها مجالسها أيضا ٠

وهذا يوصلنا حتما الى النتيجة القائلة ان مصدر السلطة العليا هي الآلهة لاسيما تلك التي بيدها عناصر القانون الاساسية كالحق kittum والعـدل mesarum وحسب عقيدة العراق فان سيد الحق والعدل bel kittin u mestrlm هو الاله شمشي ومن القابه في شريعـة حمورابي : « القاضي العظيم للسماء والارض الذي أعطى بيده العدالة وبحق الى كل الاحياء من الناس »(١٣) ٠

ونعرف مثلا في حالة تضارب افادة الفرقاء المعنيين فان القاضي يطلب اداء اليمين أو الاحتكام الى النهر الالهي River ordeal ، حيث يلقى المتهم في النهر فأذا غرق فان ذلك دليل على كونه مذنبا اما اذا خرج سالما فانه بريء من التهمة(١٤) ٠

ولقـد ظل هـذا المبدأ قائما في العديد من العهود اللاحقة للملك حمورابي ٠٠ وما دمنا قد جددنا انفسنا باثر قانون حمورابي على الوثائق

القانونية الخورية من نوزي فسنعرض بايجاز لهذا المبدأ في قوانين حمورابي ثم نقارن ذلك مع ما وجد من نصوص مسمارية في منطقة نوزي ٠

وعلى الرغم من وجود مثل هذا التحكيم قبل عصر حمورابي ، الا اننا نجد أولى الاشارات القانونية له في شريعة حمورابي(١٥) ونقرأ في المادة الثانية من هذه الشريعة : « اذا اتهم رجل رجلا بتهمة السحر ، ولكنه لم يثبتها ، فعلى الذي اتهم بالسحر ان يذهب الى النهر ، وعليه ان يرمي نفسه في النهر ، فاذا غلبه النهر ، فعلى من اتهمه ان يستولي على بيته ، واذا اثبت النهر ان هذا الرجل بريء وخرج منه سالما ، فان الذي اتهمه بالسحر يعدم ، اما الذي خرج سالما من النهر ، فعليه ان يستولي على بيت متهمه »(١٦) ٠

« وتنص المادة ١٣٢ على الاتي » : اذا اشر بالاصبع على زوجة رجل بسبب رجل ثان ولكنها لم تضبط وهي تضاجع الرجل الثاني فعليها أن تلقي نفسها في النهر (لاثبات براءتها) لاجل زوجها » ٠

« اذا أسر رجل وكان في بيته الطعام (الكافي) فعلى زوجته ان تحافظ على نفسها (عفتها) مدة غياب زوجها ولا يحق لها من دخول بيت رجل ثان » ٠

« فاذا لم تحافظ تلك المرأة على عفتها ودخلت بيت رجل ثان ، فعليهم أن يثبتوا هذا على تلك المرأة ويلقوها في الماء »(١٧) ٠

وعلى أية حال يجب أن نميز بين هاتين الحالتين والحالات الاخرى الواردة في شريعة حمورابي والتي تنص على اعدام المذنب بالغرق بالنهر والتي وردت في المواد (١٠٨) بحق السابيه Sabitu الخائنة ، (١٢٩) بحق المرأة الخائنة لزوجها ، و ١٣٣ بحق المرأة غير الطاهرة ، و ١٤٣ بحق المرأة التي لا تحترم زوجها ، و ١٥٥ بحق الرجل الذي يزني بزوجة ابنه ٠

أما في الوثائق القانونية من منطقة نوزي فعرف التحكيم بالنهـر الالهي hursanu ووجد في أكثر من سبع عشرة وثيقة لاثبات تهم مختلفة يتعلق بالاستيلاء على حيوانات أو أشجار أو اثاث منزلية أو أموال غير منقولة • وغالبا ما يرد بالصيغة التالية :

« بخصوص كلمتهم سيذهبون الى (تحكيم) نهر خورشان »(١٨) •

assum a-wa-ti an-na-tu Ina IDhur-sa-an i-il-la-kn-u

ومن الاثار الواضحة لشريعة حمورابي في الوثائق القانونية الخورية ، أسماء رجال القضاء وموظفي دور العدالة وواجبات كل واحد منهم • فالملك كان المرجع الاعلى للقضاء كما هي الحال في قوانين حمورابي •• ويأتي بعد الملك القضاة الذين كان قرارهم قطعيا في حالة عدم رفع القضية أمام الملك نفسه • وهناك أيضا مجالس قضاء في المدن المختلفة وفي بواباتها احيانا أخرى كما هي عليه الحال في بلاد بابل ابان حكم الملك حمورابي • هذا فضلا عن وجود الشهود ، والكتبة والنادلين والمتخصصين باحضار المتهمين وشهود الاثبات والعارفين بمسح الاراضي المتحرين المتخصصين بفحص العقود وما الى ذلك • ومن الملاحظ ان معظم ان لم يكن كل اسماء تلك الحرف أكدية لكنها مشوبة ببعض التكملات الصوتية أو الصيغ النحوية الخورية(١٩) •

كما قمنا ببحث سابق لنا بتناول موضـوع يتعلق ببعض الفقرات القانونية الاخرى ونقصد بذلك موضوع « الاعتداء والايذاء » الحاصل على الافراد والذي تقصيناه منذ أقدم العصور التأريخية وحتى الوقت الحاضر، ويمكن الرجوع اليه في مجلة سور (العدد ٣٨ ، ١٩٨٢) •

وختاما يمكننا القول وبثقة ان القوانين العراقية القديمـة ، التي أخذت طريقها الى بلدان أوربا بواسطة الاقوام الحثية والخورية وغيرها

من الاقوام الهندية الاوربية ، ان تلك التشريعات والقوانين الاصيلة أثرت في مجمل القوانين اللاحقة لها ، وما القوانين اليونانية ٠٠ الرومانية الا حلقة وصل بين الحضارة العراقية القديمة والحضارات القديمة الاخرى من جهة وبين حضارة عصـــرنا الحاضر(٢٠) ولنا في ذلك مقال آخـــر انشاء الله ٠

قدم ملخص البحث في الندوة العالمية

عن قوانين حمورابي

- الهوامش -

1 — AL-Rawi, Farouk M. H., Studies in the commorial life ol an Adminstative area of Eastern Assyria in the fiftcenth Century B.C., Based an Pulished and un puhlished Cuneiform Texts, ph. b, uc. c., u.h, 1977.

2 — Driver, G. R. and Miles, J. C., The Babylonian laws, 2 vols, Oxford, 1968, p. 246.

3 — Driver and Miles, op. cit, p. 297.

4 — Speiser, E. A., "Ney kirkuk Dacuments Relating to family taws", AASOR, x, (1930) p. 31f.

5 — Speiser, op. cit., p. 59. No. 26 and 28.

6 — Driver and Miles, op. cit., p. 24-25.

7 — Speiser, op. cit., pp. 13-18.

8 — Speiscr. op. cit., pp. 49-50.

٩ — رشيد ، فوزي ، الشرائع العراقية القديمة ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٧٩ .

10 — Speiser, op. cit., p 49ff.

11 — Beich R., Nuzi Last wills and Testameuts, Ph. D., dissertation, Brandeis unirersity, U.S.A. 1963.

12 — Gordon, G. H., "Fifteen Nuzi Tablets Relating to Women", La Maseon. RAO, XLVIII, 1935, p. 117f. See also: Occomiskey. The status of the secondary wife: Its Development., Ph. D. Dissertation, Rrandeis Lniversity, U.S.A. 1965.

١٣ـ الراوي ، فاروق ناصر ، « القانون الجنائي والنظام العقابي في شريعة حمورابي » ، مجلة دراسات في التأريخ والاثار العدد (٦) ٠
انظر كذلك : .

Driver and Miles, op. cit., vol. I, p. 36f and vol 2, pp 6ff.

41 — Driver and Miles, op. cit., col. I, 494ff.

51 — Licbermen, A. I, Studies in the Aneient Wacr East During the Second Millennium B. C., Ph. D., Brandeis university, U.S.A., 1969, pp. 9f.

61 — Driver and Miles, vol, 2, p. 13.

١٧ـ رشيد ، فوزي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ٠

١٨ـ حول مزيد من النصوص المسمارية التي جاءتنا من نوزي والخاصة بالتحكيم بواسطة النهر الآلهي انظر :

Lieberman, op. cit., pp. 44-99.

91 — Hoyden, R. E., Court Procedure at Nuzn, Ph. D., dissertation, Brondeis university, U.S.A., 1962, the copy used published, 1970.

02 — Lieberman, op. cit., p. 1.

مراكز انتاج نسيج الحرير في العراق وطرق تسويقه

الدكتور
حمدان عبدالمجيد الكبيسي
قسم التاريخ / كلية الآداب

المقـــدمة :

تميزت مدن العراق وقصباته وبعض قراه بوجود صناعات متنوعة ، كانت قائمة فيها ، وتعتمد على المنتوجات الزراعية ، أو الحيوانية ، أو المعدنيــة ٠

ومنذ أن أصبح العراق جزء من الدولة العربية الاسلامية ، بعـد تحريره ، اهتم الخلفاء وولاته بالعمل على تنشيط الصناعات التي كانت قائمة فيه ، وتحسينها وتطويرها ٠ كما عملوا في الوقت نفسه ، على انشاء صناعات جديدة تطلبتها ظروف البلاد المستجدة ، والمرحلة المتقدمة التي وصلت اليها الدولة ٠ فطبقت الحرية في العمل ، وفتحت المجال واسعا أمام جميع الفئات الاجتماعية في ممارسة العمل واختيار المهن التي تناسب كلا منهم ٠

وحينئذ أصبح أهل العراق يضرب بهم المثل في « البراعة في كل صنعة »(١) ٠ وبخاصة أهل الموصل الذين اشتهروا بالدقة في الصناعات ، ومنها صناعة نسيج الحرير(٢) ٠

وخلال العصر العباسي الثاني صرنا نشهد تطورات داخلية في تنظيم

أهل الحرف والصنايع أكسبتها اطارها العام ، فأصبح لكل حرفة شيخ أو (رئيس) من أصحابها ، تعينه الحكومة عادة ، أو تعترف به ، وتعده ممثلا للحرفة(٣) • ومن الطبيعي أن يؤدي هذا النهج الى ايجاد الوسائل التي تحمي أصحاب الصنف ، وتبعد أي تجاوز عليهم • وفي حركة صناع المنسوجات القطنية والحريرية في بغداد عام ٣٧٤هـ/٩٨٤م ، حين فرض البويهيون المتسلطون ضريبة العشر على هذه المنسوجات ببغداد ، دليل أكيد على دقة التنظيم الذي وقف بوجه هذا التجاوز(٤) •

ومهما يكن من أمر ، فقد أقيمت في مدن العراق وقراه عدد كبير من المصانع البسيطة ، لصنع الزجاج والخزف ، ونسيج الحرير والقز والقطن ، وحياكة الصوف ، وأدوات الترف ، والاواني الزجاجية ، والدهون والمعاجين والزيت والعطور ، وماء الزعفران وماء الورس ، وشراب العنب ، وزيت البنفسج والصناعات الجلدية وغيرها •

المبحث الاول
عوامل تنشيط صناعة الحرير في العراق

١ ـ اجراءات المسؤولين :

كان المسؤولون في الدولة العربية الاسلامية قد أبقوا على الحرف والصنائع المحلية التي كانت قائمة في العراق قبل تحريره ، وعملوا على صيانتها وتحسينها وتطويرها •

وتلمس المسؤولون في الدولة ضرورة الدعوة الى اشاعة العمل والنشاط ، والسعي في سبيل زيادة الانتاج في العراق وبقية الاقاليم الاخرى ، ذلك أن نهج الدولة الاقتصادي كان متميزا عن بعض المذاهب الاقتصادية الاخرى • اذ هو يبغض الفقر ويكافحه ، ويدعو المواطنين الى العمل والجد ، وكسب المال الحلال واستثماره(٥) •

وطبقت الدولة مبدأ « الحرية في العمل »(٦) ، وأتاحت لاهل الذمة مزاولة الحرف والصنائع التي يرغبون مزاولتها ، فمارسوا أنواعا متعددة من الحرف والصنايع ومنها صناعة النسيج(٧) ·

ودعت الدولة الى التسابق في اجادة العمل وخفض تكاليفه ، كما ضمت للفرد حرية التصرف في نتاج عمله · وهي بعملها هذا ، ألغت أو منعت حصول أي امتياز يسمد مدعيه من حكم الشرع ، أو من سيطرة ذوي السلطان(٨) ·

وبلا ريب ، فقد كان للتقدم الحضاري الذي أصاب المجتمع في العراق، وبخاصة بعد أن أصبح مركز الدولة العربية الاسلامية ، أثره البعيد في ازدهار صناعة نسيج الحرير خاصة · فقد تطلب هذا التقدم استحداث صناعات متنوعة ومتقنة ، الامر الذي أدى الى ازدياد عدد الصنايع والاهتمام بجودة الانتاج(٩) · فضلا عن ارتفاع مستوى المعيشة الذي شمل قطاعا واسعا من المجتمع ، فأدى ذلك الى زيادة الطلب على المنتوجات الصناعية الضرورية منها والكمالية ، وبضمنها المنسوجات الحرير طبعا · فادى هذا الى نشاط وازدهار صناعة المنسوجات الحريرية ·

وقد جذبت الامصار الجديدة التي انشئت في العراق ، كالبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وبغداد ، وسامراء وغيرها ، الكثير من الايدي العاملة ، لتوفر فرص العمل والكسب الحلال فيها ، ومنهـــا صناعة المنسوجات الحريرية · وكانت قد أباحت وشجعت انتقال الايدي العاملة الى المدن والامصار الجديدة(١٠) ·

ومما عزز النشاط الصناعي ، وزاد في ازدهاره ، أن الاسلام رفع من شأن العمل الى مصاف العبادة(١١) · وجاء ذكره في القرآن الكريم في أمكنة متعددة(١٢) ، وحث الرسول (ص) في أحاديثه الشريفة على العمل

والكسب الحلال(١٣) ، وضرورة الجودة في الصنعة ، وزيادة الانتاج(١٤) ، وان الامام علي (رض) كان يتفقد بعض أهل الصنايع ويلزمهم بالدقة في العمل واتقان الصنعة(١٥) ٠

وانبرى الفقهاء لصوغ النظريات الفقهية التي تحث الناس على العمل وزيادة الانتاج(١٦) ، ومارس بعض الفقهاء العمل بانفسهم ومنه العمل في صناعة النسيج(١٧) ٠ ذلك ان اتقان الصنعة والانتاج الجيد كان أمرا يعد من صميم السلوك الديني الصحيح(١٨) ٠ واذا ما ظهر انتاج غير جيد عوقب صاحبه ، وربما منع من ممارسة المهنة(١٩) ٠

ووجهت العناية الى ضرورة كون المواد الاولية التي تعتمد عليها صناعة الحرير نقية وجديدة ، وغير تالفة(٢٠) ٠ كما حصلت العناية الكافية بشجرة التوت التي كان يربى على أوراقها دود القز الذي تنامت أهميته لانتاج خيوط الحرير ٠

واهتم والي العراق زياد بن أبيه بتنشيط الصناعات التسيجية ، ومنها نسيج الحرير ٠ اذ يعتبر أول من أدخل صناعة المنسوجات في مدينة البصرة(٢١) ٠ وحتى تنشط هذه الصناعة ، ويقبل الناس على استعمال المنتوجات المحلية ، أقدم والي العراق زياد بن أبيه على ارتداء ملابس تصنع في مدينة البصرة ، وقلده كثير من السكان ، الامر الذي نشط هذا النوع من الصناعة(٢٢) ٠

وعرف عن الخليفة الاموي سليمان بن عبدالملك أنه كان يفضل لبس الثياب الرقاق ، وثياب الوشي (الحريرية المطرزة) التي كانت تصنع في مدينة الكوفة ، وتحمل الى الخليفة بالشام(٢٣(٠

ومما ساعد على ازدهار صناعة الحرير ، كون بعض المسؤولين ، وكثير من الناس ، كانوا يفضلون لبس ثياب الوشي جبابا وأردية وسراويل

وعمائم وقلانس · كما أن الدولة الزمت موظفيها الكبار بضرورة ارتداء الثياب المصنوعة من الوشي · وهذا الطلب الزائد شجع الصناع على تحسين منتوجاتهم ، وعلى الاكثار من أنواعها ·

٢ ـ مراكز انتاج نسيج الحرير :

تعد الموصل في مقدمة مدن العراق في انتاج نسيج الحرير ، كما اشتهرت بها أنسجة « الشاشي » التي كانت لها شهرة واسعة ، وقد انتشرت الى الغرب الاوربي باسم « موسلين » · وكان ياقوت قد وصف مدينة الموصل بأنها : « محط الركبان ، ومنها يقصد جميع البلدان ، فهي باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنها يقصد الى أذربيجان »(٢٥) · ويؤكد « ياقوت » على أن القاصد الى المشرق والمغرب لابد أن يمر بمدينة الموصل · فلا غرو والحالة هذه أن اشتهرت هذه المدينة بصناعات كثيرة ومختلفة ، وفي مقدمتها صناعة نسيج الحرير · فتشير الروايات التاريخية الى وجود صناعة « الوشي » ، وهو نسيج من الحرير فطرز برسوم أشخاص ، أوحيوانات ، وأغصان النباتات(٢٦) · وفي الاعم الاغلب ، كانت رسومه هذه مزينة بخيوط الذهب · وصنع في الموصل أيضا الثياب الحريرية الرقيقة ، ذات الاطراف والالوان الجميلة · هذا فضلا عن نوع آخر من نسيج الحرير الذي كان يعمل منه الستائر الجيدة ، التي كان يصدر منها الى الخارج لانها كانت تفيض عن حاجة السوق المحلية · وكان نسيج بعض الستائر يطرز بخيوط من الفضة والذهب(٢٧) ·

وقبل عمليات تحرير العراق اشتهرت مدينة الحيرة بصنع نوع جيد من الحرير · وقد تطورت هذه الصناعة خلال العهدين الاموي والعباسي كثيرا ، وان منتوجاتها كانت تلاقي رواجا كبيرا في الاسواق ، لجودة صنعها ، وتناسق ألوانها(٢٨) ·

وامتدت صناعة نسيج الحرير الى مدينة النعمانية التي هي الاخرى برزت بهذا النوع من الصناعة ، لاسيما ذات اللون الاصفر(٢٩) ٠

وكانت مدينة البصرة مشهورة بصناعة نسيج الحرير الرقيق الذي كان يصنع من نوع من خيوط الصوف والحرير ، الذي تصنع منه الثياب ٠ كما تعمل منه الفوط الثمينة التي تلفها المرأة على رأسها(٣٠) ٠ وصنع في البصرة أيضا نسيج البز الثمين المكون من خيوط الحرير والقطن ٠ وصنع في البصرة ثياب المطارف ، ونسيجها من خـــز موشى بألوان من غـــير لونه(٣١) ٠

وفي مدينة الابلة وجدت صناعة الانسجة الرقيقة بنوعيها المطرز وغير المطرز ، الذي فيه نسبة عالية من الحرير(٣٢) ٠

وللكوفيين مهارة متميزة في صنع نسيج الوشي المطرز الذي كان يصنع من الحرير ٠ كما صنع في الكوفة الخز ، وهو نوع من الحرير ، يتكون نسيجه من خيوط الحرير والصوف ٠ وكانت تصنع منه العمائم المشهورة التي استعملت غطاء للرأس(٣٣) ٠

واشتهرت مدينة ميسان بصناعة نوع جيد من الحرير كان يستعمل للثياب والستائر وغيرها ٠ ذلك ان (ابن الفقيه) يذكر أن في بعض كور دجلة والسواد ــ ومنها ميسان ــ كان يصنع الحرير وأنواع أخرى من الاقمشة(٣٤) ٠

وأشار « الى صاحب الاغاني » ، الى وجود أنسجة حريرية فاخرة منذ وقت مبكر من تحرير العراق ، حيث أشارت الروايات التاريخية الى أن مصعب بن الزبير الذي كان واليا على العراق لاخيه عبدالله ، في حدود سنة ٧٠هـ/٦٩٠م ، كان قد أهدى عمر بن ربيعة مجموعة من الحلل من الوشي والخز والحرير العراقي الصنع(٣٥) ٠

وظهرت في مدينة واسط صناعة أنواع متعددة من الاقمشة ، ومنها أنسجة حريرية ، كانت تتكون من ألوان متعددة • وقد ظلت هذه الانسجة محتفظة بجودتها لفترة طويلة • وأشار « الخطيب البغدادي » الى أنها زينت قصر الخليفة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ / ٩٠٧ ـ ٩٣٢م)(٣٦) •

واعتبرت مدينة واسط أشهر محل للصبغ بالقرمز ، وان الصباغين بهذه المدينة كانوا قد تفننوا في صناعة الصباغة لايجاد أنواع متعددة وجيدة من الالوان ، وذلك لاظهار رسوم قماش الحرير بألوان زاهية(٣٧) ، وان الحكومة كانت تؤجر لهؤلاء العمال حوانيت في الاسواق بأجور محددة(٣٨) •

ومنذ تأسيس بغداد ، واتخاذها حاضرة الدولة العربية الاسلامية ، نشأت فيها عدة صناعات وفي مقدمتها صناعة الحرير • اذ تشير الروايات التاريخية الى أن الحياكة في بغداد ازدهرت منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي(٣٩) • فكانت في بغداد تصنع المنسوجات الحريرية الفاخرة بألوان متعددة • وصنع في بغداد أيضا نسيجا حريريا سميكا وردي اللون ، ونسيجا آخر جيدا يدعى ـ الملحم ـ ، سداه من الحرير ، ولحمته من القطن أو الصوف(٤٠) •

وفي عهد الخليفة المنصور صنع في بغداد « الثياب المنصورية » (نسبة الى الخليفة المنصور) • وكان نسيج هذه الثياب ، سداه من الحرير ولحمته من الصوف(٤١) • كما اشتهرت محلة التستريين ببغداد بنسيج ثياب جميلة ورقيقة الملمس سداه ولحمته من الحرير الجيد • وصنع في بغداد نسيج مزركش بالذهب ، مشهور بالجودة ، يسمى (السقلاطون) الذي وضعت فيه نسبة قليلة من خيوط الذهب مع خيوط الحرير(٤٢) •

ولاقت الثياب العتابية التي كانت تصنع في محلة العتابية بجانب الكرخ ببغداد ، وتنسب اليها ، شهرة كبيرة · وهي ثياب مخططة تحاك من خيوط الحرير والقطن بألوان زاهية ومختلفة · وكانت لهـذه البضاعة شهرة واسعة لذلك صدرت الى أنحاء وأقاليم أخرى من الدولة العباسية ، كما صدر منها الى دول أخرى(٤٣) ·

واستعمل اسم نسيج الحـرير العتابي في اللغـة الاسانية بلفظ Attabi ، ومنهـا انتقلت الى الايطـالية والفرنسية بلفظ (تابس) Tabis ، واستعمل الانكليز لفظة Tabby للدلالة على نوع جيـد من المنسوجات الحريرية(٤٤) ·

وثم سماسرة مختصون يحددون الثمـن الحقيقي للاقمشـة المـراد تصديرها ، ومنها الحرير ، في حين يوجد عمال آخـرون يختمون اللفاف المحزومة المراد تسليمها للتجار الاجانب ، حيث تتم عملية التصدير عبر الطرق المخصصة لذلك · وعادة كان هؤلاء التجار يثقون بالسماسرة ، ويشترون اللفاف الحريرية المحزومة من غير أن يفكوا حبالها ، وأحيانا تكون هذه البضائع الحريرية المصدرة مختومة بختم رسمي(٤٥) ·

المبحث الثاني
طرق تسويق نسيج الحرير

توافرت جملة عوامل ، طبيعية ، وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية هيأت للعراق ظروفا ملائمة لكي تنقل السلع المنتجة في بعض مدنه وقراه ، والفائضة عن حاجة السوق المحلية ـ ومنها نسيج الحرير ـ ، من مناطق الانتاج ، الى مدن وأقاليم أخرى من الدولة العربية الاسلامية · ذلك أن العراق مد تأثيراته السياسية والحضارية والاقتصادية ، الى جميع أقاليم الدولة ، من خلال امتلاكه أهم منافذ التأثير الحضاري ، بما فيه الشـق

التجاري . ذلك أن التجارة ، كانت وما زالت ، تدر على محترفيها أرباحا طائلة(٤٦) .

ومن المؤكد ، أن التجار الذين أسهموا في نقل وتسويق نسيج الحرير ، سلكوا أسهل الطرق وأكثرها أمنا . حيث تتوفر المحطات التي تنزل بها القوافل التجارية خلال تنقلها(٤٧) .

لقد وجدت في العراق شبكة من الطرق ، تربط بين مدنه وقراه ، كما تربطها ببقية أقاليم الدولة الاخرى . ذلك أن موقعه المتميز أهله لان يكون المركز الذي يمتلك منافذ عديدة ، نحو الجنوب والشمال ، والغرب والشرق . فكان التجار يسلكون الطرق في هذه الاتجاهات في أثناء جلبهم السلع التجارية ، ومنها الحرير طبعا(٤٨) . الا أن نشاط الطرق التجارية يخضع لمتغيرات عديدة ، منها وفرة انتاج السلع المصدرة ، وقوة الدولة ، ومستواها الحضاري ، وطبيعة علاقتها مع الدول التي تريد أن تتاجر معها ، واستتباب الامن على الطرق التي يسلكها التجار ، وتطور الطرق وتسويتها ، ووسائل النقل المستخدمة فيها . وبلا ريب ، فان كل هذه العوامل تسهم ، منفردة أو متفاعلة ، في تنشيط الحركة التجارية ، وزيادة حجم السلع ، ومنها الحرير ، المنقولة عبر هذه الطرق .

وكانت الطرق المائية أنشط من الطرق البرية ، حيث كانت السفن النهرية نشطة في نقل البضائع بنهري دجلة والفرات ، وهما أبرز ظاهرة طبيعية في المنطقة ، فضلا عن نهر عيسى ، الذي كانت مياهه غزيرة بحيث يسهل على السفن التجارية المحملة بالحرير وغيره ، السير فيها(٤٩) . وكانت سعة هذه السفن تتراوح ما بين ستة عشر ذراعا ، الى عشرين ذراعا(٥٠) . وكان بالامكان تحويل السفن ـ بقرب بغداد ـ من نهر دجلة الى نهر الفرات وبالعكس(٥١) .

ونستطيع أن ندرك نشاط الطرق التجارية المائية من كثرة السفن

التجارية المصعدة والمنحدرة عبر نهر دجلة ، ما بين بغداد ومدينة البصرة(٥٢) ، أو الصاعدة الى مدينة الموصل · وقد تطلب الامر قيام مرفأ خاص في محلة باب الشعير الكائنة في القسم الشمالي من مدينة المنصور ، ترسو فيه السفن المحملة بالحرير وبضائع أخرى واردة من الموصل أو البصرة(٥٣) · ان نشاط هذه الطرق يدعونا لان نؤكد من خلاله ضخامة حجم التبادل التجاري عامة ، والحرير خاصة ·

وتوجد محطات على الطرق النهرية الهامة ، يحرسها حراس ، وتجبى فيها الضرائب ، تسمى المآصر ، اذ تؤصر السفن والقوافل التجارية ولا يسمح لها بالاجتياز ، أو المرور ، الا بعد دفع الضرائب المقررة(٥٤) · ويكون لدى الموظفين المسؤولين عن المآصر عادة سلسلة ، أو حبل ، يشد معترضا في النهر أو الطريق ، يمنع السفن من المضي(٥٥) · ولدينا اشارة الى ان عمر بن قيس كان يتولى مهمة المآصر في نهر الفرات قرب الكوفة(٥٦) ·

ويبدو أن هناك عددا من المآصر على نهر دجلة ، منها مأصر دير العاقول(٥٧) ، ومأصر صريفين قرب واسط ، الذي كان يشرف عليه الامير « مسروق » المشهور بعفته وأمانته ، ابان ولاية زياد بن أبيه · وكان (مسروق) قد اتخذ في هذا المأصر اسلاسل بدل الحبال · ويشير « بخشد » الى أن وارد هذا المأصر كان عشرين الف درهم(٥٨) ·

غير أن مثل هذه المآصر كانت ترفع أحيانا ، وتعفى السلع المنقولة ومنها الحرير ، من دفع الضرائب ، الامر الذي أدى الى رواج سوقها(٥٩) ·

ويظهر أن اسقاطها وازالتها لم يكن طويل الامد ، فقد تعود هذه المآصر والضرائب الى ما كانت عليه · وبلا ريب ، فان ذلك أثر على تجارة الحرير · غير ارتفاع شكاوى الناس ، اضطر المسؤولين الى الغائها مرة أخرى سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م(٦٠) ·

وعلى الرغم من أن أخبار المآصر البرية نزر للغاية ، لكنها مع ذلك كانت موجودة ، لاسيما بعد أن انفصلت بعض الاقاليم عن جسم الدولة العباسية • فكانت المآصر البرية تقام بين اقليم وآخر ، أو مقاطعة ومقاطعة ، وفيها يجري التفتيش وأخذ الضرائب من الوارد والصادر(٦١) •

وبلا ريب فان تحول الطرق البحرية ، عبر الخليج العربي ، كان ايذانا بزيادة أهمية الطرق التجارية عبر العراق الذي كان آنذاك يشكل مركز الخلافة العربية الاسلامية • وعندئذ تحول الخليج العربي الى بحيرة عربية ، أقاموا عليها الموانىء التي استقبلت السفن التجارية العربية والاجنبية على حد سواء ، بحيث كانت الابلة والبصرة تشحنان البضائع ، ومنها الحرير ، الى ميناء سيراف العربي ، وموانىء سواحل عمان ، ومن ثم الى المحيط الهندي ، باتجاه الشرق الاقصى(٦٢) •

ونستطيع أن ندرك أهمية التأثير التجاري مع الشرق الاقصى ، أن وصل عدد كبير من المسلمين الى الصين ، وكونوا هناك جالية لها مساجدها التي كانت تقام بها الصلاة ، ويدعى فيها لخليفة المسلمين في أيام الجمعة والاعياد على المنابر(٦٣) •

ونظرا لاستواء سطح العراق بشكل عام ، أصبحت المواصلات البرية سهلة ونشطة • ونستطيع أن نميز خمس طرق رئيسة تنطلق من حاضرة الخلافة العباسية بغداد هي :

١ ــ طريق شمالي يتجه نحو مدينة الموصل والجزيرة الفراتية ، مارا بالمدن المهمة التي تقع على ضفتي نهر دجلة مثل ، عكبرا وسامراء ، والسن ، والبوازيج ، والحديثة ، وتكريت • كما يوجد طريق يربط الموصل بالبحر المتوسط ، مرورا بسنجار •

٢ ــ طريق جنوبي يتجه الى البصرة ، مارا بالمدائن ، وواسط ،

وميسان وبقية المدن المهمة التي تقع على نهر دجلة جنوب بغداد ٠

٣ ـ طريق جنوبي غربي يتجه نحو الكوفة ومنهـا الى مدن شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة مدن الحجاز المقدسة (مكة والمدينة) ، عبر حائل ٠ وعرف هذا الطريق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بطريق زبيدة ، أو طريق الحج ٠ ويستمر هذا الطريق جنوبا حتى ينتهي بمدن اليمن ٠

٤ ـ طريق غربي يتجه الى الرقة ، محاذيا لنهر الفرات ، مارا بالانبار ، وهيت ، وعنه ، ثم الرقة ، حتى يصل الى مدن بلاد الشام ، وبخاصة مدينة حلب التي تعتبر عقدة هامة للمواصلات ٠ ومن هناك يتجه نحو مصر وشمال افريقيا(٦٤) ٠

٥ ـ طريق شرقي بغداد ، الى حلوان ، ومنها الى أقاليم الدولة الشرقية من خلال منافذ تخترق جبال زاجروس ٠

٦ ـ ويوجد طريق آخر يبدأ من البصرة ويسير في غربي نهر الفرات ، مبتعدا عن مجرى النهر بحدد خمسين كيلومتر ، مارا بشتاتة ، والرحالية ، وكبيسة ، ثم يخترق بعض الوديان حتى يصل الى دمشق « عبر طريق الساعي » ٠ وتقع هذه المراكز ضمن خط العيون التي تكون مياهها ضرورية للقوافل التجارية التي تسلك هذا الطريق ٠

والحق ان الدولة العربية الاسلامية اهتمت كثيرا بانشاء الطـرق وصيانتها وحمايتها ، الامر الذي جعل القوافل التجارية تصل الى الاسواق التي تقصدها بسرعة ٠ وكانت الجمال أهم وسائل النقل في مثل هـــذه الطرق ، فضلا عن الخيول والبغال والحمير ، وكان التجـار يستعينون بالادلاء حتى لا يضلوا الطريق(٦٥) ٠

الهوامش :

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص٣٨ ·
(٢) الخربوطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، ص٣٥٧ ·
(٣) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص٣٠ ·
(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٧ ، ص١٢٧ ·
(٥) الصالح ، النظم الاسلامية ، ص٢٦٥ ·
(٦) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، ص١٧ ·
(٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٨٣ ·
(٨) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص‌ص٦٠ــ٦١ ·
(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ، ص‌ص١٣ــ١٤ ·
(١٠) اليعقوبي ، البلدان ، ص٢٤٨ و٢٥١ · المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٥٥ ·
(١١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٦٠ ·
(١٢) انظر : سورة الملك ، آية ١٥ · وسورة الجمعة ، آية ١٠ · وسورة يس ، آية ٣٠ ·
(١٣) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص‌ص٦٠ــ٦١ ·
(١٤) الكتاني ، التراتيب الادارية ، ج٢ ، ص٨٣ ·
(١٥) الابشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ج٢ ، ص‌ص٥١ــ٥٢
ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ، ص٣١ ·
(١٦) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٣ ، ص‌ص١٨٦ــ١٨٧ ·
الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص‌ص٦٠ــ٦١ ·
ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ص٢٧٣ ·
(١٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٣٤٩ ·
(١٨) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص٦٥ ، ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص١١٠ · الأخوة ، معالم القربة ، ص١٣٦ ·

(١٩) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص٦٥ و٧٢ ، ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص١٣٥ ، ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص٤٣ .

(٢٠) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص١٩٦ ، ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص١٤٠ و٢٣٨ .

(٢١) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٩٢ .

(٢٢) الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص١٧ .

(٢٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٠٥ .

(٢٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص١٧٥ .

(٢٥) ياقوت ، معجم البلدان ، (بيروت) ، ص٦٨٣ .

(٢٦) العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص٢٤٨ .

(٢٧) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص١٠٢ و٥٢ .

(٢٨) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٨٦ .

(٢٩) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٩٦ .

(٣٠) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٩٢ .

(٣١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤ ، ص٣٣٤ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ج١ ، ص ٢٨٩ .

(٣٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ص١٣-١٤ .
الخربوطلي ، العراق في ظل الحكم الاموي ، ص٣٦٠ .

(٣٣) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٩٢ .

(٣٤) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص٢٥٣ .

(٣٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج١١ ، ص٢١٤ .

(٣٦) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص٥٢ و١٠٥ .
انظر : ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٥٣ .
المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٢٩ .

(٣٧) الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، ص٣٢ .

(٣٨) وكيع ، اخبار القضاة ، ج١ ، ص٣٥٧ ·

(٣٩) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص٢٤ ·

(٤٠) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص١٧٥ ·
المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٢٨ ، الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٨٩ ·

(٤١) زوزي ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ص٦٩ ·

(٤٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣١ ·
الشيخلي ، الاصناف ، ص١٤٦ ·

(٤٣) لسترانج ، بغداد ، ص١٢٢ ·

(٤٤) ن·م ، صص١٢٢ــ١٢٣ ·

(٤٥) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ، ص٣٥٥ ·

(٦٤) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤١ · الكبيسي ، أسواق بغداد ، ص١٧٩ ·

(٤٧) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ،ص٤١ و١٥٣ ·

(٤٨) ابن خردازبة ، المسالك والممالك ، ص٤١ و١٥٣ ·

(٤٩) اليعقوبي ، البلدان ، ص٢٥٠ و٢٥٣ · الاصطخري ، المسالك
الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٥٨ ·
والممالك ، ص٥٩ · متز ، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ، ص٢٩٠ ·

(٥٠) الصابي ، الوزراء ، صص١٥٦ــ١٥٧ ·
متز ، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ، ص٢٩٠ ·

(٥١) اليعقوبي ، البلدان ، ص٢٥٠ · مسكويه ، تجارب الامم ، ج١ ، صص١٧٥ــ١٧٦ · الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، ج١ ، ص٥٣ ·

(٥٢) الصولي ، الاوراق ، ص٢٠٦ ·

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٠٨ ٠

(٥٤) ميخائيل عواد ، المآصر ، ص٨ ٠

(٥٥) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص٧٠ ٠

(٥٦) عواد ، المآصر ، ص‌ص٩ــ١٠ ٠

(٥٧) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٨٦ ٠

(٥٨) بخشل ، واسط ، ص‌ص٦ــ٧ ، نقلا عن : عواد ، المآصر ، ص‌ص ١٢ــ١٣ ٠

(٥٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص٢٢٧ــ٢٢٨ وج١٠ ، ص٧٨ــ٧٩ ٠
ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص٤٧ ٠

(٦٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٠ ، ص١٤٣ ٠

(٦١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص‌ص١٣٣ــ١٣٤ ٠ عواد ، المآصر ، ص٢٢ ٠

(٦٢) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤٦ و١٥٣ ٠

(٦٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج٢ ، ص‌ص١٥٦ــ١٥٧ ٠
الصيني ، العلاقات التجارية بين العرب والصين ، ص١٣٧ ٠

(٦٤) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤٦ ٠

(٦٥) الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤١ و١٤٦ ٠

أهم المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم ·

٢ ـ ابن الاثير ـ علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ) · الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٧ ·

٣ ـ ابن بسام ـ محمد بن أحمد (عاش في القرن الثامن الهجري) · نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٨ ·

٤ ـ ابن بطوطة ـ محمد بن عبدالله بن ابراهيم الطنجي (ت ٧٧٩هـ) · رحلة ابن بطوطة ، جزءان ، مطبعة وادي النيل ، القاهرة ١٢٨٧هـ ·

٥ ـ ابن الجوزي ـ عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٧٩هـ) · المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧هـ ·

٦ ـ ابن خرداذبة ـ أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ) · المسالك والممالك ، طبع بالاوفسيت لمكتبة المثنى ببغداد ·

٧ ـ ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) · مقدمة ابن خلدون ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٥ ·

٨ ـ ابن رستة ـ أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ) · الاعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١ ·

٩ ـ ابن عبد ربه ـ أحمد بن محمد المرواني الاندلسي (ت ٣٢٨هـ) · العقد الفريد ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٥٣ ·

١٠ـ ابن الفقيه الهمداني ـ أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ) · مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٥ ·

١١ـ الابشيهي ـ محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٠هـ) · المستطرف في كل فن مستظرف ، المطبعة الكستلية ، القاهرة ١٢٧٩هـ ·

١٢ـ الاصطخري ـ ابراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ) ·

المسالك والممالك ، مطابع دار القلم ، القاهرة ١٩٦١ ٠
١٣ـ الاصفهاني ـ أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) ٠
الاغاني ، مطابع موستاتسوماس ، القاهرة ١٩٦٣ ٠
١٤ـ الثعالبي ـ عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ) ٠
لطائف المعارف ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ٠
١٦ـ الجاحظ ـ عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) ٠
التبصر بالتجارة ، دمشق ١٩٣٢ ٠
١٧ـ الخربوطلي ـ علي حسني (الدكتور) ٠
تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، القاهرة ١٩٥٩ ٠
١٨ـ الخوارزمي ـ محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٤٠٧هـ) ٠
مفاتيح العلوم ، مطبعة الشرق ، القاهرة ١٣٤٢هـ ٠
١٩ـ الدمشقي ـ جعفر بن علي (ت ٥٧٠هـ) ٠
الاشارة الى محاسن التجارة ، مطبعة المؤيد ، دمشق ١٣١٨هـ ٠
٢٠ـ الدوري ـ عبدالعزيز (الدكتور) ٠
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ١٩٤٨ ٠
٢١ـ دوزي ـ رينهارت ٠
المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، بغداد ١٩٧١ ٠
٢٢ـ الدينوري ـ أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) ٠
الاخبار الطوال ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٨ ٠
٢٣ـ الصابي ـ أبو الحسن الهلالي بن المحسن بن ابراهيم (ت ٤٤٨هـ) ٠
تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، بيروت ١٩٠٤ ٠
٢٤ـ الصولي ـ أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) ٠
اخبار الراضي بالله والمتقي لله (الاوراق) ، مصر ١٩٣٥ ٠
٢٥ـ الصيني ـ بدرالدين ٠ ص ٠
العذقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ ٠

٢٦ـ الطبري ـ محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) ٠
تاريخ الرسل والملوك ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ ٠
٢٧ـ عواد ـ ميخائيل ٠
المآصر في بلاد الروم والاسلام ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٨ ٠
٢٨ـ الغزالي ـ أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) ٠
احياء علوم الدين ، بولاق ، مصر ١٣٠٩هـ ٠
٢٩ـ الكبيسي ـ حمدان عبدالمجيد (الدكتور) ٠
أسواق بغداد ، دار الحرية ، بغداد ١٩٧٩ ٠
٣٠ـ لسنترانج ـ غي ٠
بغداد في عهد الخلافة العباسية ، المطبعة العربية ، بغداد ١٩٣٦ ٠
٣١ـ متز ـ آدم ٠
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ١٩٤٨ ٠
٣٢ـ المسعودي ـ علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) ٠
ـ التنبيه والاشراف ، مطبعة خياط ، بيروت ١٩٦٥ ٠
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٣٠٣هـ ٠
٣٣ـ مسكويه ـ أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ) ٠
تجارب الامم وتعاقب الهمم ، القاهرة ١٩١٥ ٠
٣٤ـ المقدسي ـ محمد بن أحمد (ت ٣٨٧هـ) ٠
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٦ ٠
٣٥ـ ياقوت ـ أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ) ٠
معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، (بيروت بلا) ٠
٣٦ـ اليعقوبي ـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ) ٠
البلدان ، بريل ، ليدن ١٨٩٢ ٠

صراع السلطة بين بريطانيا والملك فيصل الاول

الدكتور محمد مظفر الادهمي
استاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية التربية ـ الجامعة المستنصرية

تعتبر احداث الفترة الواقعة بين تتويج فيصل بن الحسين ملكا على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١ وبين الذكرى الاولى لتتويجه عام ١٩٢٢ ، من الفترات التي تمت دراستها وتغطيتها ، فقد دون احداثها المؤرخ العراقي السيد عبدالرزاق الحسني في كتابيه الوزارات العراقية وتاريخ العراق السياسي الحديث ، كما كتب عنها Ireland في كتابه المعروف عن العراق Iraq, Astuy in Political Development وتناولتها في اطروحتي للماجستير « المجلس التأسيسي العراقي » اضافة الى ما كتبه المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه تاريخ القضية العراقية ·

ان احداث هذه الفترة وباختصار تتعلق بمطالب القادة السياسيين الوطنيين وعلى رأسهم الملك فيصل ، بالغاء الانتداب البريطاني على العراق واحلال معاهدة صداقة مع بريطانيا محله تعتمد مبدأ المصالح المتبادلة · وعليه فقد رفض الملك فيصل تصديق موافقة مجلس وزرائه برئاسة عبدالرحمن النقيب على المعاهدة العراقية ـ البريطانية لانها لم تلغ الانتداب البريطاني ، بل حلت بنود الانتداب فيها · وفي الواقع فأن بريطانيا كانت تريد من المعاهدة وسيلة لتنفيذ الانتداب وليست بديلا عنه كما يريد فيصل والعراقيين · ولقد أدى ذلك الى الصدام بين فيصل والبريطانيين الذين اجبروه في النهاية على التوقيع عليها بعد ان هددوه بضياع العراق كدولة وعرشه كملك ، وكذلك عرش والده في الحجاز(١) ·

ان فترة الاثني عشر شهرا هذه قد شهدت انتفاضة واسعة ضد الانتداب بقيادة الملك فيصل ، كان يقدر لها ان تكون ثورة شاملة لولا اختفاء فيصل عن المسرح نتيجة اجراء عملية جراحية له ما زالت الشكوك تدور حول صحة حاجته اليها ، مما أدى بالنتيجة الى تسلم السلطة في العراق مباشرة من قبل المندوب السامي البريطاني برسي كوكس ، بعد ان كانت الوزارة النقيبية قد استقالت من قبل ، فوجه ضربة قوية الى القوى الثائرة ضد المعاهدة الانتدابية(٢) ٠

ان الموضوع الذي لم يكشف عنه النقاب لحد الان هو الصراع الشديد الذي كان دائرا بين الملك فيصل الاول والمندوب السامي ووزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل ، ذلك ان وثائق وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانية تكشف لنا بشكل واضح الخطط والبرامج والاهداف التي رسمها كل طرف لتحقيق مصالح بلاده والتناقض والتقاطع الذي حصل بين تلك التوجهات والاهداف المتناقضة والتي ولدت صراعا لم يكن مكشوفا امام الرأي العام في الداخل والخارج ، لكنه كان صراعا حادا على السلطة وصل الى درجة التهديد باقصاء الملك فيصل الاول عن عرش العراق(٣) ٠

لقد كانت ظروف الملك فيصل الاول خلال الاثني عشر شهرا هذه ، صعبة جدا بسبب مواقف مستشار الملك البريطاني كنهان كورنوالس والمندوب السامي البريطاني كوكس ووزير المستعمرات تشرشل ، والتي تكشفها المراسلات الرسمية للاشهر الاخيرة من عام ١٩٢٢ ، اما ما يسبق هذه الاشهر فيمكن مراجعة المصادر التي اشرت اليها في بداية للبحث ٠

في تموز ١٩٢٢ طلب الملك فيصل من المندوب السامي كوكس ان يخبر وزارة المستعمرات بوجهات نظره حول المعاهدة ٠ وقد كتب هذا الاخير الى تشرشل في ٢٨ تموز قائلا :

« لقد طلب مني الملك فيصل عرض وجهات نظره التالية اليكم :ـ

« انه شخصيا وبصراحة كان وما زال في الاساس معارضا لنظام الانتداب . انه الان يخشى ، فيما اذا وقع وحكومته المعاهدة بدون تحفظ صريح ومسجل ، ان تذهب بريطانيا بالمعاهدة الى عصبة الامم وتقول (هذا هو الانتداب كما صيغ أصلا ، ولكنه على شكل معاهدة . نقترح ان نستمر بالانتداب في ضوئها ، وان العراق قد قبل هذا الوضع وتطلب منكم تصديق الوثيقتين) وبذلك سيمنع العراق من تحرير نفسه من الانتداب الى أجل غير محدود . في نظره [أي الملك] انه اذا شارك والحكومة العراقية في الاجراءات التي ستجعل العراق مقيدا بالاغلال ، فأن البلد سينقلب عليه وعلى حكومته مباشرة . ان العراق في الوقت الحاضر محاط بالاعداء أو الجيران المستائين ، فاذا لم يكن الشعب واثقا من نفسه ومتحدا ، واذا لم يكن تفاهم هذا الشعب مع بريطانيا مبنيا على الصراحة والكمال فأن البلد لن يرى الاستقرار وعندها لن يكون هناك مفر من كارثة محققة . انه يعتقد اعتقادا راسخا انه بواسطة صيغة أو قرار من مجلس الوزراء أو بيان من حكومة صاحب الجلالة يجب ان يوضح للشعب العراقي ان توقيع المعاهدة لن يغلق بوجههم باب التخلص من نظام الانتداب وانهم بالتزامهم ببنودها سيتمكنون من التخلص من الانتداب بواسطة الطرق الدستورية .

ان الملك يشعر بأن انكار هذا الحق على الشعب العراقي سيؤدي بالمعاهدة ، اذا وقعت ، الى الفشل ، لذلك فأنه يطلب التأني وطول البال في معالجة وضع العراق ، بل والعالم العربي كله ، وذلك بجعل قضية العراق قضيتهم والطلب من عصبة الامم عند تقديم المعاهدة عدم المصادقة عليها كوسيلة وجزء من الانتداب بل كبديل عنه تماما » ... »

وعلق برسي كوكس قائلا ان فيصل يعتقد انه بهذه الطريقة يمكنه ايقاف الهياج القائم ضد الانتداب في البلاد · وان فيصل قال في النهاية :

« انه يجب ان يعلن بصراحة والى الابد انه وهؤلاء الذين يشاركونه تفكيره سيستمرون في كل زمان ومكان يطالبون بالغاء الانتداب بالطرق المشروعة · »(٤)

من الملاحظ ان الملك فيصل الاول قد استخدم في التعبير عن ارائه ومبادئه اسلوب التشكيك بسياسة بريطانيا في العراق وسلامة نياتها ، وكذلك التهديد غير المباشر ، انطلاقا من مبدأ لا يتهاون فيه وهو رفض الانتداب وأية معاهدة ترتبط به · فهو قد شكك بسياستها من خلال افهام البريطانيين بصراحة انهم لا يترددون ، كما هو يعرف ، باستخدام طريقه (الوجهين) أي الاتفاق مع العراقيين على شيء معين ، ونقض ذلك الاتفاق حالما يلتفتون الى جهة أخرى هي عصبة الامم مما يعيق استقلال العراق والغاء الانتداب ، بمعنى عدم وجود تعامل بريطاني مبني على الصراحة · ولاشك ان فيصل في سياسته هذه قد وضع امامه الموقف البريطاني من حكومته العربية في دمشق عندما وقفوا معه في البداية ، ثم اداروا لـه ظهورهم وتركوه لقمة سائغة للفرنسيين حالما بدأوا بتطبيق بنود الانتداب التي أقرها مؤتمر سان ريمو في ضوء اتفاقية سايكس ــ بيكو ·

وفي ضوء هذا التشكيك ذكر فيصل البريطانيين ان عليهم ان يدرسوا موقفهم جيدا ليس في العراق فقط وانما في الوطن العربي أيضا لان العراق جزءاً منه · ان هذه الاتجاهات القومية عند فيصل ، ومحاولته فيما بعد فرض التجنيد الالزامي في العراق عام ١٩٢٧ ، قـد جعلت البريطانيين يعتقدون انه يريد تكوين دولة عربية ، اطلقوا عليها « احــلام فيصـــل التوسعية لتأسيس الامبريالية العربية »(٥) ·

ان استخدام التشكيك والتهديد في آن واحد هو وسيلة ذكية لزعزعة

ثبات الطرف المقابل ، لهذا نجد ان فيصل قد هدد البريطانيين بالهياج القائم في البلاد ضد المعاهدة ، والذي يمكنه السيطرة عليه اذا ما تم تنفيذ مطالبه والعراقيين ، ولكن تصديق المعاهدة كما هي عليه سيؤدي الى كارثة محققة في البلاد حسب تعبيره • انه بهـذا يذكـر البريطانيين بالمتاعب والانكسارات التي وقعت لهم قبل عامين خلال ثورة العشرين ، وهو أيضا يبين لهم ان القوى التي تسانده في مطالبه هي قوى مؤثرة لا يمكن تجاهلها •

لقد وصل الحوار بين كوكس وفيصل الى طريق مسدود ، وتزعزت ثقة كوكس به ، ولهذا وصف الحالة الى وزارة المستعمرات بالقول بانها « مليئة بالصعوبات والتي سببها سلوك الملك الذي نحن نصبناه ••• ان التكتيكات التي يستعملها في السعي وراء هذه الاهداف هي بلاشك غير مخلصة وغير مستقيمة ، وانه من الصعوبة ان نثق به • ان الملك يقول ان الامل الوحيد للخروج من الازمة الحالية هو ان نجد نحن حلا لها • ولكن حتى اذا وجدنا الحل فأنني واثق انه سيبدأ فصلا جديدا ويستمر في لعبته »(٦) وعليه اقترح كوكس سفره وفيصل الى لنـدن للوصول الى اتفاق(٧) • وقد استحسن تشرشل الفكرة وحدد فترة الاسابيع الثلاثة الاولى من أيلول لاجراء الزيارة خلالها(٨) • الا ان فيصل رفض الخروج من العراق خلال هذه المرحلة الحاسمة واثار الشكوك حول هذا المقترح بقوله للمندوب السامي انه « يشك بانه سيطلب منه ان يستقيل اذا سافر الى بريطانيا » • ولذلك وضع شروطا لموافقتـه على الزيارة وهي تقـديم بريطانيا ضمانات بتنفيذ مطالبه حول الانتداب ، وان يسمح له بالاعلان قبل مغادرته انكلترا ، ان بريطانيا قد تنازلت عن موقفها من موضـوع انعتاق العراق من الانتداب ، وبانه عائد الى العـراق لوضع الترتيبات الخاصة بتنفيذ هذا القرار(٩) •

لم يكن فيصل يريد الوصول الى الطريق المغلق مع بريطانيا ، لانه

اساسا كان يريد المعاهدة ، وهو الذي اقترحها(١٠) ، لكنه كان يرفض ان يكون الانتداب بصيغة معاهدة ، وتلك نقطة الخلاف الجوهرية مع بريطانيا · وعليه فأن هذه الحالة قد قادته الى طرح البدائل لايجاد مخرج للازمة دون التفريط بموقفه المبدأي في رفض الانتداب · وكان البديل هو اقتراحه احالة القضية الى المجلس التأسيسي الذي طالب العراقيون به من قبل(١١) · وكان هذا يعني اجراء الانتخابات التي ستأتي بأعضاء معارضين للانتداب والمعاهدة ما دامت الاجواء السياسية في البلاد مشحونة ضد بريطانيا ، وما دام الملك وانصاره يدفعون بهذا الاتجاه ·

وجد المندوب السامي في تنفيذ هذا المقترح خطورة كبيرة على المصالح البريطانية ، لانه كان يعتقد ان اجراء الانتخابات امر مستحيل اذا تمت على اساس مساندة فيصل للعناصر المعادية للانتداب ومساندة السلطة البريطانية لمن اسموهم بالمعتدلين ، أي مؤيدي المعاهدة · لان ذلك سيؤدي في تقديره الى ثورة مسلحة في البلاد لا تكون نهاية لها(١٢) · ومع ذلك فقد اظهر المندوب السامي بعض المرونة عندما اشترط لموافقته على المقترح عدم تدخل الملك في الانتخابات ، وقد جاءت موافقة الملك مشروطة أيضا ، كما يظهر من برقية كوكس الى وزارة المستعمرات البريطانية ، حيث ذكر ان الملك قد أعطى كلمة شرف بحضور كورنواليس بانه اذا وقف الانكليز جانبا خلال الانتخابات ولم يتدخلوا فيها ، فأنه سيقوم بالشيء نفسه تماما ، ولن يتخذ أي موقف يراد به التأثير على الشعب في موقفه من المعاهدة · واكد للمندوب السامي البريطاني انه يدرك جيدا أهمية ضرورة قبول قرار المجلس التأسيسي سواء أكان في صالح الشروط البريطانية ام ضدها ، وانه اذا قبل المجلس التأسيسي بالمعاهدة مع الانتداب ، فأنه سيعمل باخلاص في ضوء قرار المجلس(١٣) ·

لقد وجد المندوب السامي ان معالجة الموضوع بهذه الطريقة هو الحل الذي سيؤدي الى ما اسماه (الصلح مع الرأي العام والاسلام)

وستسهل موقف بريطانيا والملك أيضا ، لانها في تقديره ستأخذ المبادرة ممن اسماهم بالمتطرفين ، أي معارضي المعاهدة والانتداب ، وتجبر كل الاطراف على اتخاذ موقف واحـد ٠ واضاف في برقيتـه الخاصة بهـذا الموضوع :ـ

« وفي حالة التصويت لصالح الشروط التي قدمناها وهو ما أتوقعه بثقة ، فأنها ستمكننا من التكاتف مع الشعب العراقي وفق شروط راسخة للصداقة ٠ فاذا كان هذا الحل مستساغا من قبل حكومة صاحب الجلالة فأنني أحث بشدة بان ينفذ حالا ، لان الوضع هنا يتدهور يوما بعد يوم ٠ ان المتطرفين يسعون لجعل الناس يؤمنون ان المعاهدة والانتداب سيفرضان عليهم بالقـوة ، ويقنعوهم بان الشيء الوحيد الذي يمنع فرضهما هـو الانتفاضة المنظمة ٠ »(١٤)

ولكي يحتوي المندوب السامي الرأي العام العراقي لصالح الموقف المعتدل ، حسب تعبيره ، فقد اقترح ان توافق الحكومة البريطانية أيضا على اصدار اعلان رسمي الى الشعب العراقي تنشر معه المعاهدة ، توضح فيه الصعوبات الدولية التي تواجهها بريطانيا بشأن الانتداب ، وتؤكد الفرق الكبير بين ما تم التوصل اليه في المعاهـدة لمصلحة العـراق وبين الترتيبات التي وضعت في البداية بشأن الانتداب ٠ وان يعلن للشعب العراقي ان هذه هي افضل الشروط لان بريطانيا لا تقرر لوحدها الامور ، وهي ترغب في البقاء والمساعدة ٠ وان انتخابات المجلس التأسيسي ستجري قريبا دون ان يتدخل فيها أي موظف بريطاني ٠ وفي حالة عدم قبول أكثرية المجلس هذه الترتيبات فأن انسحاب بريطانيا من العراق سيبدأ حالا ، لانها لا تريد اكراه الشعب العراقي على قبول مساعدتها ، الا انـه على الشعب العراقي ان يعرف ان هذه الشروط هي أفضل من الفوضى التي ستظهر نتيجة رحيل بريطانيا عن العراق(١٥) ٠

لم يكن تشرتشل يؤمن بالتعامل مع مثل هــذه المواقف بالمرونة والتنازل سريعا امام الخصم ، ولهذا خاطب المندوب السامي قائلا « آمل ان لا تكون همتك قد اثبطت أو تعبت من هذه اللعبة الطويلة »(١٦) وأنحى باللائمة على المندوب السامي والملك فيصل على وصولهما لهــذا الموقف حين قال :ـ

« الاقتراح بأن فيصل يجب ان يأتي الينا كان اقتراحك انت وليس نحن · لا يمكن بأية حال من الاحوال اعطاء فيصل التعهد الذي يطلبه · كذلك فأن المعاهدة كانت اقتراحا من فيصل وليس من عندنا · انه من واجبه هو ان يقترح طرقا للتخلص من الورطة التي خلقها · في الوقت نفسه ونظرا لموقف الملك فأنني اوافق على احالة موضوع عرض مسألة بقاءنا في العراق على مجلس تأسيسي ، الى الوزارة البريطانية التي ستجتمع في أوائل ايلول · ارجو ان تبلغ الملك بفحوى هذه الرسالة · »(١٧)

لقد استغرق جواب تشرتشل هذا أكثر من خمسة أيام لانه كان في فرنسا عند ارسال كوكس مقترحاته (١١ ـ ١٦ آب) وخلال تلك الايام الخمسة حدثت تطورات جعلت كوكس يغير من موقفه المرن قبل وصول جواب تشرتشل اليه يوم ١٩ آب · ففي يوم ٩ آب ١٩٢٢ طلب مجلس الوزراء من الملك موازرة الوزارة(١٨) بعد ان استقال جعفر ابو التمن وزير التجارة احتجاجا على اقرار الوزارة نصوص المعاهدة في جلسة ٢٥ حزيران(١٩) والتي صاحبهــا تحــرك جماهــيري نشط ضد المعاهــدة والانتداب(٢٠) ، خصوصا بعد ان نشــرت الصحف العراقية تصــريح تشرشل في مجلس العموم البريطاني بأن الملك فيصل وحكومته لم يبلغا المنــدوب الســامي البريطاني في العــراق عن رفض الشــعب العــراقي للانتداب(٢١) ، مما دفع العديد من القادة الوطنيين الى ارسال برقيات الى الملك فيصل ومقابلته يوضحون فيها موقف الشعب العراقي المعارض

للانتداب(٢٢) . وقد أدى ذلك الى استقالة وزير الداخلية توفيق الخالدي ومطالبته الوزارة مفاتحة الملك لاتخاذ موقف موحد موازر للوزارة امام الضغط الجماهيري(٢٣) . الا ان جواب الملك فيصل يوم ١٤ آب على هذا القرار اقنع الوزارة بعدم استعداد فيصل لمساندتهم بشأن المعاهدة والانتداب . فاستقال جميع الوزراء في اليوم نفسه ، وكتب النقيب بذلك الى الملك طالبا منه منح وزرائه الثقة ، لكن فيصل رفض الاستجابة لنداء النقيب وطلب منه الاستمرار في ادارة الحكومة وكالة لحين تشكيل الوزارة الجديدة(٢٤) .

لقد تحدى الملك فيصل بهذا الموقف سلطة الانتداب البريطاني ، ووجه لها ضربة قوية ، رغم ان المندوب السامي قد طلب منه الوقوف الى جانب الوزارة ، وأكد له ضرورة بقاء النقيب في الحكم لحين تصديق المعاهدة من قبل المجلس التأسيسي . كما ذكره انه بمحاولته التخلص من النقيب فأن هذا يعني التصرف بطريقة تعود بالفائدة على المعارضة . ولقد فسر المندوب السامي موقف الملك بالقول ان المتطرفين قد ادركوا ان بقاء النقيب في الحكم سيقضي على كل أمل لهم في السيطرة على الانتخابات المقبلة وعلى التعيينات الوظيفية في الالوية ، ولذلك بدأ الملك بالتشكي من عدم فائدة الوزراء ، واعرب للمندوب السامي عن رغبته في اخراج النقيب من الوزارة . وعندما ارسل النقيب الى الملك حول استقالة الوزراء ، قابل المندوب السامي كوكس فيصل وحثه على اجابة النقيب بانه لم يكن يقصد عدم ثقته بمجلس الوزراء ، وانه يؤيد عدم قبول النقيب استقالات الوزراء ، وطلب منه ان يقول للوزارة انه (أي الملك) يأمل بان يستمروا في اعمالهم الوزارية وسيكون مسرورا للتباحث مع لجنة تشكل منهم لغرض رسم خطوط سياسة الحكومة بشكل أكثر تحديدا . لكن فيصل لم يستجب لجميع مطالب المندوب السامي وفرض على النقيب استقالة وزارته(٢٥) .

من جانب آخر رحب الوطنيون بسقوط الوزارة ، واعتبروه دليلا على فشل سياستها المؤيدة للانتداب ، واخذوا يجاهرون بأن عناصر الوزارة القادمة ستكون من المعارضة ، وان الانتداب سوف يلغى · ووزعت المنشورات التي أكدت رفض الانتداب والمطالبة باطلاق حرية الصحافة والاجتماعات وتأخير انتخاب المجلس التأسيسي لحين توفر الضمانات الكافية لاجرائها بحرية تامة ودون تدخل أو تزوير من أية جهة كانت(٢٦)· وقد صاحب هذا التحرك تصاعد التظاهرات والاحتجاجات خارج العاصمة · ويقدم التقرير البريطاني السنوي المرفوع الى عصبة الامم وضعا لحالة الالوية والمتصرفيات فيقول انه كان وضعا ينذر بنشوب ثورة لا مفر منها مماثلة لثورة العشرين(٢٧) ·

بناء على هذا فان قناعات كوكس بالتفاهم مع فيصل قد زالت تماما بل انه أصبح مقتنعا ان فيصل وراء هذا الهياج الجماهيري والمنشورات التي وزعت ، ولما كانت تلك المنشورات تطالب بتأخير انتخابات المجلس التأسيسي لحين ضمان الاجواء المناسبة لاجرائها بحرية ودون تزوير ، فأن هذا يعني انه ما زال لا يثق بوعود البريطانيين والتزاماتهم التي اخبره بها المندوب السامي والخاصة بالتعهد بعدم تدخلهم بالانتخابات · كما ان المندوب السامي قد فهم جيدا ان الملك يلعب بالورقة التي تلغي سلطة بريطانيا وتعزز من سلطته وسلطة القوى المعارضة للانتداب ، وهو ما زال يراهن عليها دون شك · لذلك ابرق يوم ١٦ آب الى وزارة المستعمرات قائلا بانه بايعاز من الملك فيصل قد وزعت منشورات ورسائل الى الصحف تطالب بالغاء الانتداب ورفض المعاهدة واسقاط الوزارة التي وقعتها ونقل ادارة شؤون العراق الى وزارة الخارجية البريطانية بدلا من وزارة المستعمرات · واضاف كوكس في برقيته هذه الى ان مسودة المعاهدة غير المعلنة قد وزعت من قبل الملك على (المتطرفين) لغرض انتقادها بشدة · ولذلك فأنه يرى ضرورة اتخاذ اجراءات قسرية حازمة لايقاف تدهور

الموقف ، وان هذه الاجراءات يجب ان يتخذها المندوب السامي والقوات البريطانية ، وليس الملك أو الحكومة العراقية(٢٨) ·

وفي اليوم نفسه قابل كوكس الملك فيصل وذكره بان البيانات المعادية كانت موقعة من قبل اشخاص معروف عنهم انهم تحت تأثيره وان من السهل عليه ان يبقيهم هادئين لبضعة أيام بانتظار قرار من لندن حول ايجاد حل للازمة(٢٩) · وكانت وزارة المستعمرات قد اجابته (في اليوم نفسه أيضا) على برقيته الاخيرة اليهم بان عليه الانتضار لخمسة أو ستة أيام لحين عودة تشرشل من فرنسا · ومع ذلك فقد تساءلت الوزارة عن مدى ادراك فيصل لخطورة تأخير توقيع المعاهدة ، وتقديرات المندوب السامي حول نتائج استمرار النظام غير المستقر اذا لم ينفع توجيه انذار لفيصل(٣٠) ، فأجابهم موكس ان فيصل يريد توقيع المعاهدة شرط ان يسمح للحكومة العراقية بان تعلن مع المعاهدة قرارا بالغاء الانتداب ، وان لا تمنع الحكومة البريطانية العراق من الاستمرار في الدعاية والوقوف ضد الانتداب · واضاف انه في حالة موافقة الحكومة البريطانية على ذلك فأنه سيطلب اعفاءه من منصبه احتجاجا ، واوضح ان توجيه انذار لفيصل خارج عن الصدد لانه سيؤدي فقط الى ان فيصل سيضحي بنفسه مما يقدم للمتطرفين حافزا جديدا ، وان الانذار الوحيد الذي يمكن ان يكون نافعا هو ما اقترحه في برقيته المرقمة ٥٥٥ في ١٠ آب بتوجيه انذار الى الشعب العراقي لان التوتر قد وصل الى مرحلة الانفجار وعليه لا يمكن تأجيل المعاهدة والاستمرار على الوضع الحالي · وقدم خيارا آخر هو :

« الحل الاخر الممكن تصوره هو انه يجب ان نعلن بشكل عام ان الملك فيصل لم يتمكن من اقناعنا ، واننا لسنا مستعدين منذ الان لان نفسر الانتداب على شكل معاهدة وعليه فأننا سنعود الى نظام الحكومة المؤقتة الذي كان قائما قبل تتويج فيصل حتى نصل الى اتفاق وسلام مع تركيا ·

ان ذلك سيتضمن ازاحة فيصل وبعض اعوانه من الساحة »(٣١) ·

اتفق تشرشل هذه المرة مع كوكس وطلب منه ابلاغ فيصل ان قرارا من الوزارة البريطانية سيتخذ في بداية ايلول ، وانه سيرسله الى فيصل شخصيا باسم الوزارة حول الموضوع · وفي الوقت نفسه فأنه ، أي فيصل ، يتحمل كامل المسؤولية في منع حدوث أي عنف تكـون نتائجه مفجعـة للعراق(٣٢) ·

لم يتزحزح فيصل عن موقفه رغم كل هذه التهديدات والانذارات وقد ابرق كوكس يوم ٢٣ آب ، وهو يوم الذكرى الاولى لتتويج الملك فيصل الاول ، الى تشرشل شرح فيها جميـع التطورات ولحـين تاريخ البرقية ، واضاف بأن استقالة النقيب قد نشرت وان فيصل « قد نجح في لعبته لصـالح المتطـرفين ··· وسـأبذل جهـدي لرجـوع النقيب لمنصبه »(٣٣) ·

كان فيصل قد ارسل قبل يومين من حلول ذكرى التتويج رسالة الى المندوب السامي طالب فيها البريطانيين اتباع خط سياسي واضح في العراق ، وطلب منه ان يخبر الحكومة البريطانية ان هناك احتمال بنشوب ثورة في البلاد نتيجة الوضع الحالي ، وعليه اما ان يتحمل المندوب السامي المسؤولية ، أو ان تعطى له المسؤولية كاملة للحفاظ على الامن مع الحرية الكاملة والمباشرة لادارة شؤون البلاد(٣٤) · وهكذا وضع فيصل بريطانيا امام خيارين يكون فيه الخيار الارجح لصالحه بحكم الوضع العام ، ويبدو انه لم يتصور ان بريطانيا لا مانع لديها من تسلم المندوب السامي السلطة مباشرة ·

لقد نشر آيرلند الرسالة أعلاه في كتابه (العراق دراسة في تطوره السياسي) كما اقتبسها منه المؤرخ العراقي عبدالرزاق الحسني(٣٤) · الا ان جواب كوكس على الرسالة لم يخرج من دائرة المندوب السامي ولم

ينشر من قبل بسبب احداث يوم التتويج(٣٥) ، وهو اليوم الذي ارسلت فيه صيغة الجواب الى وزارة المستعمرات للموافقة على ارساله من قبل كوكس الى فيصل • وكان تعليق كوكس على مطلب فيصل هو انه احد المطالب التي اعلنت حاليا في بيانات ومنشورات (المتطرفين) والتي تقول باعطاء الحرية للملك فيصل لادارة شؤون البلاد ، وعليه فأن تقديم فيصل لخيارين في الموضوع هو (مجرد خديعة لنا) حسب تعبير كوكس • واقترح على وزارة المستعمرات صيغة جواب تؤكد على ان تفسير الانتداب يجب ان يتم من خلال معاهدة ، وان هذه المعاهدة قد تأخر توقيعها بسبب عدم تمكن بريطانيا من الاستجابة لرغبات الملك الخاصة بالغاء الانتداب ، وان القرار النهائي للحكومة البريطانية حول هذه المشكلة لن يكون الا في ايلول القادم • اما عن المسؤولية فهي مشتركة بين الجانبين ولا يوجد مبرر لاحالة الموضوع الى الحكومة البريطانية • ثم تبدأ صيغة الرسالة المقترحة بعد هذا بتوجيه اللوم والتهديد لفيصل على أساس ان تدهور الاوضاع في العراق يقع على عاتقه شخصيا ، وأن خير وسيلة لتجاوز هذه الازمة هي التشاور مع المندوب السامي حول الخطوات التي يجب ان تتخذ لحلها ، وفيما اذا أهمل الملك هذا الاتجاه فأن المندوب السامي « مستعد بالتشاور مع قائد القوات المسلحة البريطانية في العراق لاتخاذ التدابير الضرورية للحد من حالة التدهور » • ولما كان العراق بدون حكومة بسبب استقالة وزارة النقيب فأن الترتيبات اللازمة قد اتخذت لقيام الطائرات بخفارات دورية(٣٦) • وهذا الاجراء الاخير يمثل في حد ذاته استعراض للقوة أمام تعنت فيصل ومعارضته •

لم تصل هذه الرسالة الى فيصل لان احداث يوم التتويج قد انتهت باعلان اصابة الملك بالزائدة الدودية وبحاجته الى عملية جراحية ، وقد تناولت معظم المصادر الخاصة بهذه الفترة احداث ذلك اليوم وما صاحبه

من تجمع كبير في البلاط الملكي للاحتفال بالذكرى وللاعلان عن الوقوف ضد الانتداب ، ورفض اجراء انتخابات المجلس التأسيسي بسبب الاوضاع التي لا تسمح باجرائها بحرية تامة(٣٧) • كما ان برسي كوكس قد ابرق الى تشرشل يصف فيها احداث البلاط والهتافات المعادية التي استقبل بها عند حضوره لتقديم التهنئة للملك بالمناسبة(٣٨) •

بعد يومين من رقود الملك فيصل في المستشفى ، أي يوم ٢٥ آب ١٩٢٢ ، قام برسي كوكس ومستشار وزارة الداخلية كورنوالس بزيارة الملك في الصباح الباكر وقبل ساعتين من اجراء العملية ، وأوضحا له كيف انهم قد أصبحوا يسيرون في طريقين متقاطعين ، وبناء على ذلك ، فقد قال له كوكس ان امامه خيارين وهما : اما ان يعلن انفصاله وعدم علاقتـه بمثيري الهياج ، والسير مع البريطانيين بشكل تام • أو ان يتحمل النتائج « والتي ، كما نرى ، تعني نهاية عرشه » • لان « مثيري الفتنة من جماعته قـد اجتازوا الان الحدود ، وانه اذا لم يتخـذ اجـراء حازم ضدهم فأنه سيكون من المستحيل الحفاظ على الامن العام في البلاد » • ثم طلب منه كوكس وكورنوالس اصدار الاوامر بالقاء القبض على سـبعة من قـادة الحركة الوطنية المعارضة للمعاهدة الانتدابية • ويضيف كوكس في وصفه لموقف الملك تجاه هذه المطالب بالقول :

« لقد قضينا ساعة كاملة مع الملك نحاول اقناعه بأن هذه هي فرصته لينقذ نفسه وليتخلص من ايدي هؤلاء مثيري الهياج ، لكننا ، وأقولها بكل اسف فشلنا في اقناعه للقيام بذلك ، لقد حاججنا فيصل بالقول ان مثل هذا الاجراء سيؤدي الى ثورة في البلاد ولن يؤدي النتيجة التي نرغبها ، وانه ليس مستعدا لتحمل مسؤولية ذلك على عاتقه • »(٣٦) •

واجريت العملية ، ولم يبق في البلاد حاكما سوى سلطة الانتداب التي قمعت الحركة الوطنية للمعاهدة الانتدابية ، ونفت قادتها خارج

العراق وعطلت الصحف المناوئة للانتداب واغلقت مقر الحزب الوطني العراقي كما هو معروف في المصادر(٤٠).

ان رفض فيصل جميع التهديدات البريطانية ، وغيابه في الوقت نفسه عن الساحة السياسية مع عدم وجود حكومة عراقية ، كان يعني ان على بريطانيا معالجة الموقف. ان السؤال الذي يقفز الى الذهن في ضوء هذه التطورات ، هو هل أن بريطانيا والمندوب السامي نفسه كانوا جادين في مسألة خلع فيصل عن العراق ؟ . ان الوثائق السرية البريطانية توضح انه لم يكن هناك اتجاها للقيام بمثل هذا العمل ، لعل من أهم هذه الوثائق هما البرقيتان اللتان ارسلهما كوكس الى تشرشل خلال وجود فيصل في المستشفى قبل اجراء العملية الجراحية لفيصل بيوم واحد وبعدها بثلاثة أيام ، فقد شرح كوكس في البرقية الاولى انطباعاته الشخصية عن فيصل وعوامل المشاكل التي قامت بينهما . فوصف فيصل بانه :ـ

« ذو أخلاق ساحرة في علاقاته مع الاخرين وهو لطيف ومضياف الى آخر الحدود ، لكنه الى جانب ذلك لا يمتلك ، كما يبدو لي ، المؤهلات الضرورية التي تجعله ملكا جيدا . انه ضعيف وغير مستقر . انه يعطي كلمته بسرعة ثم يتملص من تنفيذها بسرعة . انه خبيث وضليع بتدبير المكائد ، واحكامه عن الرجال رديئة . انني لا اعتقد انه يمتلك أية فكرة للعمل كملك دستوري ، بل ان طموحه هو ان يكون حاكما اوتوقراطيا عديم المسؤولية . »(٤١)

ثم يبدأ كوكس بتقديم امثلة عن مواقف فيصل غير الطيبة من الادارة البريطانية في العراق ، ويذكر ان المناطق البعيدة عن العاصمة تشهد الادارة فيها (تعاونا تاما بين الموظفين البريطانيين والموظفين العرب حسب تعبيره ، اما الالوية القريبة من العاصمة بغداد فأن اختيار فيصل (الرديء للموظفين العرب وتدخله الطائش كان لهما تأثير سيء من المتعذر

تجنبه »(٤٢) ٠

ثم يصف كوكس الطريقة التي يتدخل فيها فيصل في الادارة دون اهتمام بالسلطة الانتدابية البريطانية ونتائج ذلك على الوضع العام حسب رأيه فيضيف :-

« ان الاتصال المباشر للموظفين الشوفينيين بالبلاط واستلامهم الاوامر من هناك بدلا من وزارة الداخلية قد جعلهم يعملون من خلف ظهر مستشاريهم البريطانيين ، فأهملوا واجباتهم من أجل اطلاق العنان للدعايات السياسية ٠ لقد كانت نتيجة ذلك ان توقف دفع الضرائب وانتشر العداء بين الطوائف والقوميات ٠ ان هياج المتطرفين كان نتيجة لتشجيع الملك ودعمه لهم ودعم موظفيه الذين اختارهم لادارة الالوية »(٤٣)٠

ثم ينتقل كوكس الى جانب آخر من الموضوع وهو عداء فيصل للمستشارين البريطانيين الذين يقوم اتباع الملك بتشويه سمعتهم لا لشيء الا لان ذلك الموظف البريطاني يمتلك تأثيرا شخصيا قويا جدا ٠ ولذلك رفض فيصل « ارجاع نولدر وبذل كل جهده من أجل ازالة يلتس وهو بلاشك لن يبقي ديكسون ٠ » ٠ ويشرح كوكس بعد ذلك موقف عبدالرحمن النقيب وساسون حسقيل « والاخرين من عقلاء بغداد » حسب تعبيره ويقول انهم يعتبرون فيصل انسانا غير موثوق به تماما ، وان المعتدلين ينظرون اليه « بازدراء واحتقار ، وانني اشعر دائما بالخجل تجاه هؤلاء الناس واسأل نفسي لماذا وثقنا بفيصل ولم نثق بهم ٠ »(٤٤)

لقد وصف كوكس اراءه هذه بالنتائج المخيبة للامال التي توصل اليها بعد سنة من تعاونه مع فيصل ، وان انهيار الهدف الذي جلبوا فيصل من أجله الى العراق الى جانب خذلانه لهم امام الفرنسيين « ربما يدعو الى اعادة صياغة سياستنا العربية ككل ٠ »(٤٥) ٠

اما البرقية الثانية فقد نقل فيها كوكس اراء مستشار وزارة الداخلية كنهان كورنوالس بفيصل الذي اكد اراء كوكس في البرقية الاولى واضاف :

« اما في القضايا الادارية فأنه شخص متعب كثيرا ، فهو بأستمرار يتدخل في التعيينات والمسائل الاخرى مما يجعل وضعي حرجا . لقد عيل صبري معه ، وانني واثق ان مستشاريه يحثونه على فرض نفسه لدرجة انه يرفض في بعض الاحيان النصائح المخلصة التي يقدمها لـه المندوب السامي . انني اغتنمت كل الفرص للاحتجاج عليه ، وفي الحقيقة فأن اجتماعاتي معه خلال الاشهر الاربعة الاخيرة كانت عبارة عن سلسلة من الانتقادات والتوبيخ اللذين وجهتهما اليه . لقد اخبرته انه اذا كان احدنا في الاساس لا يرغب بالاخر فأننا سنصل الى نقطة اللا عودة . انني اشعر انه يجب علي ان اعترف بفشلي في محاولتي ابقاءه داخل الحدود المطلوبة ، اعتقد ان طبيعته في العناد الشديد لا تمكن أي شخص من النجاح فيما حاولت القيام به »(٤٦) .

يمكن ان نخرج من هاتين البرقيتين بنتيجة واحدة وهي ان اخلاق فيصـــل وسلوكيته الشخصية والادارية المناهضـــة للادارة البريطانية في العراق لا تؤهله ، حسب رأي المندوب السامي ، لان يكون ملكا على العراق . ومع ذلك فأن كوكس وكورنوالس لم يوحيا بذلك ، بل ان كوكس اوضح في نهاية برقيته الاولى انه « ليس من الممكن أو المفيد ان نقوم بأي تغيير ، وان العراق وفيصل يجب ان تعطى لهما الفرصة »(٤٧) اما كورنوالس فقد قال انه بالرغم من ان فيصل ضعيف ومضلل فأنه واثق برغبة فيصل في عقد معاهدة مع بريطانيا وهو يرى ان فيصل يجب ان ينقذ من نفسه وممن يسمون بأصدقائه « واننا ، وبعد كل ما حدث ، نمتلك الفرصـــة للاصرار على اجراء تبديلات في حاشيته وان يعلن انه مع المعتدلين وانـــه سيتقيد بنصوص دستورية ثابتة . » اما موضوع اقصائه عن العرش فقد

استبعده كورنوالس ، ليس حبا بفصيل بل لأن « التخلص من الملك سيخلق وضعا لا أمل فيه • واننا يمكن فقط ان نقدر ان فيصل ، وبكل أسف ، كان خيبة أمل لنا ويجب علينا اصلاحه اذا امكن ذلك • »(٤٨) اما تعليل كوكس بشأن ابقاء فيصل ملكا على العراق ، فقد بني انه ما دامت بريطانيا قد نصبته ملكا وما دام العراقيون قد قبلوا به فأنه لن يكون من الممكن أو المفيد تغييره(٤٩) • وهكذا كان على المندوب السامي ان يوجه ضربته القوية للمعارضة من أنصار فيصل عندما انفرد بالسلطة خلال رقود الملك في المستشفى من أجل الوصول الى النتيجة المطلوبة والتي حددها في برقيتيه الى وزير المستعمرات •

وفي يوم ٢٧ آب ١٩٢٢ ابرق كوكس الى تشرشل مخبرا اياه ان اجراءاته ضد المعارضة العراقية قد تم تنفيذها ، وان فيصل يتماثل للشفاء بسرعة ، موضحا ان وضع الملك السياسي ومستقبله قد تأثر حتما بالاجراءات التي اتخذها ضد معارضي المعاهدة الانتدابية • وسيكون امام فيصل خياران فأما « ان يتقاعد احدنا عن العمل » أو أن يمد يده الى السلطة الانتدابية البريطانية ، فيصدر بيانا يؤيد فيه كافة الاجراءات التي اتخذها المندوب السامي خلال فترة مكوثه في المستشفى • واقترح كوكس ان يتحدث مع الملك وهو في المستشفى بهذا الوضوح وان يقول له أيضا ان الرأي العام العراقي لا يعلم برفضه التعاون مع البريطانيين وعليه فان تبديل موقفه لن يؤثر على سمعته امام الناس ، وان هذه هي فرصته الاخيرة • واضاف انه سيطلب منه كذلك تبديل حاشيته وان يكون اختيار سكرتيري الملك ومساعديه في البلاط من قبل الوزارة العراقية وليس من قبله شخصيا ، كما انه يجب عليه ان يقدم تعهدا خطيا بامتناعه عن التدخل في التعيينات والامور الادارية الداخلية الاخرى • « كذلك فأنني سأصر شخصيا بانه يجب عليه ان يخضع لمشورتي في انتقائه لوزارته الجديدة • »(٥٠)

في اليوم التالي ٢٨ آب ١٩٢٢ وصلت ثلاث برقيات من تشرشل طلب فيها من المندوب السامي كوكس ان ينتهز فرصة مرض الملك فيصل لاعادة الوضع الى سابقه وذلك بتشكيل عبدالرحمن النقيب وزارة جديدة تمثل « المعتدلين » بشكل واضح(٥١) • وابلغه في البرقية الثانية تأييده لاجراءاته القمعية مع التأكيد على تقليص دور فيصل بتشكيل النقيب وزارة أكثر قوة من وزارته السابقة(٥٢) • اما في البرقية الثالثة فقد نقل له تأييد اعضاء الوزارة البريطانية اللغة التي اقترحها للتحدث مع فيصل ، وهم يعلنون ثقتهم الكبيرة باحكامه ومهارته وصرامته في معالجة الوضع الصعب في العراق • ونصح تشرشل كوكس في نهاية البرقية « بعدم التورط في كردستان »(٥٣) • ان هذا الامر كان يعني انسحاب القوات البريطانية من المناطق الكردية في شمال العراق مما يخلق مشكلة جديدة للعراق خصوصا وان السليمانية واربيل رفضتا المشاركة في انتخاب فيصل لعدم حل مشكلة الموصل ، اضافة الى ان السلطات البريطانية كانت قد فضلت ارجاع الشيخ محمود البرزنجي الى العراق بعد تتويج فيصل ملكا ، بحجة انه سيتعاون مع الحكومة العراقية للوقوف بوجه الاتراك الذين كانوا يطالبون بولاية الموصل • الا ان الشيخ محمود اعلن نفسه ملكا على كردستان وبدأ بالتعاون مع الاتراك في حين كانت قضية المعاهدة والانتداب تشغل بال العراق(٥٤) •

وبعد وصول برقية تشرشل هذه انسحبت القوات البريطانية من المنطقة الكردية بعد ان سلمت السلطة الى مجلس اداري محلي في السليمانية يرأسه شقيق الشيخ محمود البرزنجي • وبذلك أصبحت المنطقة التي تقع شرقي خط أربيل — التون كبري — كركوك — كفري ، خارج السيطرة العسكرية والادارية للحكومة العراقية(٥٥) • وبهذا أصبح بيد بريطانيا سلاح جديد للضغط على العراق • ويذكر التقرير البريطاني المرفوع الى

عصبة الامم عن هـذه الفترة بأن العـرب قـد استاؤوا كثيرا لتراخي البريطانيين وتماهلهم في التصدي للعصيان وولد لديهم الشعور بأن ذلك كان متعمدا ٠

كان تشرشل مع فكرة اعطاء فيصل فرصة لتغيير موقفه ، لكنه كان يميل الى ممارسة المندوب السامي ضغطا أكثر على العراق ، كما انه طلب منه يوم ٢٩ آب ان يحاول ابقاء فيصل مدة أطول في المستشفى لكي يكون بعيدا عن المسرح السياسي ولحين وصـول قرار الوزارة البريطانية في الاسبوع المقبل ٠ وبهذا يبقى المندوب السامي مطلق اليدين في التصرف كما يشاء ، وتكون الخطوة الاولى التي يجب اتخاذها عندئذ هي اقنـاع النقيب بتشكيل وزارة مؤيدة لبريطانيا تقوم ظاهريا بالعمـل الاداري الروتيني لحين موافقة الملك بالنتيجة عليها ٠ اما بخصوص قرار الوزارة البريطانية ، فقد اوضح تشرشل انه قد قرر تقديم توصية بنشر المعاهدة حالا واتخاذ الخطوات اللازمة لجمع المجلس التأسيسي ليقرر قبول المعاهدة كما هي ٠ وانه سيكون من الممكن الاعلان بان المادة السادسة من المعاهدة تضمن طريقا دستوريا للتخلص من الانتداب باعتبار ان دخول عصـبة الامم سيلغي اوتوماتيكيا العلاقة الانتدابية ، وان بريطانيا لن تدعم دخول العراق عصبة الامم الا اذا وقعت المعاهدة وأصبحت المادة السادسة نافذة المفعول ، والدستور قائم وفقا للمادة الثالثة من المعاهدة نفسها ٠ كذلك تعلن ان القرار الحالي الذي اتخذته عصبة الامم يقوم على أساس منع دخول أي دولة الى العصبة ما لم تحدد حدودها السياسية ٠ واضاف تشرشل انه شخصيا لا يرى ان هناك سببا يمنع بريطانيا من التعهد بدخول عصبة الامم اذا وقعت المعاهدة والاتفاقيات التابعة لها ، وتم تصديق القانون الاساسي العراقي وحددت الحدود السياسية ٠ وهنا يصل تشرشل الى النقطة المطلوبة من هذه المقدمة فيسأل سؤالا ويجيب عليـه في الوقت نفسه :ـ

« اذا تحقق ذلك الا يمكننا العمل مع أو بدون موافقة فيصل وهو بعيد عن السلطة ؟ عند ذلك يكون على فيصل مواجهة خيارين اما ان يساند وزارة النقيب في كل قرارتها أو يخلع عن العرش ، انني اعتقد انه يجب ان يوضح لفيصل تماما باننا لن تسمح له ان يحطم سياستنا جميعهـا بعناده وان يعود ، كما يعتقد ، الى الحجاز حرا دون عقاب · اننا لم نجلبه الى العراق ليلعب دورا اوتوقراطيا ، ولكن ليستقر كملك دستوري مقيد وصديق لنا في الوقت نفسه · »(٥٧)

وفي نهاية البرقية اوضح تشرشل لكوكس انه اذا قررت الوزارة البريطانية اجـراء انتخـابات المجلس التأسيسي فأن على وزارة النقيب الجديدة ان تبلغ جميع الموظفين العرب والبريطانيين ان يستخدموا تأثيرهم بشكل مناسب لضمان قبول المعاهدة من قبل المجلس التأسيسي(٥٧) · وفي اليوم التالي ٣٠ آب أكد تشرشل على كوكس بان يخبر فيصل ان رفضه التعاون مع بريطانيا سيتضمن على الارجح تغييرا كاملا في سياسة بريطانيا العربية ، وان يخبره انهم في وضع صعب في الوقت الحاضر بسبب المصروفات الكبيرة التي ينفقونها لمنع ابن سعود من الهجوم على الحجـاز واضاف « اننا اذا رفعنا يدنا عن هذه المناطق ، وهو ما سنقوم به ، فأن فيصل سيسقط مرة ثانية وسيحطم عائلته أيضا · »(٥٨)

وهكذا اسقط بيد فيصل ، فقد أصبح شمال العراق مهددا بالضياع في حين انتهى اعوانه الى السجون والمعتقلات والنفي ، وها هو مستقبل الجزيرة العربية والعراق مهدد من قبل بريطانيا · فكان عليه ان يرضخ لكل هذه التهديدات في النهاية ، ولكنه لم يتنازل عن مبدأ الوقوف ضد الانتداب ، فقد استمر في موقفه الداعي الى انهاء الانتداب الا انه غير اسلوبه في التعامل مع البريطانيين · وفي تقديري فان فترة هذا البحث واحداثه تمثل اوج الصراع الذي كان قائما بين فيصل والبريطانيين طيلة فترة

حكمه للعراق . وقد خرج من هذه التجربة بقناعة ثابتة ، وهي ان الصدام مع البريطانيين في ظل ظروف العراق الصعبة ، كونه دولة حديثة التكوين ، لن تمكنه من تحقيق امانيه في الاستقلال التام للعراق ، ولذلك فأن سياسة فيصل القادمة كانت تعتمد مبدأ (خذ وطالب) واعتماد المواقف الثابتة دون الاعتماد على اسلوب اثارة الشارع ضد السلطة الانتدابية . من جانب آخر فأن الاسلوب البريطاني في التهديد لم يتوقف في تعاملهم مع العراقيين، وقد ظهرا ذلك واضحا في تصديق المعاهدة العراقية ـ البريطانية من قبل المجلس التأسيسي عام ١٩٢٤ واتخاذ مشكلة الموصل ذريعة للضغط من أجل توقيع المعاهدة . وفي هذه المرة ، ورغم الصدام الذي وقع بين السلطة الانتدابية والمجلس التأسيسي ، فأن الملك فيصل قد وقف موقفا اكثر هدوءا ، ولم يظهر مساندا للمعارضة التي وقفت ضد المعاهدة ، كنه في الوقت نفسه لم يقف ضد معارضي المعاهدة . وهو في كل الاحوال قد عمل حتى وفاته سنة ١٩٣٣ على انتزاع ما يريده من البريطانيين بطريقة التحرك الذكي من خلال رجـالات السياسة العراقيين دون مواجهـة مباشرة مع البريطانيين . ودون الاعتماد على معارضي بريطانيا المعروفين بقيادتهـم للشارع أو بأمكاناتهم في التحريض ضد الانتداب باعتباره وجها للسلطة الاجنبية المهيمنة باسمه على البلاد . ولعله استفاد من تجربته هذه في جانب مهم وهو عدم الاخذ بالاراء التي يطلقها من حوله اتباعه ومريديه الا بعد تدقيقها ودراستها ، لانها قد تكون صادرة نتيجة صراعات سياسية أو مطامح شخصية أو نوازع قصيرة النظر . وفي كل الاحوال فان الصراع بين فيصل والبريطانيين قد اتخذ بعد هذه الفترة شكل الحوار الهادىء مع استخدام القوى الضاغطة بطريقة التلويح بها دون استخدامها علانيـة وبشكل يؤدي الى الصدام .

الهوامش :

(1) From Churchill, to Cox, Tels, August. 28th, 29th, 30th, 1922. C.O. 730, 24/43045, F.O. 371, 7771/E9258. Public Record Offic, London.

(٢) بحث هذا الجانب بشكل مفصل في معظم المصادر التي تعنى بتاريخ العراق السياسي الحديث خلال فترة الانتداب البريطاني .

(3) From Charechili, to Cox, Tel., August 29th, 1922, No. 492 (Private and Personal) In: C.O. 730, 24/43045. P.R.O.

(4) From Acting High Commissioner, to Colonial Office, Secret letter, 28th July, 1927, No. S.O. 1918, In: C.O. 130, 123/40465. P.R.O.

(5) From Bourdillon, the Acting High Comissioner, Baghdad, to The Middle East Dept., C.O. London (Lether-Secret) 28th July 1927. No. S.O. 1618. In: C.O. 730, 123/40465. P.R.O.

(6) From High Comissioner, Cox, to Colonial Office, Tel., (Secret and Persond) July 29th, 1922, In: C.O. 730. 34/45078, and F.O. 371-7771/E 9258. P.R.O.

(7) Ibid.,.

(8) From Churchill, to H.C., Tel. (Personal and Secrd) Augest 3rd, 1922. In: C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371, 7771/ᵉ 9258. P.R.O.

(9) From H.C. Cox, to C.O., August 10th, 1922 (Tel. Secret and Personal) In C.O. 730, 34, 45078. P.R.O.

(10) From Churchill, to H.C. Cox, Tel. (Private and Personal). August19th, 1922. In: C.O. 730, 34/45078 and F.O. 371, 7771/E 9258.

(١١) طالب به المندوبين الخمسة عشر من بغداد ووفود الالوية التي أيدت مطلب بغداد . انظر جريدة العراق ، ٣ حزيران ١٩٢٠ ، محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، بغداد ١٩٢٤ ، ج ١ ، ص ص ١٦٢ ـ ١٧٢ .

Arnold Wilson, Loyalties Mesopotamia, London 1936, Vol. 2, pp. 255-256.

(12) From H.C. Cox, to C.O., Tel. August 10th, 1922, No. 555. In: C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371, 7771/ E 9258. P.R.O.

(13) Ibid.,.

(14) Ibid.,.

(15) Ibid.,.

(16) From Churchill, to Cox, (Tel.) August 19th, 1922, No. Private and Personal. In: C.O. 730, 34/45078, and F.O. 371, 7771/E 9258. P.R.O.

(17) Ibid.,.

(١٨) قرارات مجلس الوزراء الصادرة في تموز ، آب ، تشرين الاول ، تشرين الثاني ، كانون أول ١٩٢٢ ، سري خاص بالحكومة العراقية فقط ، بغداد ١٩٢٩ ، ص ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(١٩) عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية ، بيروت ١٩٧٨ ، ج١ ، ص ص ١٠٣ـ١٠٤ .

(٢٠) جريدة المفيد ، ٨ آب ١٩٢٢ ، البصير ، المصدر السابق ، ج٢ .

ص ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ ٠

(٢١) الاستقلال ، ٢٨ مايس ١٩٢٢ ٠

(٢٢) الاستقلال ، ٤ شوال ١٣٤٠هـ « ٣١ مايس ١٩٢٢ » ، العراق ، ٣١ ايار ١٩٢٢ ، المفيد ، ١ حزيران ١٩٢٢ ٠

(٢٣) قرارات مجلس الوزراء ، المصدر السابق ٠

(٢٤) الحسني ، الوزارات العراقية ، ج١ ، ص ص ١٠٩ــ١١١ ٠

(25) Form H.C. Cox, to C.O. (Tel.) August 23rd 1922, no 594. In: C.O. 730, 34/42371. P.R.O.

(26) British Colonial Office, Report on Iraq Administralion. April 1922 - March, 1923, London 1924, P. 17.

المفيد ، ١٩ آب ١٩٢٢ ٠

(27) Ibid.,. P. 17.

(28) From H.C. Cox, to C.O., (Tel) Secret and Personal, 16th August. 1922, No. 574. In. C.O. 730, 34/45078 and F.O. 371., 7771/E 9258.

(29) From H.C. Cox, to C.O. (Tel). 17th August, 1922, No. 576. In. C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371. 7771/E 9258.

(30) From C.O. to H.C. Cox, (Tel.) 16th Augut -922, No. 465. Prirate and Personal, In C.O. 730, 34/45078.

(31) From H.C.. Cox, to C.O. (Tel.) 17th Augut 1922, No. 567. In: C.O. 730. 34/45078. and F.O. 371, 7771/E 9258.

(32) From Churchill, to Cox, (Tel). 22nd Augut 1922, No. Personal In. C.O. 730. 34/45078.

(33) From H.C., to C.O. (Tel) 23rd August. No. 597. In. C.O. 730, 34/42371.

(٣٤) رسالة من الملك فيصل الى المندوب السامي بتاريخ ٢٠ آب ١٩٢٢ . ملفة المعاهدة العراقية ــ الانكليزية تسلسل ٢٩ ورقة (٨٦) ، ملفات البلاط الملكي . المركز الوطني للوثائق . بغداد .

(٣٤) الحسيني ، الوزارات ، ج١ ، ص١١١ــ١١٢ .

Philip Willard Ireland, Iraq. Astudy in Politicl Development. London 1937. P. 358.

(٣٥) المصدرين السابقين .

(36) From H.C., Cox, to C.O. (Tel.) 23rd August 1922. No. 594, In: C.O. 730, 34/42371.

(٣٧) للاطلاع على التفاصيل انظر جريدة المفيد ، ٢٥ آب ١٩٢٢ ، البصير ، المصدر السابق ، ج٢ ، صص٤١٩ــ٤٢٠ ، الحسني ، تاريخ العراق السياسي الحديث ، صيدا ١٩٥٧ ، ج٢ ، صص٢٣ــ٢٤ .

British Roport on Iraq Administration to the Leaque of Nations, 1922-1923, PP. 18-19; Elizabeth Burgoyne, Gertrude Bell, From Herpersonal Papers, 1914-1926, London 1961, PP. 292-293; Ireland., Op. Cit., P.P. 358-359,

(38) From H.C., to C.O. (Tel.) August 25th, 1922. No. 597. Confidential. In. C.O. 730, 24/42741.

(39) From H.C. Cox, to C.O. (Tel.) 26th August 1922, No. 605. In. C.O. 730, 24/42829.

(٤١) انظر البيان الذي أصدره المندوب السامي بهذا الشأن ونشر في جريدة العراق يوم ٢٨ آب ١٩٢٢ ونشره الحسني ، الوزارات ، ج١ ، ص ١٢٠ـ١٢٣ . والبيان مؤرخ في ٢٦ آب .

British Report to the leaque, 1922-1923, PP. 20-22.

(41) From H.C. Cox, to Shurchill, (Tel.) 24th August 1922, Secret and Personal. In: C.O. 730, 24/42997.

(42) Ibd.,.

(43) Ibid.,.

(44) Ibid.,.

(45) Ibid.,.

(46) From H.C. Cox., to Churchill (Tel.) 28th August 1922, No. 608, Private. In: C.O. 730. 34/43046.

(47) From H.C., Cox, to Churchill, (Tel.) 24th Au?est 1922, Secret and Personal. In: C.O. 730, 24/42997.

(48) From H.C. Cox, to Churchil, (Tel.) 28th August 1922, No. 608. Private. In: C.O. 730. 24/43046.

(49) From H.C. Cox, to Churchill, (Tel.) 24th August 1922, Cecret and Phersonal. In. C.O. 730, 24/42997.

(50) From H.C. Cox, to C.O. (Tel.) 27th Augest 1922. No. 607. In: C.O. 730, 24/43045.

(51) From Churchill, to Cox, (Tel.) 28th August 1922, Personal, In C.O. 730. 24/45078. and F.O. 871, 7771/ E 9258.

(52) From Churchill, to Cox, (Tel.) 28th August 1922, Personal. In: C.O. 730. 24/42829.

(53) From Shurchill to Cox, (Tel.) 28th August 1922, In. C.O. 730. 24/42829.

(54) British Rport to the leaque, 1922-1923, PP. 36.

(55) Ibid., P. 35.

(56) From Churchill, to Cox, (Tel.) 29th August 1922, No. 492. Private and Personal. In: C.O. 730. 24/43045.

(57) Ibid.,.

(58) From Churchill, to Cox, (Tel.) 30th August 1922, Personal and Secret. In: C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371. 7771/E 9258.



لمؤسسة ... استعداده لتنفيذ كافة اعمال الديكور

مهندسين اختصاصين

نقوش اسلامية . نقوش مغربية . نقوش ايطالية . نقوش بالمرايا .

تغليف ... رمر وحجر . تعتيق الالوان ماربلكس .

نوافير ماء داخلية وخارجية . سقوف ثانوية . اصباغ .

اجهزة مكافحة السرقة للمساكن والسيارات

ورقائق النوافذ البرونزيه .



١ـ تحمي المنزل من حرارة الصيف وذلك بعكس اشعة الشمس الى الخارج

وتمنع تسرب الحرارة الداخلية في الشتاء من النوافذ

٢ـ تعمل كشاشة عازلة لمنع الرؤيا من الخارج وسريعة الصيانة والتنظيف

٣ـ تساعد الاجهزة المكيفة بتقليل العمل اليومي مما يوفر من مصروف الكهرباء

آملين ان تنال هذه التجارة الجديدة رضاكم والله الموفق

لمزيد من المعلومات الاتصال بهاتف ٤٢٢٥٩١٠